الدكتور فاضل صالح السامرائي

على طريق التفسير البياني



الجزء الثالث

سورة هود

دار ابن كثير

عَلَى طَرِيقِ

التَّفْسِيرِ الْبَيَانِيِّ

الْجُزْءُ الثَّالِثُ

- الموضوع: تفسير
- العنوان: على طريق التفسير البياني ١\٤١
- تأليف: الدكتور فاضل صالح السامرائي

الطَّبْعَةُ الأُولَىٰ

١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م

ISBN 978-614-415-267-6

ISBN 978-614-415-267-6



- الطباعة : مطابع يوسف بيضون - بيروت / التجليد: شركة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت
- الورق: كريم / الطباعة: لونان / التجليد: كرتونيه
- القياس: 17×24 / عدد الصفحات: 1656 / الوزن: 3200 غ



دمشق - سورية - ص.ب: 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
تلفاكس: 2225877 11 963+
2228450 11 963+

بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318
برج أبي حيدر - شارع أبو شقرا
تلفاكس: 817857 1 961+
705701 1 961+
جوال: 204459 3 961+

website: www.ibn-katheer.com / e-mail: info@ibn-katheer.com



 /daribnkatheer  @daribnkatheer  daribnkatheer   daribnkatheer

عَلَى طَرِيقِ التَّفْسِيرِ البَيَانِيِّ

تأليف

الدكتور فاضل صالح السَّامرائي

الجُزْءُ الثَّالِثُ

سُورَةُ هُود





بسم الله الرحمن الرحيم



سُورَةُ هُودٍ



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: ١]

١ ـ تبدأ السورة التي قبلها، أعني سورة يونس بقوله: ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ فقد وصفت الآية الكتاب بأنه ﴿ حَكِيمٍ ﴾، وذكر في هذه السورة، أي سورة هود، من أحكمه فقال: إن آياته أحكمت ﴿ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾.

فالذي أحكمها هو الحكيم.

وقال في بداية السورة التي بعدها وهي سورة يوسف: ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾.

فإنه لما ذكر في سورة هود أن آياته أُحكمت وفصلت دلّ ذلك على أنه مبين. فإنه لا يكون بعد الإحكام والتفصيل إلا مبيناً. فأي كتاب أُحكم وفصّل كان مبيناً.

فتناسبت بدايات السور المتتابعة تناسبًا بديعًا.

٢ ـ قال في خاتمة السورة التي قبلها وهي سورة يونس: ﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾. وما يوحى إليه هو الكتاب الذي أحكمت آياته، فناسب قوله: ﴿ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾ وصف



الكتاب بأنه أحكمت آياته. فخير الحاكمين هو الذي أحكم آياته.

وناسب قوله: ﴿خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ في آية يونس قوله في آية هود: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾. فالحكيم قد يكون من معنى القضاء فيكون بمعنى الحاكم.

وقد يكون من الحكمة، فالحكيم على هذا هو خير الحاكمين لأنه حكيم وحاكم. ولا شك أن الحاكم إذا كان ذا حكمة كان خير الحاكمين.

فناسب مفتتح السورة خاتمة السورة التي قبلها.

٣ ـ وناسب قوله تعالى في مفتتح السورة: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ قوله في خاتمة السورة: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

فإنه ناسب تبليغه لعباد الله في أول السورة بألاّ يعبدوا إلا الله أن يؤمر هو أيضًا بعبادة ربه بقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ﴾ فكلاهما مأمور بالعبادة، المبلِّغ والمبلَّغ.

٤ ـ وناسبت الآية الأولى من السورة، أي قوله: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ قوله في خواتيم السورة: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فإنه قَصَّ عليه ذلك في الكتاب الذي أحكمت آياته.

ثم إنه فَصَّل ما جاء فيه، وما جاء فيه هو الحق والموعظة والذكرى. فهذا تفصيل لما جاء فيه.

ثم إن الذي يختار من القصص ما يثبت به الفؤاد إنما هو حكيم خبير.

والذي يأتي بالحق والموعظة والذكرى إنما هو حكيم خبير.

فناسب مفتتح السورة خاتمتها أبدع مناسبة.

ثم ننظر في تأليف التعبير:

فقد ذكر أنه كتاب أحكمت آياته ثم فُصلت، وذكر الذي أحكمه وفصله. فالذي أحكمه هو الحكيم الخبير، والذي فصله هو الحكيم الخبير. وهل هناك من يُحكم أفضل من الحكيم الخبير، وهل هناك من يفصّل أفضل منه؟

ولم تجتمع هاتان الصفتان في الكتاب، أي الإحكام والتفصيل، في غير هذا الموضع، وإنما قد يوصف الكتاب بأنه حكيم كما في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١] أو أنه مفصل كما في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

ثم ذكر أن هذا الإحكام والتفصيل إنما هما من لدن حكيم خبير. فجمع الله لنفسه وصفي الحكمة والخبرة، وكل من الوصفين من أوصاف الكمال.

ثم ما أجلّ هذين الوصفين ههنا! فالحكيم هو ذو الحكمة البالغة وهي إحسان القول والعمل ووضعهما موضعهما الذي ينبغي أن يكونا فيه.

والخبير هو الذي يعلم بواطن الأمور وخبرها. فما أجلّ هذا الكتاب الذي أحكمه وفصله الحكيم الخبير!

وقد يكون لفظ الحكيم من معنى الحكم وهو القضاء، فيكون المعنى أنه أحكم آياته الحاكم الذي بيده الأمر فدل ذلك على علو مكانته. لأن أهمية الكتاب إنما تكون في أمرين:

في الجهة التي أصدرته، فكتاب الموظف الصغير غير كتاب المدير، وهذا الأخير غير كتاب الوالي، وهذا غير كتاب السلطان أو الخليفة. فكلما علت جهة من أصدره علا هو أيضًا على حسب تلك الجهة.

والأمر الآخر الذي يدل على أهمية الكتاب هو محتواه، فإذا كان من

أصدره حكيمًا والحكمة محتواه علت جهته أيضًا.

وهذا الكتاب إنما دل على علوه ورفعته كل مقتضيات العلو والرفعة.

فإنه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت، وهو من لدن حاكم وحكيم وخبير. ومحتواه طلب توحيد العبادة لخالق الكون. وقد أرسله هذا الخالق منه إلى من يبلغه عنه. فأية رفعة أعلى من هذه؟

ولما كان هذا شأن الكتاب ومن أنزله ذكر تعظيم هذا الكتاب وعلوه في السورة في أكثر من موضع، وتحدى المعاندين لأن يأتوا بسور من مثله في أكثر من موضع.

فقد قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣ ـ ١٤].

وقال: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧].

وقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود: ٣٥].

وقال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

فذكر أن ما ذكره من قصة نوح إنما هي من أنباء الغيب ما كان يعلمها هو ولا قومه من قبل هذا، أي إن هذا أول علمهم به. وهل أدلّ من ذلك على أن هذا الكتاب إنما هو من علم الله وأنه أنزله إليه؟

وقال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠].

وقال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ

ﭐلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

فهل هناك أجلّ من هذا الكتاب؟!

إن معنى ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ «نظمت نظمًا رصينًا لا يقع فيه نقض ولا خلل» (١).

«وإن ألفاظ هذه الآيات بلغت في الفصاحة والجزالة إلى حيث لا تقبل المعارضة» (٢).

ومعنى (فصلت) أنه فُصِّل فيها ما يحتاج إليه العباد(٣).

وجاءت (ثم) لترتيب الإخبار لا لترتيب الوقوع في الزمان.

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: ما معنى (ثم)؟

قلت: ليس معناها التراخي في الوقت ولكن في الحال كما تقول: هي محكمة أحسن الإحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل. وفلان كريم الأصل ثم كريم الفعل» (٤).

* * *

﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ [هود: ٢].

يحتمل أن يكون المعنى على التعليل، أي لئلا تعبدوا إلا الله، ولام التعليل حذفت وهو من الحذف المقيس، ويحتمل أن تكون (أن) مفسرة و(لا) ناهية، والمعنى (لا تعبدوا إلا الله). وقيل: المعنى (أمركم أن لا تعبدوا إلا الله) (٥).

---

(١) الكشاف ٢/ ٨٩، وانظر البحر المحيط ٥/ ٢٠٠.
(٢) تفسير الرازي ١٨/ ٣١٣.
(٣) الكشاف ٢/ ٨٩، وانظر تفسير الرازي ١٨/ ٣١٣.
(٤) الكشاف ٢/ ٩٠، وانظر البحر المحيط ٥/ ٢٠٠.
(٥) انظر الكشاف ٢/ ٩٠، البحر المحيط ٥/ ٢٠٠.

وجميع هذه المعاني محتملة وهي مرادة ، فإنه أحكم الآيات وفصلها لئلا يعبدوا إلا الله، وأنه نهاهم أن يعبدوا إلا الله،وأمرهم بألا يعبدوا إلا الله .

وهذا من التوسع في المعنى ، فإنه جمع كل هذه المعاني في تعبير واحد. ولو قال: (لئلا تعبدوا) أو (أمركم بألا تعبدوا إلا الله) لدل على معنى واحد .

فإن كل المعاني المحتملة مرادة وأطلق التعبير ليشملها كلها والله أعلم .

وقال (إنني) بذكر نون الوقاية مع (إنّ) ولم يقل: (إني لكم منه نذير وبشير) بنون (إنّ) وحدها ، وذلك أنه ذكر وصفين للكتاب هما الإحكام والتفصيل ففصل بذكر النونين، وذكر وصفين في المبلغ وهما الإنذار والبشارة ، فقال: (نذير وبشير) فناسب ذلك أيضًا أن يذكر النونين: نون إن[1] ونون الوقاية .

ويدلك على ذلك أنه إذا أفرد الإنذار قال: ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بنون (إن) وحدها في أكثر من موضع[2] . فلما زاد البشارة على الإنذار ذكر نونًا أخرى .

وقدم الإنذار على البشارة ههنا ذلك أن جو السورة إنما هو في إنذارات الرسل لأقوامهم .

في حين قدم البشارة على الإنذار في سورة فصلت فقال: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: ١ ـ ٤] ذلك أنه ذكر أنه

---

(١) هما في الحقيقة نونان لا نون واحدة.

(٢) انظر سورة هود: ٢٥، الحجر: ٨٩، الذاريات: ٥٠، ٥١، نوح: ٢ .

تنزيل من الرحمن الرحيم فناسب تقديم البشارة مع اسميه الرحمن الرحيم ولا يناسب تقديم الإنذار.

ولما قَدَّم البشارة في سورة فصلت ذكر بشارة الملائكة للمؤمنين وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢].

ومن الملاحظ أنه لم يجمع رسول من الرسل على لسانه أنه بشير ونذير إلا سيدنا محمد فقد قال في الأعراف: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقال ههنا في سورة هود: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾

وقدم الجار والمجرور (لكم) على (منه) لأنهم هم المخاطبون وهم المنذرون وهم المأمورون بالعبادة والكلام عليهم لا على الله.

وقد تقول: ولم يقول أحيانًا (إني لم منه نذير مبين) بذكر (منه) كما في الذاريات ٥٠، ٥١، ويقول في سياق آخر: (إني لكم نذير مبين) من دون ذكر (منه) كما في هود ٢٥، نوح ٢؟

فنقول: إذا تقدم ما يعود عليه الضمير ذكر (منه)، وإن لم يتقدم ما يعود عليه الضمير لم يذكر (منه).

وإيضاح ذلك أنه قال في هود: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود: ٢٥]، فلا يصح أن يقول: (منه) لأنه لا يعود على شيء.

وكذلك قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [نوح: ١ ـ ٢] فلا يصح أن يقول

(منه) لأنه لا يعود على شيء.

بخلاف قوله تعالى في الذاريات: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ [الذاريات: ٥٠] فقد ذكر (منه) لأن الضمير يعود على لفظ الجلالة وهو (الله).

وكذلك قوله: ﴿ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ [الذاريات: ٥١] فقد عاد الضمير في (منه) على (الله).

وكذلك آية هود هذه وهي قوله: ﴿ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴾ فقد قال (منه) والضمير يعود على (الله).

ولو لم يقل (منه) لم يدل على أن الله هو الذي أمره بالإنذار والتبشير.

* * *

﴿ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ﴾ [هود: ٣]

قدم الاستغفار على التوبة لأن الاستغفار إنما يكون من الذنوب التي فعلها العبد، وأما التوبة فتالية له، ومن شروطها عدم العودة على ما أسلف من المعصية.

جاء في (البحر المحيط): «أمر بالاستغفار من الذنوب ثم بالتوبة، وهما معنيان متباينان، لأن الاستغفار طلب المغفرة وهي الستر، والمعنى أنه لا يبقى لها تبعة.

والتوبة الانسلاخ من المعاصي والندم على ما سلف منه والعزم على عدم العودة إليها» [١].

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٢٠١.

وجاء في (تفسير الرازي): «في فائدة هذا الترتيب أن المراد: استغفروا من سالف الذنوب، ثم توبوا إليه في المستأنف. . .

(الوجه الرابع): الاستغفار طلب من الله لإزالة ما لا ينبغي.

والتوبة سعي من الإنسان في إزالة ما لا ينبغي، فقدم الاستغفار ليدل على أن المرء يجب أن لا يطلب الشيء إلا من مولاه فإنه هو الذي يقدر على تحصيله.

ثم بعد الاستغفار ذكر التوبة لأنها عمل يأتي به الإنسان ويتوسل به إلى دفع المكروه. والاستعانة بفضل الله مقدمة على الاستعانة بسعي النفس»(١).

* * *

﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾

المتاع الحسن هو الأمن النفسي واطمئنان القلب إلى ما قدر الله والرضا به والقناعة بما قسم الله له ورجاؤه في الله وثوابه وإفاضة النعم على المجتمع المؤمن والتكافل فيما بينهم ومعاونة أحدهم الآخر وسلامة النفس وسلامة المجتمع، وهذا كله من المتاع الحسن، بخلاف الكافر فإنه في قلق نفسي والخوف من زوال النعم والجزع عند المصيبة.

وهذا كله من المتاع الحسن وليس كل المتاع حسن.

جاء في (البحر المحيط): «المتاع الحسن: الرضا بالميسور والصبر على المقدور، أو حسن العمل وقطع الأمل، أو النعمة الكافية مع الصحة والعافية. . . أو لزوم القناعة وتوفيق الطاعة. . .

---

(١) تفسير الرازي ١٨/ ٣١٥.

وقال [يعني ابن عطية]: ووصف المتاع بالحسن إنما هو لطيب عيش المؤمن برجائه في الله عز وجل وفي ثوابه وفي فرحه بالتقرب إليه بمفروضاته والسرور بمواعيده.

والكافر ليس في شيء من هذا» [١].

وسمى منافع الدنيا بالمتاع «لأجل التنبيه على حقارتها وقلتها.

ونبه على كونها منقضية بقوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فصارت هذه الآية دالة على كونها حقيرة خسيسة منقضية» [٢].

* * *

﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾

«الضمير في (فضله) يحتمل أن يعود على الله تعالى، أي يعطي في الآخرة كل من كان له فضل في علم الخير وزيادة ما تفضل به تعالى وزاده.

ويحتمل أن يعود على (كل) أي جزاء ذلك الفضل الذي عمله في الدنيا لا يبخس منه شيء» [٣].

فهذا التعبير يحتمل معنيين:

الأول: إن الضمير في (فضله) يعود على صاحب الفضل، فالله يؤتيه فضله لا يبخس منه شيئًا بل يزيده.

والآخر: أن يعود الضمير على الله، أي إن الله يؤتي فضله من كان ذا فضل.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٢٠١.

(٢) تفسير الرازي ١٨/ ٣١٦.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٢٠١.

والمعنيان صحيحان وهما مرادان وهو من التوسع في المعنى.

* * *

﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾

(تولّوا) أي تتولوا حذفت إحدى التاءين تخفيفًا. ومن الملاحظ في التعبير القرآني أنه حيث ذكر التاءين في هذا الفعل كان الموقف أشد، وإذا كان أخف خفف بحذف إحدى التاءين.

فقد ذكر ههنا أنه إن تولوا خاف عليهم عذاب يوم عظيم، ولم يقل إنه يعذبهم وإنما خاف عليهم العذاب، والخوف عليهم لا يقتضي وقوع المخوف.

في حين قال: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح: ١٦]

فقد ذكر أنهم إن تولوا يعذبهم عذابًا أليمًا ولم يقل إنه يخاف عليهم العذاب.

ثم إنه وصف العذاب بأنه أليم ، وههنا وصف اليوم ولم يصف العذاب.

وقال على لسان هود لقومه: ﴿ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴾ [هود: ٥٢] بتاءين. وقال على لسانه أيضًا: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ﴾ [هود: ٥٧] بتاء واحدة.

وسياق الآية الأولى أشد ، ذلك أنهم قالوا له بعد أن قال لهم ذلك: ﴿ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ [هود: ٥٣ ـ ٥٤].

في حين لم يقولوا شيئًا بعد قوله: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ﴾

وقال: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٢]

فقد ذكر أنهم إن تولوا عن طاعة الله والرسول فإن الله لا يحب الكافرين ولم يذكر عذابهم أو عقابهم.

وقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٠].

والخطاب للمؤمنين، ولم يطلق التولي بل خصه بالتولي عن الرسول. ولما كان المخاطبون مؤمنين فإنه نهاهم عن شيء من التولي من باب التحذير.

وقال: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور: ٥٤]

فلم يذكر عاقبة التولي إلا أن عليه ما حُمّل وعليكم ما حُمّلتم وإن تطيعوه تهتدوا.

في حين قال: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴾ [محمد: ٣٨].

* * *

﴿ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾

اليوم الكبير هو يوم القيامة.

ولم يرد في القرآن (إنني أخاف) بنون الوقاية مع (إن).

* * *

﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [هود: ٤]

قَدَّم الخبر الجار والمجرور (إلى الله) على المبتدأ (مرجعكم) للدلالة على القصر والاختصاص ، فإن المرجع إليه حصرًا لا إلى غيره(١).

وقال: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ ولم يقل: (إلى الله مرجعكم جميعًا) كما قال في آيات أخرى(٢) ، ذلك أنه حيث ذكر الجميع ذكر جهات متعددة مختلفة ومعتقدات متباينة ، بخلاف آية هود هذه فإنه ذكر جهة واحدة.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨]

فقال: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ ذلك أن السياق الذي جرى فيه ذكر هذه الآية في ذكر معتقدات وأحوال اليهود والنصارى وغيرهم من الكفار ، وذلك من الآية الحادية والأربعين إلى الآية السابعة والأربعين.

ثم يستمر الكلام على الملل المختلفة فناسب ذكر الجميع.

ونحو ذلك ما جاء في الآية الخامسة بعد المائة من سورة المائدة فإنها في سياق ذكر أكثر من جهة . فإن السياق في ذكر الكافرين والمؤمنين.

فقد جاء قبل هذه الآية قوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣ ـ ١٠٤].

---

(١) انظر تفسير الرازي ١٨/ ٣١٧.

(٢) انظر المائدة: ٤٨، ١٠٥، يونس: ٤.

ثم التفت إلى الذين آمنوا فخاطبهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥].

أي إلى الله مرجعكم جميعًا من الكافرين والمؤمنين، فناسب ذكر الجميع.

وكذلك سياق آية يونس فإنه في ذكر أكثر من جهة. فهو في سياق جهتي الكافرين والمؤمنين.

فقد قال قبل هذه الآية: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٢].

فجعلهم قسمين:

القسم الأول: وهم المؤمنون الذين بشرهم ربهم.

والقسم الآخر: هم الكافرون الذين قالوا إن هذا لساحر مبين.

ثم قال بعد ذلك: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٤].

فذكر المؤمنين والكافرين.

أما آية هود هذه فإن المخاطبين فيها صنف واحد.

قال تعالى:

﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ

﴿مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود: ١ ـ ٤].

فالمخاطبون إما أن يستغفروا ربهم فيمتعهم أو يتولوا فيعذبهم، ولم يجعلهم قسمين: قسمًا مؤمنًا وآخر كافرًا. فهم إما أن يؤمنوا أو يتولوا.

في حين أن كل الذين قال فيهم: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ كانوا أكثر من صنف وأكثر من جهة.

* * *

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [هود: ٥]

قيل: إن بعض المنافقين «كان إذا مَرَّ بالرسول ﷺ ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه كيلا يرى الرسول...

وقيل: فعلوا ذلك ليبعد عليهم صوت الرسول ﷺ ولا يدخل أسماعهم القرآن» (١).

ومعنى (ثنى رأسه) طواه.

«وقيل: إن هذه الآية نزلت في الكفار الذين كانوا إذا لقيهم رسول الله ﷺ تطامنوا وثنوا صدورهم كالمتستر، وردّوا إليه ظهورهم، وغشوا وجوههم بثيابهم تباعدًا منهم وكراهية للقائه، وهم يظنون أن ذلك يخفى عليه أو عن الله تعالى، فنزلت الآية» (٢)

وذكر أنه حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون، ليدل على أنه يراهم ويراقبهم ويعلم فعلهم ونواياهم.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٢٠٢.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٢٠٣.

فأفاد التعبير الرؤية والمراقبة والعلم وليس مجرد العلم من دون رؤية ومراقبة.

وأفاد أنه حين يفعلون هذا الفعل يعلم ذلك ويعلم لمَ فعلوه؟

ولئلا يظن أن علمه محصور فيما يفعل من ظواهر الأمور، وأن علمه مقيد في ذلك الحين قال: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، ليدل على إطلاق علمه من غير تقييد. فَدَلَّ بذلك على أنه يعلم الإعلان والإسرار على كل حال عند الفعل وقبله وبعده.

فأفاد التعبير:

١ ـ الرؤية والمراقبة.

٢ ـ ذكر أنه حين يستغشون ثيابهم يعلم أي في وقت الفعل لا بعده بعد التأمل والتفكير أو الاستفسار أو مجيء الخبر أو ظهور ما يدل على ذلك فيما بعد.

وقوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ فيه احتمالان:

الأول: أن تكون (ما) مصدرية، أي يعلم إسرارهم وإعلانهم.

والآخر: أن تكون اسمًا موصولاً. والمعنى أنه يعلم الذي يسرونه والذي يعلنونه من الأمور.

والمعنيان مرادان، فإنه يعلم الإسرار والذي يسرّونه، ويعلم الإعلان والذي يعلنونه.

وهذا من التوسع في المعنى، ولو ذكر العائد فقال: (ما يسرونه وما يعلنونه) لدل على شيء واحد وهو الاسم الموصول. فكان ما ذكره أولى لأنه عَمَّ المعنيين.

لقد قال هنا: ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾، وقال في النمل: ﴿وَيَعۡلَمُ

مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥] فذكر الإخفاء دون الإسرار، ذلك أن الإسرار قد يكون في النفس كما قال تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ [يوسف: ٧٧].

وقد تُسِرُّهُ إلى غيرك، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ [التحريم: ٣]، وقال: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١]، وقال: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾ [طه: ٦٢].

وغالبًا ما يكون في الفعل والقول. جاء في (المفردات في غريب القرآن): «الإسرار خلاف الإعلان. قال تعالى: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾... ويستعمل في الأعيان والمعاني...

وأسررت إلى فلان حديثًا: أفضيت إليه في خفية. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ [التحريم: ٣]...

فإن الإسرار إلى الغير يقتضي إظهار ذلك لمن يفضي إليه بالسر وإن كان يقتضي إخفاءه عن غيره. فإذن قولهم: (أسررت إلى فلان) يقتضي من وجهٍ الإظهار ومن وجهٍ الإخفاء»[1].

وفي (لسان العرب): «أسرّ إليه حديثًا أي أفضى»[2].

أما الإخفاء فكأنه أخفى من السر. قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

وقد يكون في الأشياء التي تسترها عن الناظر من الحاجات والبضائع، تقول: (أخفيت البضاعة تحت الأرض أو في صندوق) أي سترتها.

---

(١) المفردات في غريب القرآن (سرر).
(٢) لسان العرب (سرر).

جاء في (المفردات في غريب القرآن): «خفي الشيء خفية إذا استتر... وأخفيته: أوليته خفاء وذلك إذا سترته. ويقابل به الإبداء والإعلان» (١).

أما قوله تعالى في النمل: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥] دون (ما تسرون وما تعلنون) فالسياق يوضح ذلك. قال تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ ذلك أنه ذكر أنه يخرج الخبء. أي ما هو خافٍ أو مُخفى.

والخبء «يقال لكل مدّخر مستور» (٢). و«خبأ الشيء يخبؤه: ستره... الخبء كل ما غاب» (٣).

فلما ذكر المخبوء ناسب ذكر الإخفاء لأن المخبأ مخفى.

وقال تعالى: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾ [الممتحنة: ١].

فقال: ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾ بعد قوله: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم﴾ ولم يقل: (وأنا أعلم بما أسررتم وما أعلنتم) ذلك لأنه أفاد أنه يعلم الدافع الذي أخفوه في أنفسهم من هذا الإسرار. فإنك قد تسرّ شيئًا لشخص وأنت تبتغي غرضًا من ذلك تخفيه في نفسك، فربنا يعلم ذلك الأمر وماذا أخفيت. ولو قال: (وأنا أعلم بما أسررتم) لكان ذلك ينصرف إلى إسرارهم بالمودة دون الغرض الذي يخفيه أصحابه.

وقال سيدنا إبراهيم: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ [إبراهيم: ٣٨]

---

(١) المفردات في غريب القرآن (خفي).

(٢) المفردات (خبء).

(٣) لسان العرب (خبأ).

دون (ما نسرّ وما نعلن) ذلك لأنه قال بعدها: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

وقال في موطن آخر: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصص: ٦٩] دون (ما يسرون) أو (ما يخفون) وذلك لسبب آخر. فإن (الكِنّ) هو ما تحفظ فيه من الأشياء التي تريد صونها. والكِنّ «ما يحفظ فيه الشيء، يقال: كننت الشيء كَنًّا جعلته في كِنّ وخُصّ. وكننت بما يُستر ببيت أو ثوب وغير ذلك من الأجسام...

وأكننت بما يستر في النفس... وجمع الكِنّ أكنان.

والكنان: الغطاء الذي يكنّ فيه الشيء»[1].

وفي (لسان العرب): «الكِنّ والكِنّة والكِنان: وقاء كل شيء وستره... كننت الشيء أي جعلته في كن... والأكنة: الأغطية»[2].

قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطور: ٢٤]، وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ [النحل: ٨١] أي وقاء وسترًا تحتمون بها وتحفظون أنفسكم.

وقال: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥] أي في صناديق مقفلة فلا يصل إليها شيء من دعوته.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾

وذات الصدور «الأسرار المستكنة فيها أو القلوب التي في الصدور»[3].

---

(١) مفردات الراغب (كنّ).

(٢) لسان العرب (كنن).

(٣) روح المعاني ١١/٢١١.

وقال (عليم) دون (يعلم) للدلالة على ثبوت العلم ودوامه.

جاء في (روح المعاني): «وكان التعبير بالجملة الاسمية للإشارة إلى أنه سبحانه لم يزل عالمًا بذلك. وفيه دليل على أنه تعالى يعلم الأشياء قبل وجودها الخارجي»[١].

وقال: (عليم) دون (عالم) أو (علاّم)، لأن كلمة (عالم) خُصت في الاستعمال القرآني بعلم (الغيب) مفردًا، أو (علم الغيب والشهادة)، ولم تستعمل في غير ذلك، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الجن: ٢٦]، وقوله ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ٧٣].

وأما (علاّم) فقد خص استعمالها متعلقة بـ(الغيوب) جمع الغيب نحو ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١٠٩ ـ ١١٦] وذلك أنه لما كان هذا الوصف للمبالغة والتكثير جاء بالجمع معه مناسبة للتكثير.

وأما (عليم) فقد استعملها غير مختصة بمعلوم معين، فقد يستعملها مطلقة من كل متعلق نحو ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٢]، أو يجعلها متعلقة بكل شيء فلا تترك شيئًا إلا شملته نحو ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٩]. أو يعلقها بمجموع ولا يعلقها بمفرد نحو ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٩٥]، أو يعلقها بما ارتبط بالمجموع وذلك نحو ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٥] فإنه جمع الفاعلين فقال: ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ ﴾، وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤] فذكر الصدور وليس صدرًا واحدًا[٢].

---

(١) روح المعاني ١١/٢١١.
(٢) انظر كتابنا (من أسرار البيان القرآني).

فاتضح ما قلناه.

* * *

﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]

«الدابة اسم لكل حيوان ذي روح ذكرًا كان أو أنثى، عاقلاً أو غيره»[(١)] ويحتاج إلى رزق[(٢)].

والمعنى: أن كل دابة في الأرض ضَمِنَ الله لها رزقها وهو يعلم مستقرها، وهو الموضع الذي استقرت فيه قبل مجيئها إلى هذه الدنيا سواء كانت في صُلب أم رحم أم بيضة. وما تستقر فيه حيث تأوي إليه من الأرض. ويعلم مستودعها وهو الموضع الذي تموت فيه وتدفن[(٣)].

وقد تقول: ولم قال: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فخص الدابة التي في الأرض ولم يذكر ما في السماء مع أنه ذكر دوابّ السماء في آية أخرى. قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ ﴾ [الشورى: ٢٩]؟

فنقول: إن السياق قبل الآية وبعدها على من في الأرض وعلى سكان الأرض، بل إن السورة عمومًا في الكلام على أهل الأرض والأمم التي عاشت فيها.

فناسب ذكر دواب الأرض.

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٢.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٢٠٤.
(٣) انظر الكشاف ٢/ ٩١، البحر المحيط ٥/ ٢٠٤.

ثم إنه سبق أن قال في آية قبل هذه الآية: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود: ٤] فذكر قدرته على كل شيء، فدخل في ذلك دواب السماء وغيرها.

وإضافة إلى ذلك فإنه قال بعد هذه الآية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [هود: ٧] فذكر أنه هو الذي خلقهما فدخل في ذلك دوابّهما.

وقال في آخر السورة: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] فذكر أن له غيب السماوات والأرض حصرًا لا لغيره، وأنه إليه يرجع الأمر كله حصرًا لا إلى غيره. فلا أمر من الأمور خارج عنه وعن إرادته، فدخل في ذلك دواب الأرض والسماء وإن أمر ذلك راجع إليه. فتضمن ذلك دخول دواب السماء في أمره كدخول دواب الأرض، غير أنه لما كان السياق في سكان الأرض ناسب ذكر ما يسكن في الأرض من الدواب.

ومن الطريف أن نذكر أيضًا أنه ذكر الأرض في السورة أكثر مما ذكر السماء والسماوات.

فقد ذكر الأرض في السورة إحدى عشرة مرة، وذكر السماء والسماوات ست مرات، مما يدل على أن الجو العام إنما هو في الأرض أكثر مما في السماء والله أعلم.

إن هذه الآية متصلة بقوله تعالى في آية سابقة: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ذلك لأن الذي يضمن لكل دابة رزقها ويوصله إليها إنما هو على كل شيء قدير.

ومتصلة بقوله تعالى في الآية السابقة لها: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فإنه ذكر جانبًا من علمه هناك، وذكر جانبًا آخر هنا. فإن الذي يعلم مكان كل دابة في الأرض ويوصل إليها رزقها ويعلم

مستقرها ومستودعها إنما هو الذي يعلم الإسرار والإعلان وهو العليم بذات الصدور.

ثم ذكر علمه بكل دابة في الأرض ومكانها ومستقرها فاستغرق علمه بكل الأحياء.

ثم ذكر علمه الذي لا يحد ، فإنه علم كل ذلك قبل وجود هذه الأشياء وسطر ذلك في كتاب مبين في اللوح المحفوظ.

أما تأليف الآية فإنه جاء فيها بـ (من) الاستغراقية التي تستغرق كل ما يدبّ على الأرض.

ثم قال: ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ فقدم الخبر (على الله) على المبتدأ (رزقها) وذلك للحصر للدلالة على أن رزقها عليه حصرًا لا على غيره. ولو قال: (إلا رزقها على الله) لم يفد أن رزقها عليه حصراً.

فهناك قصران:

الأول: (إلا) في الاستثناء المفرغ.

والآخر: تقديم الخبر.

وقد تقول: لو قال: (كل دابة على الله رزقها) لأفاد العموم أيضًا لأن كلمة (كل) تفيد العموم.

فنقول: إن هذا التعبير الذي ذكرته لا يفيد قصر المبتدأ على جملة الخبر وإنما هو إخبار من غير قصر ، وإنما القصر في جملة الخبر (على الله رزقها) وليس في (كل) مع جملة الخبر.

أما التعبير القرآني فإنه أفاد أنه حصر كل دابة على رزق الله وحصر الرزق على الله. وإيضاح ذلك أنك تقول:

(كل رجل كتابًا قرأ)

وتقول: (ما من رجل إلا قرأ كتابًا)

وتقول: (ما من رجل إلا كتابًا قرأ)

فالجملة الأولى خصصت فيها القراءة بالكتاب وأنه لم يقرأ غير الكتاب.

والجملة الثانية خصصت فيها الرجل بقراءة الكتاب، ولم تخص القراءة بالكتاب دون غيره، فقد يكون قرأ أيضًا غير كتاب. فقد ذكرت أن كل رجل قرأ كتابًا ولم يبق رجل لم يقرأ كتابًا. فأخبرت عنهم جميعًا أنهم قرؤوا كتبًا ولم تستثن أحدًا من قراءة الكتاب، غير أنه قد يكون فيهم من قرأ غير كتاب أيضًا، فقد يكون قرأ مجلة أو غير ذلك مما يُقرأ.

فإن قلت: (ما من رجل إلا كتابًا قرأ) كنت خصصت الرجل بالقراءة، وخصصت القراءة بالكتاب.

فالآية تفيد حصر الدابة على رزق الله، وحصر الرزق على الله.

ثم قال: (كلٌّ) أي كل ذلك عن كل دابة مدون في كتاب قبل خلقها.

وهذا الكتاب يبين كل شيء عنها.

فتضمنت الآية قدرة الله وعلمه على أتم حال.

١ ـ فقد جاء بـ(من) الاستغراقية الدالة على الشمول.

٢ ـ وقال: (دابة) وهو يشمل كل ما يدب من الأحياء وهو أعم شيء في الأحياء.

٣ ـ وقال: ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ فقصر الرزق على الله دون غيره.

٤ ـ وقال: ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ فقصر الدابة على رزق الله.

٥ ـ وقال: ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ ولم يقل (الله يرزقها) مثلاً للدلالة على أنه

ضمن لكل دابة رزقها وتكفل بذلك فهو يوصله إليها.

٦ ـ وقال ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾، والتقدير: (وما من دابة إلا يعلم الله مستقرها ومستودعها) فلا تندّ عن علمه دابة.

٧ ـ قال: (مستقرها) وهو يشمل كل موضع تستقر فيه أو استقرت فيه وكل أنواع الاستقرار سواء كان ذلك قبل مجيئها على هذه الحياة أو في حال وجودها في هذه الحياة أو بعد ذلك حيث كانت أو حيث تكون، وأين كانت قبل مجيئها سواء كانت في رحم أم بيضة أم صلب، وبعد مجيئها حيث تستقر وتأوي وحيث تكون بعد هلاكها.

ويعلم استقرارها أيضًا، فكلمة (مستقر) تدل على اسم المكان والمصدر واسم الزمان. فهو يعلم الاستقرار وموضع الاستقرار وزمان ذلك ومتى يكون.

٨ ـ وقال: (ومستودعها) بعد الموت وحيث تتفرق أجزاؤها.

فعلم كل أحوالها من السكون والحركة في الحياة وقبل الحياة وبعد الموت.

وقد تقول: إنه ذكر المستقر والمستودع، والمستقر هو موضع الاستقرار، والمستودع حيث تهلك وحيث مدفنها، ولكنه لم يذكر هنا أنه يعلم مكان تحركها.

فنقول: لما قال: ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ دَلَّ ذلك على أنه يوصله إليها حيث كانت، متحركة أوساكنة، فشمل علمه كل شيء من أحوالها.

٩ ـ وقال (كلٌّ) وهي أدل لفظة على العموم، أي كل دابة وكل أحوالها وكل شيء عنها وما ضمن لها من رزق إنما هو مدون في كتاب.

١٠ ـ (في كتاب) أي مدون ومسطور قبل الخلق، وذلك يدل على عظيم علمه وقدرته، فإنه علم كل شيء قبل وجوده، وإنَّ كل شيء يكون على ما دوّن. وذلك يدل على عظيم العلم والقدرة.

١١ ـ وقال: (مبين) أي مبين كل شيء عنها بالتفصيل.

* * *

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [هود: ٧]

بعد أن ذكر قدرته وعلمه بالبشر وعموم الأحياء ذكر قدرته وعلمه بعموم الخلق فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ أي هو لا غيره.

فهو الذي خلقهن حصرًا فلمَ يعبد سكانهما غيره؟

فارتبط ذلك بقوله: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ [هود: ٢].

وقال: ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ فدل على أنه الملك والمالك والحاكم لأن صاحب العرش هو الملك.

ودل على أن ملكه وحكمه قديمان، فإنه الملك قبل أن يخلق السماوات والأرض فإنه كان عرشه على الماء. فهو رب العرش العظيم ورب ما كان عليه العرش.

وقال: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ﴾ أي ليختبركم، ومعنى ذلك أنه خلق السماوات والأرض لحكمة وليس عبثًا، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨ ـ ٣٩] فدل على أنه حكيم.

ثم ذكر عاقبة هذا الابتلاء وأنه لم يتركهم سدى، بل سيبعثهم بعد

الموت ليجزيهم على ما قدموا فقال: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

فدل على أن لهذا الاختبار جزاء بعد الموت.

١ - فارتبط قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود: ٤].

٢ - وارتبط ذلك بقوله: ﴿حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ فإن الذي خلق السماوات والأرض بهذا النظام المحكم الدقيق إنما هو حكيم خبير.

٣ - وارتبط قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ بقوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ﴾ بمعنى الحكم. فصاحب العرش إنما هو الحاكم.

٤ - ودل قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ بأن حكمه وملكه قديمان وليسا حادثين، فإن ذلك قبل خلق السماوات والأرض.

٥ - ودل قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أنه إنما فعل ذلك لحكمة، فارتبط ذلك بقوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ بمعنى الحكمة والخبرة.

والذي يعلم أحسن الأعمال إنما هو الخبير.

فارتبط قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ باسمه الحكيم من الحكم.

وارتبط قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ باسمه الحكيم من الحكمة، وارتبط باسمه الحكيم من الحكم والقضاء؛ لأن الذي يحكم في الأعمال حسنها وأحسنها إنما هو الحاكم ذو الحكمة.

٦ - وارتبط قوله: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾ بقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٧ ـ وارتبط قوله: ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ بقوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ [هود: ٨] ذلك أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان بمقدوره أن يقول لها: (كن) فتكون، ولكن إنما فعل ذلك لحكمة، فقد خلق السنن الكونية وجعلها تعمل بقدرته وتقديره. وقد يكون إنما فعل ذلك ليعلّم عباده الصبر، فإنه أمر بالصبر بعد بعض الآيات التي ذكرت ذلك، فقد قال في سورة (ق): ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨]، ثم قال بعد ذلك: ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ [ق: ٣٩].

فإذا ذكر أيامًا معدودات لخلق السماوات والأرض وهي ستة أيام وذلك لحكمة أرادها فإنه قد يؤخر العذاب إلى أمة معدودة تقتضيها حكمته.

فدلت هذه الآية على أنه حي عالم قدير حكيم خبير.

واقتضى ذلك ألاّ يعبد غيره. وكيف يعبد غيره وهو الخالق القادر الرازق العالم المحيي المميت الباعث؟

ثم قال بعد ذلك: ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾.

أي إنك تزين هذا الأمر بحديثك وتعدهم بالبعث بعد الموت ليطيعوك فتسحرهم بقولك وتؤثر فيهم تأثير السحر مع أن كلامك باطل بطلان السحر، وقد قال أحدهم عن القرآن: ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ [المدثر: ٢٤].

جاء في (الكشاف) في قوله: ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ «باتّين القول ببطلانه... ومعنى قولهم: ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أن السحر أمر باطل، وأن بطلانه كبطلان السحر، تشبيهًا له به. أو أشاروا بهذا إلى

القرآن، لأن القرآن هو الناطق بالبعث، فإذا جعلوه سحرًا فقد اندرج تحته إنكار ما فيه من البعث وغيره» (١).

وجاء في (تفسير الرازي): «قال القفال: معناه أن هذا القول خديعة منكم وضعتموها لمنع الناس عن لذات الدنيا وإحرازًا لهم على الانقياد لكم والدخول تحت طاعتكم...

الثالث: إن القرآن هو الحاكم بحصول البعث وطعنوا في القرآن بكونه سحرًا لأن الطعن في الأصل يفيد الطعن في الفرع» (٢).

* * *

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [هود: ٨]

أسند تأخير العذاب إلى نفسه سبحانه فقال: (أخرنا)، ثم قال: ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ﴾ ولم يقل: (ليس منصرفًا عنهم) ليدل على أن العذاب لا ينصرف من نفسه وإنما يصرفه صارف.

كما لم يقل: (ألا يوم يأتيهم لا نصرفه عنهم) فيسند عدم صرف العذاب إلى نفسه وإنما جعله اسم مفعول.

فأسند تأخير العذاب إلى نفسه، ولم ينسب عدم صرفه إلى نفسه سبحانه إشارة إلى رحمته بخلقه.

والأمّة: هي المدة من الزمان.

ومعنى الآية: أن الذين كفروا إذا تأخر عنهم ما يوعدون من العذاب

---

(١) الكشاف ٢/ ٩١.

(٢) تفسير الرازي ٦/ ٣٢٠.

استهزؤا وقالوا: ما يحبسه؟ أي: أيّ شيء يمنعه من الوقوع؟ يقولون ذلك استهزاء.

فقال ربنا: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

فقال: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ ولم يقل: (ألا يوم نأتي به) فأسند الإتيان إلى العذاب ولم يسنده إتيانه إلى نفسه.

فأنت ترى أنه أسند التأخير إليه سبحانه، وأسند الإتيان إلى العذاب لا إليه سبحانه. ونفى الصرف بصيغة اسم المفعول ولم يقل: (لا نصرفه عنهم). كل ذلك تلطفًا بعباده لعلهم يرجعون إليه.

وقال: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ «على لفظ الماضي مع أنه لم يقع مبالغة في التأكيد والتقرير»[1]. والفعل (حاق) يقال لما يصيب الإنسان من مكروه وسوء.

لقد قال: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فجعل استهزاءهم هو الذي حاق بهم وهو الذي أوجب عليهم العذاب. فهذا الذي وقع بهم إنما كان مما كسبت أيديهم وليس ظلمًا واقعًا عليهم، وإنما هو من ظلمهم لأنفسهم.

وقدم ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ على قوله: ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾، قيل: وهو متعلق بقوله: ﴿مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ وأصل التعبير (ليس مصروفًا عنهم يوم يأتيهم).

ومنع قسم من النحاة مثل هذا التقديم، قالوا: لأن خبر (ليس) لا

---

(١) تفسير الرازي ١٨/ ٣٢١.

يتقدم عليها لأنها فعل جامد فلا يتقدم معمول الخبر عليها. وخَرَّجوا التعبير على تقدير آخر.

وقد تقول: ولماذا هذا التقديم، ولماذا لم يأت به على الأصل فيقول: (ألا ليس مصروفًا عنهم يوم يأتيهم)؟

فنقول: إن التعبير القرآني أولى، ذلك لأنه لو قال: (ألا ليس مصروفًا عنهم يوم يأتيهم) لنفى صرف العذاب يوم يأتيهم، ولكنه قد يصرف في يوم آخر. كما تقول: (لست مسافرًا يوم الجمعة) فإنك قد تسافر في يوم آخر.

وأما التعبير القرآني فقد ذكرت فيه توجيهات غير التقديم:

منها: تقدير فعل يتعلق به الظرف وهو (ألا يلازمهم يوم يأتيهم) أو نحوه.

ومنها: أن يعرب (يوم) مبتدأ مبنيًا على الفتح[١] لأنه أضيف إلى جملة وإن كان فعلها معربًا، وهذا ما جوزه الكوفيون وآخرون ومنعه الجمهور.

فيكون (يوم يأتيهم) مبتدأ ليس متعلقًا بشيء وجملة ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ خبرًا عنه. وعلى ذلك يكون عدم الانصراف مطلقًا غير مقيد بزمن.

ويؤيد هذين التقديرين قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فأطلقه ولم يقيده. فيكون التعبير القرآني أولى، ويكون تقدير الآخرين مرجوحًا، حتى أننا لو قلنا بجواز التقديم في مثل هذا التعبير فإن المعنى يضعف على جعل (يوم) متعلقًا بمصروف كما رأيت. وهو نظير ما يجوز فيه أوجه إعرابية متعددة بعضها أرجح من بعض.

---

(١) انظر روح المعاني ١٢/ ١٥.

وقد تقول: ولماذا لم يقل: (ألا يومُ يأتيهم ليس مصروفًا عنهم) برفع اليوم على الابتداء ويزول الإشكال ويخرج من الندرة أو الضعف ومن الاختلاف في بناء نحو هذا، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩] برفع (يوم)؟

فنقول: لو قال ذلك لكان المعنى ضعيفًا أيضًا، ذلك أنه لو قال: (ألا يومُ يأتيهم ليس مصروفًا عنهم) برفع اليوم كانت جملة (ليس مصروفًا عنهم) خبرًا عن اليوم وسيكون المعنى أن اليوم لا ينصرف، في حين أن المقصود أن العذاب لا ينصرف وليس اليوم، وإنما اليوم مصروف لا محالة.

وهذا الضعف حاصل على تقدير إعرابه مبتدأ مع بنائه على الفتح أيضًا.

والذي نراه راجحًا في هذا هو تقدير عامل للظرف (يوم) وهو (يلازمهم) أو نحوه لسلامته مما ذكرناه، ويؤيده قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فجعله مطلقًا ولم يقيده بزمن والله أعلم فيكون التعبير القرآني أولى من كل ما يذكر.

ثم إنك ترى أنه لم يذكر نوع العذاب وإنما قال: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فجعل استهزاءهم وفعلهم هو الذي يحدد العذاب الذي سيلحقهم وهو الذي يحيق بهم، فلا يقول قائل إنه أقل مما يستحقون أو أكثر مما يستحقون. وهو منتهى العدل، والحمد لله رب العالمين.

* * *

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾

[هود: ٩]

ذاق الشيء: خبره وجرّبه. والذوق يكون بالفم وبغير الفم، ويكون في المحمود والمكروه[١]. وهو يصلح للقليل والكثير[٢]. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢]، وقال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١] وهذا من الذوق القليل.

وقال: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ [النساء: ٥٦]. والعذاب هنا دائم مستمر لا ينقطع، واستعمل له الذوق.

وقال: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢٢]، وهو نحو ما مرَّ.

وقال: ﴿وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٨، ٣٩]، فذكر أنَّ العذاب مستقر، أي ثابت لا يتحول، ثم قال: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ وهو عذاب متصل وقد عبر عنه بالذوق.

وقال: ﴿وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ١٩] فوصفه بأنه عذاب كبير.

وقال: ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ [يونس: ٧٠] فوصفه بأنه عذاب شديد.

والرحمة نعمة من صحة أو مال أو كل ما تقتضيه راحة البال، ونزعها سلبها. واليؤوس «شديد اليأس من أن تعود إليه مثل تلك النعمة المسلوبة، قاطع رجاءه من سعة فضل الله من غير صبر ولا تسليم لقضائه ولا استرجاع.

---

(١) انظر لسان العرب (ذوق)، المصباح المنير (ذوق).
(٢) انظر مفردات الراغب (ذوق).



﴿كَفُورٌ﴾: عظيم الكفران لما سلف من التقلب في نعمة الله نسّاء له»[1].

وهذا تبيين لحال الإنسان وهي أنه إذا سلبت منه نعمة كان يتقلب فيها يئس من عودتها، وكفر النعمة التي كان ينعم فيها إلا ممن استثناه الله فيما ذكر بعد.

وقد قدم الجار والمجرور (منا) على الرحمة فقال: ﴿أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾، في حين أخره عنها في موضع آخر، فقد قال في فصلت: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

فقدَّم الرحمة وأخَّر الجار والمجرور (منا) ذلك أنه في آية هود ذكر ما يفعله نزع الرحمة لا ما تفعله الرحمة فأخرها، لأن الكلام ليس عليها بل على نزعها.

وأما في آية فصلت فإن الكلام على ما تفعله الرحمة بعد الضراء. فآية هود في نزع الرحمة فأخرها، وأما آية فصلت فالكلام على الرحمة فقدمها.

لقد ختم آية هود هذه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ فختمها باليأس والكفران.

وفي آية أخرى ختمها باليأس والقنوط. فقد قال في فصلت: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت: ٤٩]

فختمها بقوله: ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ والقنوط شدة اليأس من الخير، ذلك ـ والله أعلم ـ أنه في هود ذكر أمرين: إذاقة الرحمة ونزعها، وبين أن

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٢.

الإنسان إذا سلبت منه النعمة التي كان يتقلب فيها أدركه اليأس ولم يشكر ما سلف من نعمة الله عليه فهو يؤوس كفور ، مع أن إذاقة الرحمة تقتضي الشكر وأن نزعها يقتضي الصبر والدعاء والرجاء غير أنه يئس وكفر.

وأما في فصلت فلم يذكر نعمة أو خيرًا أصابه قبل أن يمسّه الشر وإنما ذكر مَسَّ الشر فحسب.

وأما قبل ذلك فلم يذكر أنه مسه خير أو أصابته حسنة ، وإنما قال: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ وهذا لا يدل على حال بعينها من نعمة أو سوء.

ولما ذكر مَسَّ الشر له فحسب جاء بصفتين من صفات اليأس ، فقال: (يؤوس قنوط).

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه.

* * *

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١٠ - ١١]

النعماء: قيل: هي «إنعام يظهر أثره على صاحبه.

والضراء: مضرة يظهر أثرها على صاحبها. . .

وهذا هو الفرق بين النعمة والنعماء ، والمضرة والضراء» (١).

وقال: ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ﴾ بتذكير الفعل (ذهب) ، ولم يقل: (ذهبت السيئات عني) ، وهذا جارٍ في جميع القرآن إذا جعل السيئات فاعلاً فإنه يذكّر الفعل. قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ [الزمر: ٤٨] ، وقال: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ [الزمر: ٥١] ، وقال:

---

(١) تفسير الرازي ١٨/ ٣٢٢.

﴿ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ [الزمر: ٥١]، وقال: ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ [الجاثية: ٣٣].

وذلك مراعاة للمعنى والله أعلم، إذ المقصود أنه يصيبهم جزاء السيئات وما توجبه السيئات من العذاب ونحو ذلك، فذكّر لأنه أراد معنى المذكر، ويوضح ذلك قوله: ﴿ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٥٠ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: ٥٠ ـ ٥١].

بتذكير الفعلين (أصابهم) و(سيصيبهم) ذلك أنه ليس المقصود أنه أصابتهم سيئات أعمالهم، وإنما المقصود أنه أصابهم عذاب هذه السيئات أو جزاء هذه السيئات، ولذلك قال: ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ إشارة إلى العذاب الذي حل بهم. ثم هَدَّد من كان في زمنه من الظالمين قائلاً: ﴿ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: ٥١] أي سيصيبهم جزاء سيئاتهم وما يستحقون من العذاب ولذا قال: ﴿ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

فذكّر الفعل إشارة إلى المعنى.

وأراد هنا بقوله: ﴿ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ﴾ ذهاب البؤس وذهاب سيّء العيش وزوال ما ساءه منه فذكّر الفعل مراعاة للمعنى، وليس المقصود ذهاب السيئات من الأعمال التي يعملها الفرد، والله أعلم.

والفرِح الأشر البطر «وهذا الفرح مطلق فلذلك ذم المتصف به ولم يأت في القرآن للمدح إلا مقيدًا بما فيه خير كقوله: ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٧٠]»[1].

---

(١) البحر المحيط ٥/٢٠٦.

والفخور: هو الذي يفخر على الناس بما عنده ، وهنا يفخر على الناس «بما أذاقه الله من نعمائه قد شغله الفرح والفخر عن الشكر» (١) .

ولم تأت كلمة (فخور) في القرآن إلا في ذم من اتصف بها ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان: ١٨] ، وقال: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد: ٢٣].

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ على ما أصابهم من الضراء.

﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ في كل أحوالهم سواء في حال الضراء أو النعماء.

ومن العمل الصالح شكرهم لربهم على ما أنعم عليهم فأولئك لهم مغفرة ؛ لأن المؤمن إذا أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له ، والمصائب كفارة للذنوب. فذكر المغفرة لأن ما أصابهم من الضراء مدعاة للمغفرة إذا صبر صاحبها.

﴿ لَهُم أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ وذلك لأن هذا الأجر أصابهم في حالتي الضراء والنعماء ، ففي الضراء نالهم أجر الصابرين المحتسبين ، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠] ، وفي حال النعماء نالهم أجر الشاكرين إضافة على أجر العمل الصالح الذي ذكره في قوله: ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فكان الأجر كبيرًا.

جاء في (البحر المحيط): «واستثنى تعالى الصابرين يعني على الضراء وعاملي الصالحات ، ومنها الشكر على النعماء ، أولئك لهم مغفرة لذنوبهم يقتضي زوال العقاب والخلاص منه ، وأجر كبير هو الجنة ، فيقتضي الفوز بالثواب» (٢) .

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٢.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٢٠٦.



وجاء في (روح المعاني): «وأيًّا ما كان فالمراد صبروا على ما أصابهم من الضراء سابقًا أو لاحقًا إيمانًا بالله تعالى واستسلامًا لقضائه. . .

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ شكرًا على نعمه سبحانه السابقة واللاحقة. قال المدقق في الكشف: لما تضمن اليأس عدم الصبر، والكفران عدم الشكر، كان المستثنى من ذلك ضده ممن اتصف بالصبر والشكر. فلما قيل: (إلا الذين). . . إلخ كان بمنزلة إلا الذين صبروا وشكروا» (١).

وذكر أحوال الإنسان في حالي إذاقة الرحمة ونزعها، وحالي إذاقة النعماء ومس الضراء، بياناً لما تقدم من قوله: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ﴾ [هود: ٧]، فإن هذا من البلاء في السراء والضراء.

جاء في (روح المعاني): «وقال بعض المحققين: إن وجه التعلق من حيث إن إذاقة النعماء ومساس الضراء فصل من باب الابتلاء واقع موقع التفصيل من الإجمال في قوله سبحانه: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ﴾» (٢).

ومن الملاحظ أنه أسند مظاهر الرحمة والخير إلى نفسه سبحانه دون مقابلها فقد قال: ﴿وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ﴾ فأسند تأخير العذاب إلى نفسه، في حين قال: ﴿أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ﴾ فأسند إتيانه إلى العذاب لا إليه سبحانه، فلم يقل: (ألا يوم نأتي به)، كما سبق أن ذكرنا.

وقال: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ﴾ فأسند إذاقة الرحمة إلى نفسه.

وقال: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ﴾ فأسند إذاقة النعماء إلى نفسه.

---

(١) روح المعاني ١٢/١٦.
(٢) روح المعاني ١٢/١٦.

في حين قال: ﴿بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ﴾ فأسند المَسَّ إلى الضراء ولم يقل: (بعدما مسسناه بالضر) ونحوه، كل ذلك من باب إسناد الخير إلى نفسه سبحانه دون السوء والشر.

وقد تقول: ولكنه قال: ﴿ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ﴾.

فنقول: إن هذا ما يقتضيه قوله: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ﴾ فإن البلاء يكون في السراء والضراء، والخير والشر، كما قال تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

ومع ذلك فقد اختار أهون الأمور، فلم يقل: (مسسناه بالشر) أو (مسسناه بالسوء) ونحو ذلك، وإنما قال: ﴿ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ﴾ أي أعاده إلى حالته قبل إذاقته الرحمة. وهو كما يعطي أحد أحدًا شيئًا على سبيل الاختبار ثم يسترجعه منه ليرى كيف يفعل.

فهو لم يقل إنه أصابه بالضر أو بالسوء أو بالشر، وإنما قال أذاقه شيئًا ثم أعاده ليختبره. وهو أخف من إصابته بالضراء أو بالشر أو نحوه.

جاء في (روح المعاني): «وفي إسناد الإذاقة إليه تعالى دون المس إشعار بأن إذاقة النعمة مقصودة بالذات دون مَسِّ الضُّرِّ بل هو مقصود بالعرض... وفي التعبير عن ملابسة الرحمة والنعماء بالذوق المؤذن على ما قيل بلذتهما وكونهما مما يرغب فيه، وعن ملابسة الضراء بالمس المشعر بكونها في أدنى ما يطلق عليه اسم الملاقاة من مراتبها من اللطف ما لا يخفى ولعله يقوي عظم شأن الرحمة» [١].

ثم لننظر نسق الآيات وترتيبها:

فقد بدأ بعموم المكلفين وطلب منهم أن لا يعبدوا إلا الله.

---

(١) روح المعاني ١٢/ ١٥.

ثم خص الكافرين بالذكر وذلك قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ﴾ ثم ذكر ما هو أعم وهو كل دابة في الأرض فقال: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ .

ثم عاد إلى ذكر عموم المكلفين فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾

ثم خص الكافرين فقال: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ .

ثم ذكر ما هو أعم وهو الإنسان فقال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ .

فكان النسق على النحو الآتي:

عموم المكلفين ـ الكافرين ـ ما هو أعم وهو كل دابة.

عموم المكلفين ـ الكافرين ـ ما هو أعم.

ثم إنه بدأ وانتهى بالكتاب، فقد بدأ بقوله: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ .

وانتهى بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ . . . أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [هود: ١٢ ـ ١٣].

فكان النسق في ترتيب الآيات واحدًا.

* * *

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢].

ومناسبة الآية لما قبلها ظاهرة، ذلك أنه لما ذكر الذين صبروا في الآية السابقة أشار إلى ما يقتضي الصبر في هذه الآية، ذلك أنه في مثل هذا

الضيق ينبغي الصبر، الصبر على ما يجد في نفسه، والصبر على ما يقولون.

قيل: و(لعل) في نحو هذا تفيد الزجر «والعرب تقول للرجل إذا أرادوا إبعاده عن أمر: لعلك تقدر أن تفعل كذا، مع أنه لا شك فيه. ويقول لولده لو أمره: (لعلك تقصر فيما أمرتك به) ويريد توكيد الأمر، فمعناه: لا تترك»[1].

وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ولم يقل: (تارك ما يوحى إليك) لِيُحَذِّره من ترك أي شيء من أمور الدين بسبب أقوال الكافرين واستهزائهم، بل إن عليه أن يبلغه كله أيًّا كان موقف الكافرين منه، ومهما سبب ذلك من ضيق في صدره «وكانوا لا يعتدون بالقرآن ويتهاونون به وبغيره مما جاء به من البينات، فكان يضيق صدر رسول الله ﷺ أن يلقي إليهم ما لا يقبلونه ويضحكون منه، فحرك الله منه وهيجه لأداء الرسالة وطرح المبالاة بردهم واستهزائهم واقتراحهم بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ أي لعلك تترك أن تلقيه إليهم وتبلغه إياهم مخافة ردهم وتهاونهم به وضائق به صدرك بأن تتلوه عليهم، (أن يقولوا) مخافة أن يقولوا: لولا أنزل عليه كنز، هلا أنزل عليه ما اقترحنا نحن من الكنز والملائكة، ولم ينزل عليه ما لا نريده ولا نقترحه»[2].

وقال: (ضائق) ولم يقل: (ضيق) «ليدل على أنه ضيق عارض غير ثابت؛ لأن رسول الله ﷺ كان أفسح الناس صدرًا. ومثله قولك: زَيد سيد وجواد، تريد السيادة والجود الثابتين المستقرين، فإذا أردت الحدوث قلت: سائد وجائد»[3].

---

(١) تفسير الرازي ١٨/ ٣٢٤.

(٢) البحر المحيط ٥/٢٠٦ ـ ٢٠٧.

(٣) الكشاف ٢/ ٩٢.

وذلك لأن اسم الفاعل يدل عل الحدوث ، بخلاف الصفة المشهبة فإنها تدل على الثبوت. فـ (حسن) يدل على الثبوت و(حاسن) يدل على الحدوث ، تقول: (هو حاسن غدًا) أي سيحسن ، ونحوه: كريم وكارم.

جاء في (البحر المحيط): «وليس هذا الحكم مختصًا بهذه الألفاظ ، بل كل ما يبنى من الثلاثي للثبوت والاستقرار على غير وزن (فاعل) رد إليه إذا أريد معنى الحدوث ، فنقول: حاسن من حسن ، وثاقل من ثقل ، وفارح من فرح ، وسامن من سمن»(١).

وقال: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ ﴾ بتنوين (تارك) ولم يقلها بالإضافة ، للدلالة على تحذيره من فعل ذلك في المستقبل ، أي لعلك ستترك ؛ لأن إعمال اسم الفاعل شرطه أن يدل على الحال أو الاستقبال. ولو قالها بالإضافة لاحتمل المضيّ أيضًا فيكون الزجر عما فعل ، أي لعلك تركت بعض ما يوحى إليك ، فهو يحذره من أن يكون قد ترك بعض ما يوحى إليه. وهذا لا يصح ، إذ هو ﷺ أحرص الخلق على تبليغ الوحي.

وقَدَّم ﴿ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ ﴾ على ﴿ضَائِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ مع أنه قد يكون ضِيْقُ الصدر سببًا للترك ، ذلك أنه قدم ما هو الأهم وهو ما يوحى إليه ، فإن ترك بعض ما يوحى إليه هو أهم وأخطر من ضيق الصدر. وقد يضيق صدر المرء من شيء غير أنه لا يترك الأهم. وقد ذكر ربنا عن رسوله في موطن آخر أنه يضيق صدره بما يقولون فأرشده إلى التسبيح والصلاة فقال: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧ ـ ٩٨].

وقال: ﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ ﴾ فقدَّم (به) على الصدر ، ولم يقل:

---

(١) البحر المحيط ٥/٢٠٧.

(وضائق صدرك به) ذلك لأن المجرور وهو الهاء في (به) يعود على بعض ما يوحى إليه وهو أهم من الفاعل ، فقدم ما هو أهم. ألا ترى أنه قال في آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ فقدم (الصدر) على (ما يقولون) لأن صدره ﷺ أهم مما يقوله المستهزئون؟

وقال: ﴿أَن يَقُولُواْ﴾ ولم يقل: (أن قالوا) أو (لقولهم) ذلك أن قوله: ﴿أَن يَقُولُواْ﴾ يفيد الدوام والاستمرار ، أي لأنهم يقولون ذلك. أما (أن قالوا) فإنه يفيد أنهم قالوه في الماضي وانتهى الأمر ، وقد يكونون قالوه مرة واحدة.

وكذلك لو قال: (لقولهم) فإنه يحتمل المضي وأنهم قالوه مرة واحدة. في حين أنهم يقولون ذلك باستمرار مما يدعو إلى ضيق صدره ﷺ بذاك.

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ «أي مال كثير ، وعبَّروا بالإنزال دون الإعطاء لأن مرادهم التعجيز بكون ذلك على خلاف العادة ، لأن الكنوز إنما تكون في الأرض ولا تنزل من السماء. ويحتمل أنهم أرادوا بالإنزال الإعطاء من دون سبب عادي» [(١)].

﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ «أي ليس عليك إلا أن تنذرهم بما أوحي إليك وتبلغهم ما أمرت بتبليغه ، ولا عليك ردّوا أو تهاونوا أو اقترحوا.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ يحفظ ما يقولون ، وهو فاعل بهم ما يجب أن يفعل ، فتوكل عليه وكِلْ أمرك إليه» [(٢)].

* * *

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم

---

(١) روح المعاني ١٢/١٩.

(٢) البحر المحيط ٥/٢٠٦.

﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٣ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣ ـ ١٤]

إن مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة، ذلك أنهم إنما يقولون: لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك أو نحو ذلك لعدم تصديقهم برسالته ﷺ، وأنهم يرون أن ما يأتي به إنما هو افتراء، فذكر ذلك ههنا وتحداهم بأن يأتوا بعشر سور مثله وأن يفتروا هم كما افترى وأن يدعوا كل من يستطيعون ليفعلوا ذلك.

وقد ذكرنا في كتابنا (أسئلة بيانية في القرآن الكريم) هذه الآية وما كان نحوها من آيات التحدي وبينا ما فيها من أمور بيانية فلا نعيد القول فيها.

جاء في (البحر المحيط): «ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنها لا تتعلق أطماعهم بأن يترك بعض ما يوحى إليه إلا لدعواهم أنه ليس من عند الله وأنه هو الذي افتراه»[1].

وجاء في (الكشاف): «أم منقطعة، والضمير في (افتراه) لما يوحى إليك. تحداهم أولاً بعشر سور، ثم بسورة واحدة، كما يقول المخاير في الخط لصاحبه: اكتب عشرة أسطر نحو ما أكتب، فإذا تبين له العجز عن مثل خطه قال: قد اقتصرت منك على سطر واحد...

فإن قلت: ما وجه جمع الخطاب بعد إفراده وهو قوله: ﴿لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟﴾ بعد قوله: (قل)؟

قلت: معناه فإن لم يستجيبوا لك وللمؤمنين لأن رسول الله ﷺ والمؤمنين كانوا يتحدونهم»[2].

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٢٠٨.
(٢) الكشاف ٢/ ٩٢.

ومن الملاحظ في رسم الآية أنه أخفى حرف الشرط في هذه الآية ، أدغم نون (إن) في (اللام) ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ [هود: ١٤] ، وأظهرها في آية أخرى وذلك في قوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠].

وهذا الأمر يتعلق برسم المصحف ، ورسم المصحف لا يقاس عليه إلا أنه قد يمكن تعليله من الناحية البيانية أحيانًا.

فقد قال في (القصص): ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القصص: ٤٨ ـ ٥٠].

ومن الظاهر أن التكذيب في آية هود إنما هو لمحمد خاصة ، فإنه قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ وقال قبلها: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾.

وقال: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ يعني القرآن.

وأما في القصص فإن التكذيب لمحمد وموسى ، فقد قال على لسانهم: ﴿قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ أي محمد وموسى.

وقال: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ﴾ يعني التوراة والقرآن.

فلما كان الكلام في هود على واحد وحّد الرسم.

ولما كان الكلام في القصص على اثنين جعل الرسم اثنين وفصل

بينهما ، ذلك أن الرسولين إنما هما في زمانين منفصلين وأن الكتابين منفصلان والله أعلم.

﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ أي القرآن.

﴿ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾أي واعلموا ذلك. والعلم بهذا إنما هو من مقتضيات ما مَرَّ من التحدي. فإنه بعد أن تبين عجز الجميع من دون الله عن الاستجابة لما طلب علم أن ما عداه ليس بإله ولا ندّ لله ، لأنه لو كان إلهًا لم يعجز عن الإتيان بمثله.

وقال: ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ فأمرهم بالعلم (فاعلموا) ليكون إيمانهم عن علم وبصيرة وليس تصديقًا بلا حجة وتسليمًا بلا دليل ، كما قال تعالى في عباد الرحمن: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣].

وقَدَّم قوله: ﴿ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ على قوله: ﴿ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لأن السياق إنما هو في الكلام على القرآن وليس على التوحيد. ثم إن القرآن يتضمن التوحيد ويأمر به ، فالإيمان به إيمان بالتوحيد قطعًا.

وبعد أن ذكر ما ذكر من مقتضيات الإيمان والعلم به حفزهم إلى الإسلام ، وهو الانقياد لأمر الله والاستجابة له ، ولم يكتف بمجرد الإيمان والعلم فقال: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ لأنه لو صدق المرء بقلبه وعلم الحق ولم يكن منقادًا لأمر الله مستجيبًا له لم ينفعه ذلك ولم ينجه من النار ، كما قال تعالى في عادٍ وثمود: ﴿ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨] فلم ينفعهم استبصارهم.

وكما قال في قوم الرسول: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] فلم ينفعهم عدم تكذيبهم ، بل سيكونون من الذين أضلهم الله على علم.

وقال: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي أفلا يدعوكم ذلك إلى الإسلام؟ أولا يدعوكم ذلك إلى الاستجابة بعد ما تبين صدق الرسول وما جاء به؟

وهو أبلغ مما لو قيل (أسلموا) فيأمر بالإسلام، ذلك أنه ينبغي أن يستجيبوا هم من أنفسهم من بعد توفر دواعي الإسلام وإن لم يطلب منهم ذلك أحد.

إن قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إنما هو السبيل للدخول في الإسلام.

فالذي يريد الدخول في الإسلام عليه أن ينطق بالشهادتين:

(لا إله إلا الله محمد رسول الله).

وهذا الجزء من الآية تضمنهما، فقوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ إقرار بنبوة محمد.

وقوله: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إقرار بكلمة التوحيد.

ولما كانت هاتان الشهادتان هما المدخل إلى دين الله وهو الإسلام قال بعد ذلك: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

* * *

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥ ـ ١٦]

هاتان الآيتان مناسبتان للجو الذي وردتا فيه.

فقد ذكر في أول السورة سبيل المتاع الحسن في الدنيا وهو الاستغفار والتوبة فقال: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى

وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣].

والمتاع الحسن مما يريده الإنسان في هذه الدار مؤمنهم وكافرهم. فقال فيمن يريد الحياة الدنيا وزينتها أنه يوفي إليهم أعمالهم فيها. ولم يقل إنه يمتعهم متاعًا حسنًا.

في حين قال في الصنف المستغفر التائب إنه يمتعهم متاعًا حسنًا. وقال فيمن يريد الحياة الدنيا: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾.

وقال في الصنف التائب: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾.

ولا شك أن الصنف التائب متاعه أفضل ممن يريد الحياة الدنيا وزينتها.

ثم ذكر بعد ذلك أثر الرحمة والنعماء في الإنسان فقال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ٩ ـ ١٠].

وذكر الذين يقولون: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ [هود: ١٢] والكنز من وسائل متاع الحياة الدنيا وزينتها.

فناسب ما مَرَّ ذكره من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها.

جاء في (البحر المحيط): «مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما ذكر شيئًا من أحوال الكفار المناقضين في القرآن ذكر شيئًا من أحوالهم الدنيوية وما يؤولون إليه في الآخرة. وظاهر من العموم في كل من يريد زينة الحياة الدنيا والجزاء مقرون بمشيئته تعالى، كما بين ذلك في قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨]»(١).

لقد قال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ فأدخل (كان) على الفعل المضارع (يريد)، وهذا التعبير يفيد الاستمرار، أي يريدها على وجه

---

(١) البحر المحيط ٥/٢٠٩.

الدوام. جاء في (روح المعاني): «وإدخال (كان) للدلالة على الاستمرار، أي من يريد ذلك بحيث لا يكاد يريد الآخرة أصلاً»[١].

﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ ﴾.

«نوصل إليهم أجور أعمالهم وافية كاملة من غير بخس في الدنيا، وهو ما يرزقون فيها من الصحة والرزق. وقيل: هم أهل الرياء، يقال للقراء منهم: أردت أن يقال فلان قارئ، فقد قيل ذلك. ولمن وصل الرَّحم وتصدق: فعلت حتى يقال، فقيل، ولمن قتل فقتل: قاتلت حتى يقال فلان جريء فقد قيل.

وعن أنس بن مالك: هم اليهود والنصارى، إن أعطوا سائلاً أو وصلوا رحمًا عجل لهم جزاء ذلك بتوسعة في الرزق وصحة في البدن.

وقيل: هم الذين جاهدوا من المنافقين مع رسول الله ﷺ فأسهم لهم في الغنائم»[٢].

وجاء في (روح المعاني): «(نُوفِّ) متضمن معنى (نوصل) ولذا عُدِّي بإلى، وإلا فهو مما يتعدى بنفسه. وقيل: إنه مجاز عن ذلك»[٣].

وقد عدّى (نوفّ) هنا بـ (إلى) وعداه إلى مفعولين في آيات أخرى، فقد قال في آية أخرى من سورة هود: ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [هود: ١١١]. فعداه إلى ضميرهم وإلى الأعمال.

وقال: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ [آل عمران: ٥٧].

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٢٣.

(٢) الكشاف ٢/ ٩٣.

(٣) روح المعاني ١٢/ ٢٣.

وغير ذلك من الآيات(١) .

والذي يظهر من الفرق بين الاستعمالين في القرآن الكريم :

أن تعدية هذا الفعل بـ (إلى) إنما خصها بالأموال ، قال تعالى : ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال : ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقال في آية هود هذه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ والحياة الدنيا وزينتها إنما تتأتى عن طريق الأموال.

ثم إن تعدية هذا الفعل بـ (إلى) أفادت معنى (نوصل إلى) كما مَرَّ ، فمعنى (نوفّ إليه) نوصل إليه. والإيصال إلى شخص ما لا يقتضي المباشرة بالإيصال أو المواجهة ، فقد توصل شيئًا إلى أحد عن طريق شخص آخر أو وسيلة ما. ويتضح من الاستعمال القرآني أن ما جاء مُعَدّى بنفسه إنما هو في الآخرة وذلك نحو قوله تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ [النور: ٢٥].

وقوله : ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الأحقاف: ١٩]

وقوله : ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ [النحل: ١١١].

وغير ذلك.

ومعنى ذلك أن الأمر يدل على المواجهة والتوفية المباشرة ، ذلك أنه في يوم القيامة يعرض الجميع على ربهم فيواجههم بأعمالهم ، كما قال :

---

(١) انظر على سبيل المثال: النور ٢٥ ، فاطر ٣٠ ، النساء ١٧٣ وغيرها.

﴿ وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۝٤٧ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ﴾ [الكهف: ٤٧ ـ ٤٨].

وأما ما عدّاه بـ (إلى) فهو لا يخص الآخرة، فقد يكون الإيصال في الدنيا، فإن آية هود إنما هي خاصة بالدنيا كما هو واضح، فقد قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا ﴾ . .

وأما آية الإنفاق فإنها لا تختص بالآخرة، بل قد يكون أثره في الدنيا، فإن قوله تعالى: ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقوله: ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، قد يكون ذلك في الدنيا والآخرة، أي يوفيه ما أنفق في الدنيا، ويؤتيه أجره في الآخرة. ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ: ٣٩] وقوله ﷺ: (ما نقص مال من صدقة).

وعلى هذا فالفرق بين (وفّاه) و(وفّى إليه) في الاستعمال القرآني:

١ ـ إن (وفّى إليه) خصّه القرآن بالأموال، وأما (وفّاه) فهو عام.

٢ ـ إن (وفّى إليه) قد يكون ذلك في الدنيا، وأما (وفّاه) فاستعمله لما بعد الدنيا.

٣ ـ لما كان (وفّى إليه) تضمن معنى الإيصال فإن ذلك لا يقتضي المواجهة والمباشرة بالتوفية، بل قد تكون عن طريق آخر.

ومن المعلوم أن ربنا إذا أراد أن يوفي في الدنيا من أنفق هيأ له أسباب التوفية.

وأما (وفّاه) فلما كان في الآخرة اقتضى ذلك مواجهة الرب الذي يوفي الأعمال.

* * *

﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾

﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ أي في الدنيا.

وقوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ يحتمل معنيين:

أحدهما: أن قوله: (فيها) أي في الأعمال، فالضمير في (فيها) يعود على الأعمال، والمعنى أننا نوفي إليهم أعمالهم في الدنيا ولا يبخسون في أعمالهم.

والآخر: أن (فيها) يعود على الدنيا، أي وهم في الدنيا لا يبخسون.

وهذا هو الأظهر.

فتكون التوفية في الدنيا، وكذلك عدم البخس.

قد تقول: أما كان يمكن الاكتفاء بضمير واحد فلا يكرر (فيها) فيقول مثلاً: (نوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم لا يبخسون)؟

فنقول: لو قال ذلك لكان عدم البخس في الدنيا والآخرة، ولكان المعنى أنه يوفي إليهم أعمالهم في الدنيا وأنهم لا يبخسون مطلقًا، فيكون عدم البخس في الدنيا والآخرة. في حين أنه أراد أن كل ذلك في الدنيا، فإنه يوفي إليهم أعمالهم فيها، وأنهم فيها لا يبخسون. وأما الآخرة فإنهم حبطت أعمالهم فيها وأنه ليس لهم فيها إلا النار، كما قال تعالى في الآية بعدها.

جاء في (روح المعاني) في قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ «أي لا ينقصون، والظاهر أن المجرور للحياة الدنيا.

وقيل: الأظهر أن يكون للأعمال لئلا يكون تكرارًا بلا فائدة. وردّ بأن فائدته إفادته من أول الأمر أن عدم البخس ليس إلا في الدنيا، فلو لم يذكر توهم أنه مطلق»[١].

* * *

(١) روح المعاني ١٢/ ٢٤.

﴿ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

١ ـ لقد ذكر الصنع ثم ذكر العمل فقال: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ ثم قال: ﴿ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ والصنع هو إجادة العمل ، وأما العمل فهو عام يشمل الصنع وغيره ، وقد ذكر بطلانه كله: ما بذلوا فيه جهدهم لإحسانه ، وما عملوه على وجه العموم.

وذكر مع الصنعة الحبوط ، ومع العمل البطلان ؛ ذلك أن الحبوط أخص من البطلان ، فالحبوط خاص بالأعمال ، وأما البطلان فهو عام في الأعمال وغيرها كما سنبين.

والصنع أخص من العمل لأنه ما أجيد منه. فذكر الخاص مع الخاص ، والعام مع العام.

٢ ـ قوله: ﴿ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ يحتمل أن يكون الجار والمجرور (فيها) متعلقًا بـ (حبط) فيكون المعنى: (وحبط فيها ما صنعوا) أي في الآخرة ، فيعود الضمير على الآخرة فيكون الحبوط في الآخرة.

كما يحتمل أن يكون الجار والمجرور متعلقًا بـ (صنعوا) فيكون المعنى: (وحبط ما صنعوا في الدنيا) فيعود الضمير على الدنيا.

والمعنيان مرادان ، فإنه حبط في الآخرة ما صنعوا في الدنيا.

وهذا من التوسع في المعنىٰ. ولو قدَّم الجار والمجرور فقال: (وحبط فيها ما صنعوا) لكان احتمالاً واحدًا.

فالتعبير القرآني أولى لأنه يشمل معنيين.

جاء في (البحر المحيط): «والضمير في قوله: ﴿مَا صَنَعُواْ فِيهَا ﴾ الظاهر أنه عائد على الآخرة والجار والمجرور متعلق بحبط. والمعنى: وظهور حبوط ما صنعوا في الآخرة.

ويجوز أن يتعلق بقوله: (صنعوا) فيكون عائدًا على الحياة الدنيا كما عاد عليها في (فيها) قبل»[١].

٣ ـ قوله: (ما صنعوا) يحتمل أن تكون فيه (ما) مصدرية فيكون المعنى: وحبط صنعهم.

كما يحتمل أن تكون (ما) اسمًا موصولاً فيكون المعنى: وحبط الذي صنعوه من الأعمال.

والمعنيان مرادان، فقد حبط الصنع والعمل، وحبط ما صنعوه، وهذا من التوسع في المعنى أيضًا.

ولو قال: (ما صنعوه) لكان اسمًا موصولاً فقط. فما ذكره أولى لأنه أعم وأشمل.

جاء في (البحر المحيط): «و(ما) في (ما صنعوا) بمعنى (الذي) أو مصدرية»[٢].

ثم لننظر في تأليف هذه العبارة، أعني قوله تعالى: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من جهة أخرى.

فإن القسم الأول منها وهو قوله: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا﴾ مبني على الخصوص.

والقسم الآخر: وهو قوله: ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ مبني على العموم.

فقوله: ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أعمُّ من قوله: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا﴾ من أكثر من جهة:

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٢١٠.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٢١٠، وانظر الكشاف ٢/ ٩٣.

١ ـ فقد قال في العبارة الأولى: (وحبط).

وقال في العبارة الثانية: (وباطل).

والباطل أعم من الحبوط، فإن الحبوط خاص بالأعمال، ولم يرد في القرآن إلا كذلك. قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة: ٥].

وقال: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٧] وقال: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٣].

وأما الباطل فهو عام في الأعمال وغيرها مما لا يصح فيه الحبوط. قال تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١١٨]، وقال: ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦].

ويكون الباطل لغير العمل، فقد يكون في المعبودات والمعتقدات وغيرها مما هو نقيض الحق.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢].

وقال: ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ٢٩].

وقال: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: ٧٢].

وقال: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

وقال: ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر: ٥].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢].



وغير ذلك وغيره.

فقد يكون الباطل يعني المعبودات الباطلة من دون الله ، وقد يكون من المعتقدات الباطلة غير دين الله ، وغير ذلك.

فالباطل أعم من الحبوط.

٢ ـ وقال: (حبط) بالفعل الماضي.

وقال: (باطل) بالاسم.

والاسم على العموم أثبت وأعم من الفعل.

فكان الباطل أعم من الحبوط من حيث الدلالة ومن حيث الصيغة.

٣ ـ وقال في العبارة الأولى: (ما صنعوا).

وقال في العبارة الثانية: (ما كانوا يعملون).

والصنع هو إجادة العمل وإحسانه ، فالعمل أعم من الصنع لأنه قد يكون بإجادة أو بغيره.

٤ ـ قال في العبارة الأولى: (ما صنعوا) بالفعل الماضي.

وقال في العبارة الثانية: (ما كانوا يعملون).

والعبارة الثانية أعم لأنها تدل على الاستمرار في الماضي.

فقوله: (صنعوا) قد يدل على زمن من أزمنة الماضي ، وقد يدل على الحدوث مرة واحدة في الزمن الماضي.

أما قوله: ﴿ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ فإنه يدل على الاستمرار في الماضي فهو أعم.

فقولك: (صنعوا) حالة واحدة وزمن واحد من قولك: (كانوا يصنعون).

٥ ـ قال في العبارة الأولى: ﴿مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ فقيد الصنع في الدنيا أو الحبوط كما ذكرنا.

وأطلق في العبارة الثانية فلم يقل (وباطل فيها)، كما لم يقل: (ما كانوا يعملون فيها)، فالعبارة الثانية أعم.

٦ ـ قوله: ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أعم من حيث التأليف من قوله: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ ذلك أن قوله: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ فعل وفاعل.

وقوله: ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ يحتمل أن يكون (باطل) خبرًا مقدمًا، وقوله: ﴿مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ مبتدأ مؤخر.

كما يحتمل أن يكون ﴿مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ فاعلاً لاسم الفاعل (باطل)، والباطل خبر ثان لأولئك[1].

فهو أعم على كل حال.

* * *

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧]

إن صحة الحكم في القضاء تستند إلى أحد أمرين:

البينة أو الشهود العدول، فإن ثبت أحدهما صح الحكم على الدعوى بالصحة. فإن تعاضد على ذلك البينة والشهود والعدول فذلك ما لا مطمع وراءه في الصحة.

---

(١) انظر البحر المحيط ٥/ ٢١٠.



وقد ذكر ههنا الأمرين الذي يحكم بأحدهما على صحة الدعوى: البينة والشاهد.

فقد ذكر البينة فقال: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

وذكر الشاهد أيضًا فقال: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ وهذا الشاهد عدل لأنه (منه) أي من ربه.

ولما كانت الدعوى أنه مرسل من ربه، أي أرسله ربه، لزم أن تكون البينة من ربه فقال: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي إن الله آتاه بينة وبرهانًا على أنه رسوله.

ولما كان الشاهد يشهد على هذه القضية لزم أن يكون الشاهد من ربه فقال: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾، وترتب على ذلك أن يكون عدلاً، لأن الشاهد من الرب لا يكون إلا عدلاً.

ولم يكتف بذلك بل ذكر شاهدًا آخر لا تدفع شهادته، وهو أن هناك كتابًا سابقًا من ربه، أي من الجهة نفسها، وذلك قبل أن يأتي هذا الشخص إلى الدنيا بقرون يشهد على ما جاء به هذا الرسول.

وهذا الكتاب السابق ذكر ذلك صراحة بما لا يحتمل التأويل في أن هذا الشخص هو المقصود بعينه. فقد ذكر اسم الرسول ومكان نشأته وعلامته البدنية ومن أي شعب هو وإلى أين يهاجر وإلام يؤول أمره. كل ذلك مذكور في التوراة[1] يعرفه من اطّلع على ذلك كما يعرف الأب ابنه، وإن أهل الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

فقال في ذلك: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي يشهد على

---

(١) انظر كتابنا (نبوة محمد من الشك إلى اليقين).

ذلك. وقيل: إن الإنجيل[١] شاهد أيضًا فقد ذكره صراحة.

وبهذا يكون قد ذكر جملة أدلة كل منها كافٍ في إثبات صحة الدعوى:

١ ـ البينة.

٢ ـ الشاهد.

٣ ـ الكتب السابقة

وكل ذلك من الجهة التي جاء رسولاً عنها، فهل يبقى في نفس أحد شك أو ريبة في صحة رسالته؟ ولذا قال بعد ذلك: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ بحذف نون (تكن)، أي لا يك في نفسك أي شيء من شك أو ريبة، واحذف ذلك من نفسك كحذف نون (تكن) من أصل الكلمة.

فتعاضد على إزالة المرية من النفس النهي وحذف النون وتقرير أنه الحق، فقد قال بعد ذلك: ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

ثم احتاط بعد ذلك بما يمنع كل خاطر شك، فقد يرى أن كثيرًا من الناس لم يؤمنوا بذلك فقال له إن هذا من طبيعة الناس، فإن أكثرهم لا يؤمنون وإن جاءتهم كل آية، وإن أتيتهم بكل دليل، كما قال في موطن آخر: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

فذكر كل أمر يدفع الريبة ويمنعها فلا يبقى في النفس منها شيء.

فنهاه عن ذلك بقوله: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أبلغ ما يكون النهي.

١ ـ فقد جاء بـ (الفاء) الدالة على السبب في قوله (فلا تك)، أي إن ما ذكرناه سبب كاف للانتهاء عن الريبة.

---

(١) انظر فتح القدير ٢/ ٤٦٥.

٢ ـ النهي بقوله: (لا تك).

٣ ـ حذف النون من (تكن) وقد ذكرنا دلالة ذلك على قوة النهي.

٤ ـ قال: (في مرية) فجاء بـ (في) الظرفية، أي لا تكن فيها كما يكون الشخص في اللجة وكن بعيدًا عنها.

٥ ـ نكّر المرية ليشمل كل شك فيه.

٦ ـ ثم قال: (منه) أي من القرآن، ولم يقل: (ولا تك في مرية) فتكون عامة مطلقة، إذ المرء لا ينفك عن شك أو ريبة في أمر من الأمور، وإنما طلب الانتهاء عن الريبة في هذا الأمر.

٧ ـ ثم أثبت صحة ما هو عليه بقوله: (إنه الحق) فأكده بـ (إنَّ).

٨ ـ عرّف (الحق) ولم يقل: (إنه حق) ليدل على أنه وحده الحق ولا حق سواه، فلو اتبعت أي كتاب آخر كان اتباعك باطلاً. فكل كتاب قبله منسوخ وقد دخله التحريف والتبديل، فلا حق فيما سواه لا في نصه ولا في قبوله عند الله.

٩ ـ ذكر الجهة التي قررت أحقيته وقضت بذلك فقال: ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ فلا أحد أعلم بالحق منه، ولا شيء أحق بالاتباع من هذا الحق.

١٠ ـ ثم قال بعد ذلك: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ليطمئن قلبه إلى ما هو عليه ولا توحشه كثرة من لا يؤمن من الناس.

١١ ـ ثم حذر من لا يؤمن بأن موعده النار فقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾.

فذكر في الآية أن البينة من ربه، وأن الشاهد من ربه، وأن الكتب السابقة التي شهدت له من ربه، وأنه الحق من ربه، فهل بعد ذلك شيء من الريبة؟!

ثم نعود إلى الآية: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

فقد قيل: إن البينة هي القرآن، وقيل: هي الأدلة العقلية والمعجزات التي تقطع بصحة نبوته ﷺ.

والشاهد قيل هو القرآن، ومن ذلك نظمه المعجز الذي تحدى به البشر.

وقيل: الإنجيل وقد شهد له بذلك وذكر اسمه صراحة.

وكتاب موسى هو التوراة.

لقد قال: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ ولم يذكر المعادل للدلالة عليه بمن تقدم ذكره وهو من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها، وبمفهوم المخالفة ممن لم يكن على بينة ولا دليل.

وقال: ﴿ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ ﴾ فجعله مستعليًا عليها متمكنًا منها، وهذا نظير قوله تعالى في أكثر من موضع: (على هدى) فجعله مستعليًا عليه متمكنًا منه.

والبينة نظير الهدى.

وقال: ﴿ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ فذكر الرب لأن الرب هو المربي والمرشد والموجه والمعلم وهو الأنسب مع ذكر البينة. ولم ترد (البينة) في القرآن مقرونة إلا مع الرب، ولم ترد مع غيره من أسماء الله الحسنى، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وقوله: ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الأعراف: ٧٣، ٨٥]، وقوله: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [محمد: ١٤] وغيرها.

وذكر شاهدين: شاهدًا يتلوه وشاهدًا من قبله.

ويبدو ـ والله أعلم ـ أنَّ الشاهد الذي يتلوه مستمر على يوم القيامة ، ففي كل زمان يظهر شاهد على صدقه ﷺ كما قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : ٥٣] . وكما قال ﷺ عن القرآن إنه (لا تنقضي عجائبه) .

ولذا جاء بالفعل مضارعًا فقال : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ فاستغرقت الشهادة له الماضي والحال والاستقبال . فشهادة الماضي شهادة الكتب السابقة ، وشهادة الحال والاستقبال ما يتلوه من الشاهد .

وقال : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ فجاء بفعل الشرط مضارعًا ليشمل كل من يكفر به في الحال والمستقل ، ولم يقل : (ومن كفر) فيحتمل اختصاص ذلك بمن كفر في زمانه .

وقال : (به) ولم يقل : (ومن يكفر) فقط فيجعل ذلك عامًّا ، فجعل الكفر به على الخصوص مدعاة إلى دخول النار وإن لم يكفر بغيره ، فلو آمن بكل شيء وكفر به فهو من أهل النار .

جاء في (تفسير الرازي) : «فالحاصل أنه يقول اجتمع في تقرير صحة هذا الدين أمور ثلاثة :

أولها : دلالة البينات العقلية على صحته .

وثانيها : شهادة القرآن بصحته .

وثالثها : شهادة التوراة بصحته . . .

فقوله : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ المراد بالبينة الدلائل العقلية اليقينية .

وقوله : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ إشارة إلى الوحي الذي حصل لمحمد عليه السلام .

وقوله: ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ إشارة إلى الوحي الذي حصل لموسى عليه السلام.

وعند اجتماع هذه الثلاثة قد بلغ هذا اليقين في القوة والظهور والجلاء إلى حيث لا يمكن الزيادة عليه»(١).

وجاء في (الكشاف): «﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ معناه: أفمن كان يريد الحياة الدنيا كمن كان على بينة؟ أي لا يعقبونهم في المنزلة ولا يقاربونهم، يريد أن بين الفريقين تفاوتًا بعيدًا وتباينًا بينًا. وأراد بهم من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره كان على بينة (من ربه) أي على برهان من الله وبيان أن دين الإسلام حق.

(ويتلوه) ويتبع ذلك البرهان (شاهد منه) يشهد بصحته وهو القرآن (منه) من الله، أو شاهد من القرآن، فقد تقدم ذكره آنفاً.

(ومن قبله) ومن قبل القرآن (كتاب موسى) وهو التوراة، أي ويتلو ذلك البرهان أيضًا من قبل القرآن كتاب موسى.

(إماماً) كتابًا مؤتمًّا به في الدين قدوة فيه.

(ورحمة) ونعمة عظيمة على المنزل إليهم.

(أولئك) يعني من كان على بينة (يؤمنون به) يؤمنون بالقرآن»(٢).

وجاء في (البحر المحيط): «لما ذكر حال من يريد الحياة الدنيا ذكر حال من يريد وجه الله تعالى بأعماله الصالحة. وحذف المعادل الذي دخلت عليه الهمزة، والتقدير: كمن يريد الحياة الدنيا.

وكثيرًا ما حذف في القرآن كقوله: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾،

---

(١) التفسير الكبير ١٨/ ٣٢٩ ـ ٣٣٠.

(٢) الكشاف ٢/ ٩٣.

وقوله: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ وهذا استفهام معناه التقرير . . .

والبينة: القرآن أو الرسول ، والهاء للمبالغة . . .

والشاهد: القرآن و(منه) عائد على ربه ، ويدل على أن الشاهد القرآن ذكر قوله (ومن قبله) أي ومن قبل القرآن كتاب موسى ، فمعناه أنه تظافر على هدايته شيئان:

كونه على أمر واضح من برهان العقل.

وكونه يوافق ذلك البرهان هذين الكتابين الإلهيين: القرآن والتوراة فاجتمع له العقل والنقل»[1].

* * *

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [هود: ١٨ ـ ١٩].

هذه الآية مناسبة لما تقدم من قوله سبحانه: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ فقد ذكر فيها شأن المفترين على الله وحالهم ومآلهم.

١ ـ فقد قال: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ على سبيل الاستفهام ، والمعنى: ولا أحد أظلم ممن يفتري على الله.

وقال: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ ولم يقل: (ولا أظلم) ليشارك المخاطب في الجواب ، فيقول: (لا أحد أظلم منه).

وهو أبلغ من (لا أظلم) لأن كل مخاطب أو سامع إذا سئل عن ذلك فقيل له:

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٢١٠.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فسيقول: لا أحد أظلم منه ، ويقرر ذلك بنفسه.

٢ ـ وقال: ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فنكّر الكذب ليشمل كل كذب ، ولا يختص بأمر معين. فدخل في ذلك كل افتراء وكل مفتر.

فيشمل ذلك من قال: أوحي إليّ ولم يوح إليه شيء ، ومن زعم أن ما جاء به هو كلام الله أو من شرع الله وحلل وحرم ما لم يأذن به الله ونسب ذلك إلى الله ، وغير ذلك وغيره من الافتراءات.

٣ ـ وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ لتقريرهم بفعلتهم والإشهاد عليهم لفضيحتهم وإلحاق الخزي بهم.

وعرضهم على ربهم إذلال لهم لأنهم عرضوا على من كذبوا عليه ، فيكونون بمواجهته ، ولئلا ينكروا ذلك جاء بالأشهاد فيشهدون عليهم ويقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾

٤ ـ قال أولاً: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فذكر اسمه العلم (الله).

ثم قال: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾ فذكر اسم الرب مضافًا إليهم.

فهؤلاء افتروا على الله خالق السماوات والأرض.

وافتروا على (ربهم) هم ، ربهم الذي أحسن إليهم ورباهم وقام على أمرهم.

فالافتراء على الرب من أسوأ الأفعال وأقبحها ، فمن افترى على ربه وسيده ومتولي أمره ومن أحسنَ إليه كان مسيئًا بالغ الإساءة.

فإن كان الرب هو (الله) ازدادت الفعلة سوءًا ، فقد جمعت الإساءة الكذب على الله وعلى ربه فكانت أسوأ فعلة وأخزى فضيحة.

ولو جاء باسم واحد فقال في التعبيرين: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ ثم قال: (هؤلاء الذين كذبوا على الله) لم تكن بتلك الإساءة، فإن لكل اسم من أسماء الله الحسنى دلالته فافتروا عليه بذاته وافتروا عليه مع أنه ربهم.

فازدادوا ظلمًا على ظلم وقبحًا على قبح.

٥ ـ قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ والأشهاد جمع شاهد كأصحاب جمع صاحب، أو جمع شهيد كأشراف جمع شريف(١).

وجاء بالأشهاد ليشهدوا شهادة علنية أمام الثقلين على أن هؤلاء كذبوا على ربهم ليفضحوهم ويخزوهم.

والإشارة إليهم بـ(هؤلاء) زيادة في إذلالهم وفضحهم.

جاء في (البحر المحيط): «لما سبق قولهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ ذكر أنه لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبًا، وهم المفترون الذين نسبوا على الله الولد واتخذوا معه آلهة وحرموا وحللوا من غير شرع الله.

وعرضهم على الله بمعنى التشهير لخزيهم والإشارة بكذبهم وإلا فالطائع والعاصي يعرضون على الله ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ . . .

وفي قوله: (هؤلاء) إشارة إلى تحقيرهم وإصغارهم بسوء مرتكبهم.

وفي قوله: (على ربهم) أي على من يحسن إليهم ويملك نواصيهم وكانوا جديرين ألا يكذبوا عليه. وهذا كما تقول إذا رأيت مجرمًا: (هذا الذي فعل كذا وكذا)»(٢).

---

(١) انظر الكشاف ٢/ ٩٤.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٢١٢.

فاستحق هؤلاء اللعنة والطرد من رحمة الله.

إنه لم يقل: (ألا لعنة الله عليهم) وإنما قال: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فشملت اللعنة كل ظالم ودخل فيها هؤلاء لأنه لا أحد أظلم منهم فهم أولى باللعنة.

وختم الآية بقوله: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فذكر الظالمين مناسبة لقوله: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

وقوله: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يحتمل أن يكون من قول الأشهاد كما في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤].

ويحتمل أن يكون ذلك من قول الله سبحانه(١). فتكون إحدى اللعنتين من الأشهاد والأخرى من الله فيتحقق منهما معًا قوله تعالى: ﴿يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾

٦ ـ وصف الظالمين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾

فقال: (يصدون) و(يبغونها) بالمضارع.

فإن كان ذلك من قول الأشهاد كان من حكاية الحال الماضية وذلك إحضار لسوء الفعلة ومعاينتها، كما في قوله تعالى: ﴿فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ﴾ [البقرة: ٩١]، فقتل الأنبياء ماض بدليل قوله: ﴿مِن قَبۡلُ﴾ وعبر عنه بالمضارع حكاية للحال.

وإن كان من قول الله تعالى احتمل أن يكون من حكاية الحال أيضًا.

---

(١) انظر البحر المحيط ٥/ ٢١٢، روح المعاني ١٢/ ٣١.

واحتمل أن يكون ذلك للحال والاستقبال حقيقة، فتشمل اللعنة هؤلاء في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي يفعلون ذلك على سبيل الدوام. وكذلك قوله: ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾.

ومعنى ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾ «يصفونها بالاعوجاج وهي مستقيمة، أو يبغون أهلها أن يعوجوا بالارتداد» (١).

٧ ـ قال تعالى: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ فذكر (هم) الثانية توكيدًا.

جاء في (الكشاف): «و(هم) الثانية لتأكيد كفرهم بالآخرة واختصاصهم به» (٢).

وقد تقول: لقد قال في الأعراف: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٥] فلم يكرر (هم) مع أن السياقين متشابهان فما السبب؟

فنقول: إن السياقين مختلفان، فقد قال في الأعراف: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٤ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٤ ـ ٤٥].

وقال في هود: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٨ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ. . .﴾.

فزاد في هود ذنبًا آخر وهو الكذب على الله الذي هو من أكبر الظلم فقال: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾. فلما زاد في ذكر المعصية زاد

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٤.
(٢) الكشاف ٢/ ٩٤.

في وصفهم بالكفر ، فناسب كل تعبير موضعه .

* * *

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ٢٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾ [هود ٢٠ ـ ٢١]

أولئك لم يكونوا يعجزون الله لو أراد أن يعاقبهم في الدنيا .

وقال : ﴿ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ ﴾ ولم يذكر مفعولاً لـ (معجزين) وإنما أطلق ذلك فنفى عنهم صفة الإعجاز أصلاً ، فهم أذل وأضعف من أن يعجزوا أحدًا .

وقال : ﴿ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي في مكانهم وموضع استقرارهم . والإنسان أعز ما يكون إذا كان في داره ، فإذا انتفى إعجازهم في مكانهم فانتفاؤه في غير الأرض أظهر .

وقد بين ذلتهم وصغارهم من أكثر من ناحية :

١ ـ فقد نفى أن يعجزوا أحدًا فأطلق النفي ولم يذكر مفعولاً فدل ذلك على أنهم لا يعجزون أحدًا .

٢ ـ وقد بيّن نفي قدرتهم واستطاعتهم في مكانهم ومستقرهم . وهذا أذل ما يكون وأهون ما يكون .

٣ ـ وجعل عدم الإعجاز وصفهم الثابت فقال : ﴿ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ ﴾ فجاء بالاسم الدال على الثبات ، ولم يقل : (لم يكونوا يعجزون) بل دل على ضعفهم وعدم قدرتهم على جهة الثبوت والدوام .

٤ ـ ثم ذكر أنه ما كان لهم من أولياء من دون الله .

فنفى عنهم القدرة في ذواتهم وأنفسهم ، ونفى عنهم الولي فلا ولي لهم يتولى أمرهم.

وهذا أدل على ضعفهم وصغارهم.

فهؤلاء الذين كانوا يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا ولا يؤمنون بالآخرة هم أذل ما يكون على الحقيقة.

جاء في (الكشاف): «﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي ما كانوا يعجزون الله في الدنيا أن يعاقبهم لو أراد عقابهم ، وما كان لهم من يتولاهم فينصرهم منه ويمنعهم من عقابه ، ولكنه أراد إنظارهم وتأخير عقابهم إلى هذا اليوم» (١).

وقد تقول: لقد قال ههنا: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ فجاء بالأولياء مجموعة ، وفي مواضع أخرى يفرد الولي فيقول مثلاً: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٧].

أو يقول: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٨].

فما السبب مع أن الإفراد في نحو هذا أدل على الشمول ، فقولك: (ما في الدار من رجال) نفيت فيه جنس الرجال في حال الجمع ولم تنف وجود رجلين أو رجل واحد. أما قولك: (ما في الدار من رجل) فقد نفيت فيه وجود الجنس على سبيل الاستغراق واحدًا أو أكثر.

وقولك: (ما لهم من ولي) نفيت فيه أن يكون لهم ولي على سبيل الاستغراق واحدًا أو أكثر. أما إذا قلت: (ما لهم من أولياء) فإنه ينفي الجنس في حالة الجمع ، ولا ينفي أن يكون لهم ولي واحد أو اثنان؟

والجواب: أن الجمع في هذا الموضع هو الأصوب ولا مندوحة

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٤.

عنه ، ذلك أن هذا الكلام في الآخرة ، والمذكورون هم جماعات مختلفة ومن أمم متعددة وأزمان مختلفة متباعدة ، وقد يكون بين جماعة وأخرى قرون كثيرة فلا يمكن أن يكون لهؤلاء الجماعات ولي واحد ، وإنما يكون لكل جماعة أو أمة ولي أو أولياء يتولونهم ، فلا يصح أن يقال: (ما كان لهم من دون الله من ولي).

هذا علاوة على أنه قد يتخذ أهل البلد الواحد أو المجتمع الواحد أولياء متعددين ، فنفي الأولياء هو الأصوب بل هو المتعين وليس نفي الولي ؛ وخاصة أن هؤلاء الأولياء إنما هم غير الله فلا بد أن يتعددوا.

هذا علاوة على أنه حيث نفى الأولياء في نحو ذلك ، أي في نحو قوله: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ ، وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الشورى: ٤٦] فإنما ذلك في الآخرة.

وحيث أفرد الولي في نحو ذلك إنما هو الكلام في الدنيا ، ويكون الكلام إما عن فرد واحد أو مجموعة معينة فينفي الولي له أو لها.

جاء في (روح المعاني): «﴿ مِّنْ أَوْلِيَآءَ ﴾: (من) زائدة لاستغراق النفي ، وجمع (أولياء) إما باعتبار أفراد الكفرة ، كأنه قيل: وما كان لأحد منهم من ولي ، أو باعتبار تعدد ما كانوا يدعون من دون الله تعالى فيكون ذلك بيانًا لحال آلهتهم من سقوطها عن رتبة الولاية» [١].

* * *

﴿ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾.

«يشدد ويكثر ، وهذا استئناف إخبار عن حالهم في الآخرة ؛ لأنهم جمعوا إلى الكفر بالبعث الكذب على الله وصدّ عباده عن سبيل الله وبغي

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٣٢.

العوج لها وهي الطريقة المستقيمة»[(١)].

* * *

﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾

أي يكرهون سماعه فلا يطيقون أن يسمعوه لشدة بغضهم له. كما يكرهون أن ينظروا إليه فلا يطيقون ذلك لشدة بغضهم لرؤيته.

جاء في (الكشاف): «أراد أنهم لفرط تصامّهم عن استماع الحق وكراهتهم له كأنهم لا يستطيعون السمع... كأنه لم يسمع الناس يقولون في كل لسان: هذا كلام لا أستطيع أن أسمعه وهذا مما يمجه سمعي»[(٢)].

وجاء في (البحر المحيط): «﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ إخبار عن حالهم في الدنيا على سبيل المبالغة، يعني السمع للقرآن ولما جاء به الرسول ﷺ.

﴿وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ أي ينظرون إليه لبغضهم فيه، ألا ترى على حشو الطفيل بن عمرو أذنيه من الكرسف وإباية قريش ما نقل إليهم من كلام الرسول»[(٣)].

وجاء في (روح المعاني): «﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ أي إنهم كانوا يستثقلون سماع الحق الذي جاء به الرسول ﷺ ويستكرهونه إلى أقصى الغايات حتى كأنهم لا يستطيعونه...

﴿وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ أي إنهم كانوا يتعامون عن آيات الله تعالى المبسوطة في الأنفس والآفاق»[(٤)].

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٢١٢.

(٢) الكشاف ٢/ ٩٤.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٢١٢.

(٤) روح المعاني ١٢/ ٣٢.

لقد قَدَّم السمع على الإبصار ههنا فقال: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ .

وقدم آلة الإبصار على السمع في الكهف فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١]: وذلك أنه ذكر في سياق آية هود ما يسمع وهو الكذب فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ ، وقال: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ، وقال: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤].

في حين ذكر في الكهف ما يرى وهو عرض جهنم فقال: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى﴾ ، فقدّم في كل موضع ما يناسبه.

وهناك أمر آخر في هاتين الآيتين ، فقد عرّف السمع في آية هود فقال: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ ، ونكّره في آية الكهف فقال: ﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ ذلك أن آلة السمع في آية هود غير معطلة وإنما كانوا يستثقلون سماع نوع معين من الكلام وهو الكلام في دين الله. أما غيره من الكلام فإنهم يسمعونه ويستحبونه. فعرّف السمع الذي يستثقلونه ويكرهونه.

وأما في الكهف فإن آلة الإبصار معطلة وآلة السمع معطلة ، فقد قال في آلة الإبصار: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى﴾ فهي لا تبصر لأنها مغطاة.

وقال في السمع: ﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ وهذا إثبات لعدم استطاعة السمع ، أي إنهم لا يسمعون لأن آلة السمع معطلة فلا يسمعون أي نوع من الكلام[١] .

---

(١) انظر كتابنا (معاني النحو) ١/ ٢٤٠ ـ ٢٤١ ، روح المعاني ١٦/ ٤٥ ، ١٢/ ٢٢ ، الكشاف ٢/ ٩٤ .

ومن كانت آلة السمع معطلة عنده لا يسمع شيئًا فنكره لذلك.

* * *

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾

لقد ذكر أن هؤلاء خسروا أنفسهم وهذا أكبر الخسران، فإن أكبر الخسران أن يخسر الإنسان نفسه.

﴿ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾

أي زال عنهم افتراؤهم ولم ينفعهم شيئًا. وزالت عنهم أصنامهم وآلهتهم التي كانوا يفترون فيها ويقولون فيها ما يقولون وضلت عنهم فلا تهتدي إليهم ولا يهتدون إليها.

جاء في (روح المعاني): «والمراد بها الأصنام التي كانوا يعبدونها ويقولون فيها: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ أو نحو ذلك... أي زالت وذهبت عنهم أوثانهم التي كانوا يفترون فيها ما يفترون فلم تغن عنهم من الله شيئاً.

وقيل: إن (ما) مصدرية، أي ضل افتراؤهم، كقوله سبحانه: ﴿ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ﴾ أي لم ينفعهم ذلك» [(١)].

فقد خسروا أنفسهم ولا من ينجدهم وينفعهم.

* * *

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ [هود: ٢٢].

فلا أخسر منهم.

وقال: (الأخسرون) ولم يقل: (هم الخاسرون) أو (من الخاسرين) ليبين أنه لا أخسر منهم.

---

(١) روح المعاني ٧/ ١٢٤، وانظر تفسير الرازي ٤/ ٥٠٤.

وقال ههنا: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾

وقال في سورة النمل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [النمل: ٤ ـ ٥].

فقال في آية هود: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾.

وقال في آية النمل: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾.

فأكد الخسران في آية هود ما لم يؤكده في آية النمل.

فقد قال: (لا جرم) ومعنى (لا جرم) لا بد ولا محالة، وقيل: معناه حقًّا[١].

وهي عند العرب تنزل منزلة القسم للتأكيد، وقد تجاب بما يجاب به القسم فيقال: لا جرم لآتينك[٢].

وقال: (أنهم) فأكد بـ (أن)

وذلك أنه في سياق آية هود زاد على ما ذكره في سياق آية النمل من الآثام.

فقد قال في آية النمل إنهم لا يؤمنون بالآخرة.

وقال في سياق آية هود:

١ ـ إنهم كذبوا على ربهم.

٢ ـ يصدون عن سبيل الله.

---

(١) انظر لسان العرب (جرم).

(٢) انظر شرح الرضي على الكافية ٢/٣٨٩، شرح الأشموني ١/٢٧٩، لسان العرب (جرم)، معاني القرآن للفراء ٢/٨.

٣ ـ يبغونها عوجًا .

٤ ـ هم بالآخرة هم كافرون .

ثم ذكر أنه يضاعف لهم العذاب فأكد خسرانهم .

فكان كل تعبير مناسبًا للمكان الذي ورد فيه .

جاء في (تفسير الرازي): «اعلم أن الله تعالى وصف هؤلاء المنكرين الجاحدين بصفات كثيرة في معرض الذم :

الصفة الأولى: كونهم مفترين على الله ، وهي قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ .

والصفة الثانية: أنهم يعرضون على الله في موقف الذل والهوان والخزي والنكال ، وهي قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ .

والصفة الثالثة: حصول الخزي والنكال والفضيحة العظيمة ، وهي قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾

والصفة الرابعة: كونهم ملعونين من الله ، وهي قوله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

والصفة الخامسة: كونهم صادّين عن سبيل الله مانعين من متابعة الحق ، وهي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ .

والصفة السادسة: سعيهم في إلقاء الشبهات وتعويج الدلائل المستقيمة ، وهي قوله: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ .

والصفة السابعة: كونهم كافرين، وهي قوله: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ .

والصفة الثامنة: كونهم عاجزين عن الفرار من عذاب الله ، وهي قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾

قال الواحدي: معنى الإعجاز المنع من تحصيل المراد. يقال: أعجزني فلان، أي منعني من مرادي. ومعنى (معجزين في الأرض) أي لا يمكنهم أن يهربوا من عذابنا. . .

والصفة التاسعة: إنهم ليس لهم أولياء يدفعون عذاب الله عنهم.

والمراد منه الرد عليهم في وصفهم الأصنام بأنهم شفعاؤهم عند الله.

والمقصود أن قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ دل على أنهم لا قدرة لهم على الفرار.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ هو أن أحدًا لا يقدر على تخليصهم من ذلك العذاب. فجمع تعالى بين ما يرجع إليهم وبين ما يرجع إلى غيرهم. وبين ذلك انقطاع حيلهم في الخلاص من عذاب الدنيا والآخرة. . .

والصفة العاشرة: قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾، قيل: سبب تضعيف العذاب في حقهم. . . أنهم مع ضلالهم الشديد سعوا في الإضلال ومنع الناس عن الدين الحق. . .

والصفة الحادية عشرة: قوله: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾. . .

الصفة الثانية عشرة: قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾، ومعناه: أنهم اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله تعالى فكان هذا الخسران أعظم وجوه الخسران.

الصفة الثالثة عشرة: قوله: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾. . .

الصفة الرابعة عشرة: قوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾»(١).

* * *

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [هود: ٢٣]

لما ذكر ما يؤول إليه أهل الكفر الذين يصدون عن سبيل الله ذكر ما يؤول إليه أهل الإيمان الذين أخبتوا إلى ربهم.

ومعنى (أخبتوا إلى ربهم) «اطمأنوا إليه وانقطعوا إلى عبادته بالخشوع والتواضع، من الخبت وهي الأرض المطمئنة»(٢).

* * *

﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤]

شبه الفريق الكافر بالأعمى والأصم، ولم يذكر الأبكم لأن هذا الفريق يتكلم، فهم كذبوا على الله ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا وهذا إنما يكون في الكلام.

وشبه الفريق المؤمن بالبصير والسميع.

وبدأ بالفريق الكافر لأنه تقدم ذكرهم وذلك من قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ إلى قوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [هود: ١٨ ـ ٢٢].

---

(١) التفسير الكبير ٦/ ٣٣٢ ـ ٣٣٤.

(٢) الكشاف ٢/ ٩٤، وانظر البحر المحيط ٥/ ١٩٩.

ثم ذكر بعده الفريق المؤمن وهو البصير والسميع وذلك قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ. . . ﴾.

جاء في (البحر المحيط): «والفريقان هنا الكافر والمؤمن، ولما كان تقدم ذكر الكفار وأعقبه بذكر المؤمنين جاء التمثيل هنا مبتدأ بالكافر فقال: ﴿ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ ﴾»[1].

وقال: ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ بحذف إحدى التاءين من الفعل ولم يقل (تتذكرون) كما في آيات أخرى؛ ذلك لأن هذا الأمر من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى قدر طويل من التذكر والتأمل «فإنك إذا سألت أي فرد من عقلاء خلق الله: هل يستوي رجل أعمى أصم ورجل بصير سميع؟ أو هل يستوي الأعمى والبصير والأصم والسميع؟

كان جوابه: كلا لا يستويان.

فحذف من الفعل للدلالة على أن هذا لا يحتاج إلى طول تذكر وتأمل»[2].

فلما كان الأمر لا يحتاج إلىٰ وقت طويل من التأمل والتفكير للإجابة اقتطع من الفعل. والله أعلم.

* * *

---

(١) البحر المحيط ٥/٢١٣.

(٢) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ٢٠.



قصــة نــوح

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [هود: ٢٥ ـ ٢٦]

وردت قصة نوح في أكثر من موضع من القرآن الكريم ، غير أنها ليست متطابقة في كل جزئياتها ، وإنما يذكر في كل موضع ما يناسب المقام الذي وردت فيه ، وما يراد أن يسلّط عليه الضوء منها . بل قد تكون القصص مكملة إحداها للأخرى ، يذكر قسم منها في موضع ويذكر ما يليه في موضع آخر .

وهي أطول ما ذكرت في هذه السورة ، أعني سورة هود ، فهي قد ذكرت في الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات والقمر وختمت في سورة نوح ، وهناك إشارات موجزة في مواطن أخرى من القرآن الكريم غير أنها ليست مكررة .

ولتوضيح ذلك نقول :

١ ـ لقد وردت القصة في سورة الأعراف موجزة ، وهو أول موضع وردت فيه القصة ، والطريف أنها بدأت بقوله : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ من دون أن تسبق بالواو ، وأما في المواطن الأخرى فيقول فيها جميعًا : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا ﴾ بالواو فكأنها معطوفة على القصة الأولى مع أن هذه الواو فيها كلها ليست عاطفة على ما قبلها وإنما هي استئنافية .

فقد قال في هود: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ﴾ وليس قبلها ما تعطف عليه، وكذا قال في سورة المؤمنون، وكذا قال في العنكبوت.

أما في سورة نوح فقد بدأت السورة بقوله: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ﴾ فلا يصح ذكر الواو.

بل إنه قد يذكر الواو في غير هذا التعبير أيضًا، فقد قال في سورة يونس: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾، وقال في الأنبياء: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ ﴾، وقال في الصافات: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ ﴾.

وهو لا يذكر الواو عندما تكون القصص الأخرى الواردة في السورة كلها لا تذكر فيها الواو وذلك في سورتي الشعراء والقمر.

فإن جميع القصص الواردة في الشعراء ابتداء من قصة نوح تبدأ بنحو قوله: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾، فقد قال: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾، وقال: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾، وقال ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾، وقال: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ وكلها على نمط واحد في السورة، تستأنف كل قصة على حدة.

وكذلك في سورة القمر، فقد قال: ﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾: وقال: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ﴾، وقال: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴾، وقال: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴾.

وهي على نمط واحد تبدأ بقصة نوح على هذا النمط وكلها من غير واو.

إن قصة نوح في الأعراف تبدأ بدعوة نوح لقومه إلى عبادة الله، وهي دعوة الرسل جميعًا، فقد قال لهم: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ٥٩].

فأجابوه بقولهم: ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ فرد عليهم أنه ليست به ضلالة وإنما هو رسول من رب العالمين.

فكذبوه فنجاه الله ومن معه وأغرق الذين كذبوا.

وهذا هو نص القصة:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٩ ـ ٦٤].

ولم يذكر أن له أتباعًا معه وذلك أنه كان في ابتداء الدعوة.

٢ ـ وأما القصة في يونس فكانت كأنها استكمال لما ورد منها في الأعراف.

فهو لم يذكر أنه دعاهم إلى عبادة الله ولم يذكر ماذا قال له قومه، وإنما كان كلامه على شخصه هو، وأنه إن كان كبر عليهم تذكيره بآيات الله فليفعلوا به ما يشاؤون ولا يمهلوه، وأنه لم يسألهم على دعوته لهم أجرًا، وإنما أجره على الله، فكذبوه فنجاه الله وأغرق الذين كذبوا. ولم يذكر له أتباعًا ولا أنهم عرّضوا بأتباعه، إذ لا تزال الدعوة في مهدها.

وهذا هو نص القصة في يونس:

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ

غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ .

فأنت ترى أنه اكتفى بالدعوة إلى عبادة الله في الأعراف ، ولم يكررها في يونس واكتفى برد قومه عليه في الأعراف بأنهم يرون أنه في ضلالة ، ولم يكرر ذلك في يونس.

وكلام نوح في يونس في الرد عليهم ليس تكرارًا لما قاله في الأعراف ، بل ذكر جوانب أخرى استكمالاً لما ذكره في الأعراف ، ثم إنه تحداهم وهو ما لم يفعله في الأعراف ، فكانت القصة استكمالاً لما ورد في الأعراف.

٣ ـ وأما في هود فالقصة طويلة ، فقد ذكر أنه لهم نذير مبين ، وأنه دعاهم إلى عبادة الله ، وذكر رَدَّ الملأ الذين كفروا عليه ، وقد أفاضوا في ردهم عليه.

وظهر أن له أتباعًا وهو ما لم يذكره في الأعراف ولا في يونس ، إذ قد كانت الدعوة في مهدها ، وذكر رأي الملأ في هؤلاء الأتباع وأنهم كانوا يزدرونهم.

وكان هناك كلام طويل وجدال بينهما حتى قالوا له:

﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾

وذكر كيفية النجاة التي لم يفصل فيها فيما سبق في الأعراف ويونس ، فذكر صنع الفلك واستهزاءهم به ، وذكر حمل ما يحمل ومن يحمل فيها وجريان الفلك وغرق ابنه إلى أن انتهى الأمر وقضي واستوت السفينة وهبوطهم بسلام.

وهي أطول ما ذكر من القصة وأكثر تفصيلاً من كل المواطن الأخرى.

فهي كانت استكمالاً وتوضيحًا لما ورد في القصتين السابقتين.

٤ ـ وأما في الأنبياء فالقصة ليست في سياق الدعوة والتبليغ، وإنما في سياق نجاة الأنبياء من أقوامهم واستجابة دعاء من دعا منهم.

فقد ذكر نجاة إبراهيم ونجاة لوط ونجاة نوح واستجابة دعائه، واستجابة دعاء أيوب واستجابة دعاء ذي النون وزكريا.

وهذا نص ما ورد فيها:

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٦ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

وهو متناسب مع سياق ما ورد في السورة من قصص الأنبياء.

٥ ـ وأما في سورة المؤمنون فقد ذكر القصة بعد ذكر الأنعام وفوائدها والحمل عليها وعلى الفلك، فذكر قصة نوح والنجاة في الفلك مناسبة لذكر الحمل على الأنعام والفلك، فقد جاءت القصة بعد قوله:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٢١ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢١ ـ ٢٢].

وأما الجانب المذكور من قصة نوح فهو لا يطابق ما ورد من القصص فيما سبق، فإنه بلغهم بالدعوة فقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ولم يقل شيئًا آخر.

وإن قومه لم يواجهوه بكلام ولا قالوا له شيئًا، بل إنهم كانوا يذكرون رأيهم فيه في غيبته وفي مجالسهم.

ففي سورة هود ذكر ما كان يواجههم به ويواجهونه، وما كان يجادلهم

به ويجادلونه ، أما في المؤمنون فقد ذكر ما يحصل بعد ذلك ، بعد الافتراق وفي مجالسهم ، وهذا كأنه كان استكمالاً لما حصل في هود .

ثم ذكر أنه دعا ربه لينصره ، وهي أول مرة يدعو فيها نوح بصورة صريحة ، فقد قال : ﴿ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴾

وهذه هي القصة :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾

٦ ـ وأما في سورة الشعراء فقد قال تعالى في قوم نوح ما قاله في الأقوام الأخرى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ وهو نحو ما قاله في الأقوام الأخرى وفي رسلهم .

ثم ذكر مواقف الأمم من رسلهم فكانت كلها على نمط واحد .

وإضافة إلى هذا فإن قصة نوح كأنها استكمال لما قبلها وليست مماثلة لها .

فقد دعا نوح قومه فيما سبق إلى عبادة الله ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ أو ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ .

وأما في هذه السورة فقد طلب منهم تقوى الله وطاعة رسوله ولم يأمرهم بالعبادة فقد قال لهم: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾. والتقوى إنما تكون بعد الأمر بالعبادة فهي استكمال للأوامر السابقة.

ولم يذكر أنهم كذبوه وإنما اعترضوا على أتباعه قائلين: ﴿ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴾. وهددوه إن لم ينته بالرجم.

فدعا ربه قائلاً إن قومه كذبوه وطلب النجاة له ولمن آمن، فاستجاب له ربه فأنجاه ومن آمن معه وأغرق الآخرين.

وهذا هو نص ماء في الشعراء.

﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٥﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

٧ ـ وأما في سورة العنكبوت فإنه لم يذكر دعوته لقومه ولم يذكر موقف قومه، وإنما ذكر مدة لبثه في قومه وأن قومه أخذهم الطوفان لظلمهم وأنجاه الله ومن معه.

وهذا ما ورد في القصة في هذه السورة.

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾

٨ ـ وأما في سورة الصافات فإنه ذكر أن نوحًا دعا ربه وأن ربه أجابه وأنه نجاه وأهله من الكرب العظيم وأنه جعل ذريته هم الباقين مما لم يذكر في المواطن الأخرى ، فإنه ذكر فيها ما كان بعد نوح وبعد النجاة ، وماذا ترك عليه في الآخرين ، وذكر أنه أغرق الآخرين ، ولم يذكر من هم الآخرون ولماذا أغرقهم.

وهذا ما ورد فيها :

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴾

٩ ـ وأما في سورة القمر فإنه قال كما قال في بقية الأقوام: ﴿ ۞كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ ، وكذلك قال في الأقوام الأخرى :

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ﴾ ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ﴾ ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ﴾ .

فالقصة على نمط ما ذكر في السورة من القصص.

وهي لم تذكر أنه دعا قومه إلى عبادة الله ، وإنما ذكر تكذيب قومه وزجرهم له ، ثم إنه دعا ربه أنه مغلوب ، والمغلوب إنما يطلب النصر ، فطلب النصر قائلاً: ﴿ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ فأجابه ربه إلى ذلك.

وقد تقول: وما الفرق بين القصص في سورتي القمر والشعراء وهي كلها تجري على نسق واحد؟

فنقول: إن المشهد يختلف في السورتين.

ففي سورة الشعراء كان يذكر ماذا تقول الرسل لأقوامهم ، وإلى ماذا كانوا يدعونهم ، فكان كل رسول يقول لقومه: ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ .

وأما في سورة القمر فلم يذكر دعوة الرسل لأقوامهم ، وإنما ذكر فيها تكذيب أقوامهم لرسلهم وعاقبة التكذيب ، وكان التعقيب على القصص كلها واحدًا ، وهو قوله بعد كل قصة : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ .

فالقصص في سورة القمر تذكر جانبًا آخر وصورة أخرى من صور القصص القرآني ، وإن قصة نوح على نمط القصص الأخرى في السورة ، فهي لوحة متناسبة .

وإليك ما جاء في سورة القمر :

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ .

١٠ ـ وأما في سورة نوح وهي آخر موطن تذكر فيها قصة نوح وآخر موطن يذكر فيها اسم نوح فإنها تختلف عن كل ما جاء في القصص القرآني من هذه القصة .

فإنها هنا أشبه بتقرير نهائي قدمه نوح إلى ربه في مسار دعوته ، وموقف قومه منه .

فهو هنا لم يخاطب قومه بشيء ولم يخاطبوه بشيء وإنما ذكر ماذا قال لهم وكيف واجهوه ، فقد قال ربنا : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فأمره ربه بإنذار قومه .

فقال نوح مستجيبًا لأمر ربه : ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ فهو تنفيذ لأمر ربه ﴿ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ ﴾ .

فقد قال له ربه : ﴿ أَنْذِرْ قَوْمَكَ ﴾ ، فقال لهم نوح : ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ .



ثم ذكر إلى ماذا دعاهم ، وذلك قوله : ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾

ثم ذكر نوح لربه ماذا كان منه ومنهم .

فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا . . . ﴾ ، إلى آخر ما قال .

ثم ذكر نوح لربه ماذا كان موقفهم منه :

﴿ قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا . . . ﴾ إلى آخر ما ذكر .

ثم ذيّل التقرير بمقترح وهو خاتمة التقرير فيهم ، وهو أن يهلكهم كلهم فلا يترك كافرًا على وجه الأرض فقال : ﴿ وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ وقد علل هذا المقترح بقوله : ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ﴾

ثم ختم التقرير بطلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات فلعله أن يكون قد قصر في شيء من عمله .

وهو تقرير عجيب جمع فيه خلاصة ما حصل في رحلته الطويلة مع قومه وذيله بمقترحه .

فقد قال في الأعراف والمؤمنون : ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾

وقال في هود : ﴿ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾ .

وقال في الشعراء : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

وقال في التقرير النهائي في سورة نوح : ﴿ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾

فجمع ما جاء في الأعراف والمؤمنون وهود والشعراء .

فإنه قال في الأعراف والمؤمنون : ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾

وقال في سورة نوح: ﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾

وقال في هود: ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

وكذلك قال في سورة نوح.

وقال في الشعراء: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

ونحوه قال في سورة نوح.

فجمع فيها كل ما قاله نوح في كل ما ورد من القصص القرآني.

حتى إنه جمع في سورة نوح بين القول الصريح و(أن) المفسرة أو المصدرية فقال: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾

وهو ما تفرق في الأعراف والمؤمنون وهود والشعراء.

فقد قال في الأعراف والمؤمنون: ﴿ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾

وقال في الشعراء: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ بذكر القول.

وقال في هود: ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾

ولم يجمع بينهما في القصة في موطن آخر.

ثم ذكر موقف قومه، فذكر أنهم عصوه واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارًا، وأنهم مكروا مكرًا كبّارًا.

ثم ذكر عاقبتهم في الدنيا والآخرة وهي أنهم أغرقوا، وهذا في الدنيا، وأنهم أُدخلوا نارًا، وهذا في الآخرة، فهو تقرير جامع مع ذكر العقوبة الجامعة في الدنيا والآخرة.

وقد وافق ربنا على طلبه مبينًا سبب الإجابة وهو قوله: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا ﴾ فإنه حصل ذلك بسبب الخطيئات لا بسبب آخر.

ثم ختم التقرير بالدعاء بالمغفرة لأوسع مجموعة من المؤمنين وهو ما لم يذكر في غير هذا الموطن من القرآن فقال: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

ولم يذكر دعاء بمثل هذا التفصيل في طلب المغفرة وذلك مناسبة للتقرير الجامع.

ذكر الدعاء في القصة:

من الملاحظ في مسار قصة نوح أنه لم يدع بالنجاة في سورتي الأعراف ويونس؛ لأن الدعوة كانت في مهدها فلا يناسب طلب النجاة.

وكذلك في سورة هود فإنه لم يدع بالنجاة وإنما أخبره ربه في هذه السورة أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، وأمره بصنع الفلك، وقال له ربه: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ فعلم من ذلك أنهم ناجون لأنه قال له إنه سيغرق الذين ظلموا.

وأول دعاء صريح له كان في سورة المؤمنون وهو قوله: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ فطلب النصر. وهذا أول دعاء صريح.

قد تقول: لقد قال ربه في هذه السورة أيضًا: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ كما قال في سورة هود، فلم دعا لنفسه ولم يكتف بما أخبره ربه فيعلم أنه ناجٍ من غير دعاء؟

فنقول: إن الأمر مختلف في السورتين، فإنه في سورة المؤمنون قال له ذلك بعد الدعاء فكأنه استجابة لدعائه.

وأما في سورة هود فقد قاله ربه ابتداء فلا حاجة إلى طلب النجاة بعد إخباره، فاختلف الأمر.

وكل تعبير مناسب في مكانه، فإن سورة المؤمنين بعد هود في



تسلسل السور ، ومن المناسب أن يكون الطلب والدعاء بعد أن يمضي وقت طويل مع قومه وأن ينال من أذاهم الكثير فيلجأ إلى الدعاء فأخر الدعاء إلى الموقف المتأخر.

ولما اشتد عليه الأمر في سورة الشعراء وهددوه بالرجم ونالوا منه ومن المؤمنين قائلين له: ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ و﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ دعا بالنجاة له ولمن معه من المؤمنين.

وقد تقول: ولم دعا لنفسه فقط بالنجاة في سورة المؤمنون ولم يذكر معه من آمن كما فعل في الشعراء؟

فنقول: إن قومه لم يذكروا من معه من المؤمنين في سورة المؤمنون فدعا لنفسه ولم يذكر من معه ، فإنه لم يرد لهم ذكر.

ولما ذكروا من معه في الشعراء دعا لنفسه ولمن آمن معه قائلاً: ﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

ولم يذكر له دعاء صريح في سورة الصافات ، فإنه لم يذكر له موقف مع قومه ، وإنما ذكر ربنا أن نوحًا ناداه فاستجاب له.

وأما في سورة القمر فقد دعا لنفسه ولم يذكر من آمن ، ذلك لأنه ذكر تكذيب قومه وزجرهم له ولم يرد ذكر لمن معه فقال: ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾. وكان الدعاء بطلب النصر وليس بطلب النجاة ؛ لأنه ذكر أنه مغلوب ، وذكر الانتصار هو الأنسب مع المغلوب.

وأما في سورة نوح والتي هي التقرير النهائي فنرى نوحًا يدعو على قومه بأن يهلكهم الله جميعًا قائلاً: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ .

وهذا هو الموطن الوحيد الذي دعا فيه على قومه بالهلاك ولم يدع



لنفسه بالنجاة ، في حين كان يدعو بالنجاة في القصص الأخرى .

ذلك أن هذا هو الموقف الأخير ، فدعا ربه أن يكون هؤلاء الكفرة آخر عهدهم في الدنيا أن يستأصلهم جميعًا .

ولم يدع لنفسه بالنجاة ، فإنه إذا أهلك الله الكافرين فقد نجا المؤمنون منهم ومن شرورهم فلا داعي لطلب النجاة ، فإنه رأى أن المقام لا يناسب الدعاء بالنجاة بعد هلاكهم فإن هذا من باب تحصيل الحاصل . وإنما دعا بالمغفرة له ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات لأن هذا هو المناسب ، فإن الدعاء بالمغفرة في خواتيم الأمور هو الأنسب ، ألا ترى إلى قوله سبحانه : ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [آل عمران: ١٥٧] فجعل خاتمة الحياة لهؤلاء المغفرة ، وأنه أمر رسوله في آخر سورة نزلت عليه وهي سورة النصر بالاستغفار فقال : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [النصر : ١ ـ ٣] .

وكان رسول الله ﷺ يدعو إذا أوى إلى فراشه قائلاً : (إن أمسكت نفسي فاغفر لها) فطلب المغفرة عند طي صفحة الحياة .

وقد يكون بعد ذلك كما قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ [الحشر : ١٠] .

وقد يكون يوم الحساب وقد دعا سيدنا إبراهيم قائلاً : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم : ٤١] .

وقد يطلب المؤمنون المغفرة في عرصات القيامة كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحريم : ٨] .

ومن الملاحظ أنه لم يرد التصريح بذكر المؤمنين في دعاء نوح

بالنجاة ، أو في أمر الله له أن يحمل معه من آمن إلا حيث ورد ذكر المؤمنين وازدرائهم في القصة وذلك في مكانين :

الأول : في سورة هود حيث قال الملأ الذين كفروا : ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ وقد جرى ذكرهم أيضًا في بقية القصة فقال له ربنا : ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ﴾ .

والآخر : في سورة الشعراء حيث قالوا له : ﴿۞ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء : ١١١] فدعا نوح لنفسه ولهم قائلاً : ﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء : ١١٨] .

فذكر وصف الإيمان لمن معه .

وحيث لم يرد لهم ذكر فإنه يذكر النجاة له ولمن معه على العموم من دون تقييد بذكر صفة الإيمان فإنه مفهوم من المقام .

ذكر الناجين:

تختلف المواطن في قصة نوح في ذكر الناجين :

فهو أحيانًا يذكر نجاته ومن معه ولا يذكر أهله مكتفيًا بذكر من معه .

وأحيانًا يذكر أهله ولا يذكر معهم غيرهم .

وأحيانًا يذر أهله ومن معه .

وأحيانًا يذكر نوحًا ولا يذكر أحدًا معه لا من أهله ولا من غيرهم .

وهذا يجري على وفق ضوابط دقيقة .

فحيث يذكر تبليغ قومه يذكر من معه وقد يذكر أهله معهم .

ففي سورة الأعراف قال تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾



فقال في النجاة: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾

وفي سورة يونس قال: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ﴾

فقال في النجاة: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾

وفي سورة هود قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ . . .﴾.

فقال في النجاة: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ﴾

وفي سورة المؤمنون قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾

فقال في النجاة: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾.

وقال في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾

فقال في النجاة: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾

وقال في سورة العنكبوت: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾

فقال في النجاة: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾

وحيث لم يذكر تبليغ قومه ذكر أهله فقط وذلك في سورة الأنبياء فإنه قال: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾

فذكر أهله ولم يذكر من معه، فإنه ذكر دعاءه ولم يذكر تبليغ قومه.

وفي سورة الصافات قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾

فذكر أهله ولم يذكر من معه، فقد ذكر دعاءه ولم يذكر قومه.

أما في سورة القمر فقد ذكر نجاته ولم يذكر معه لا أهله ولا الذين معه ، فإنه دعا ربه ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾ فنصر المغلوب .

وذكر الأهل ومن معه في مكانين :

الأول : في سورة هود ، وقد ذكر الأهل لما ورد في القصة من ذكر مناداة نوح لابنه ليركب معه ، ومناداة نوح ربه قائلاً : ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾

فناسب ذكر أهله .

والموضع الآخر : في سورة المؤمنون وذلك مناسبة لجو السورة .

فمما بدأت به السورة قوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ [المؤمنون : ٥ ـ ٦] . والأزواج أهل ، وأهل الرجل زوجه .

ثم ذكر خلق الإنسان وتطوره من سلالة من طين إلى نطفة في قرار مكين إلى أن أنشأه خلقًا آخر ، وهذا إنما يكون في رحم الأزواج ، والأزواج أهل ، وإن ذلك إنما يكون بين الرجل وزوجه .

ثم إنه ذكر في السورة بعضًا من الرسل وذوي قرباهم ، فقد ذكر موسى وأخاه هارون فقال : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [المؤمنون : ٤٥]

ثم ذكر ابن مريم وأمه فقال : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ [المؤمنون : ٥٠] .

وذكر البنين ، والبنون من الأهل فقال : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٥ ـ ٥٦] فناسب ذكر الأهل في النجاة .

خاتمة القصص:

إن خاتمة القصص ونهاياتها ليست متطابقة في جميع المواضع ، بل إن كل موضع مناسب للسياق الذي وردت فيه ، كما إن النهايات قد يكمل بعضها بعضًا.

فقد قال في الأعراف: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٤].

وقال في يونس: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَـٰهُمْ خَلَـٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [يونس: ٧٣].

فقد وصف قوم نوح في الأعراف بأنهم كانوا قومًا عمين ، وذلك أنهم قالوا له: ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ فإنهم لما وصفوه بالضلال ناسب أن يصفهم بالعمى من جهتين:

الجهة الأولى: أنهم قالوا: ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ ﴾ وضد الرؤية العمى، فإن الذي لا يبصر أعمى، فناسب أن يصفهم بالعمى لأنهم في الحقيقة لا يرون.

وقال: (عمين) ولم يقل: (عُمْي) لأن العمِي هو أعمى القلب والبصيرة ، والأعمى أعمى البصر.

والرؤية في قولهم: ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ رؤية قلبية فوصفهم بعمى القلب فقال: ﴿ عَمِينَ ﴾ مناسبة للرؤية القلبية.

والجهة الأخرى: أنهم وصفوه بالضلال ولم يتبين لهم الهدى وعموا عنه ، فناسب وصفهم بالعمى.

وأما في يونس فقد أنذرهم وذكّرهم ولم يردوا عليه بشيء فناسب أن يقول: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾.

ثم ذكر أنه نجاه ومن معه وجعلهم خلائف ؛ وذلك مناسبة لما تقدم



في السورة من قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٣ ـ ١٤].

فناسب قوله: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ قوله: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾.

وأما في هود فالمشهد طويل، والقصة مفصلة وقال في خاتمتها: ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

والهبوط إنما هو بعد الركوب والجري والاستواء على الجودي مما لم يذكره في الأعراف ويونس.

ثم إن المشاهد متسلسلة.

فقد قال في الأعراف: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾.

وذكر في يونس أنه جعلهم خلائف وهي بعد النجاة في الفلك.

وقال في هود: ﴿ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ﴾ فطلب منه الهبوط وهي مرحلة بعد النجاة في الفلك.

ثم قال: ﴿ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وهي مرحلة تأتي بعد قوله في يونس: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾.

فقد ذكر في يونس أنه جعل الناجين خلائف.

وذكر في هود من يكون بعدهم من الأقوام.

وأما في المؤمنون فقد قال: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩]، وهذا إنما يكون بعد الهبوط، فطلبُ المنزل إنما يكون بعد الهبوط من السفينة.

فبعد الهبوط بسلام دعاه إلى أن يطلب المنزل المبارك .

وأما في الشعراء فالقصة متناسبة مع القصص في السورة .

فقد بيّن وحدة الرسالة وأن الأنبياء دعوا إلى أمر واحد ، وكان موقف أممهم منهم واحدًا وكان التعقيب واحدًا .

فنوح قال لقومه : ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الشعراء : ١٠٦ ـ ١١٠] .

وكذلك قال هود : [الشعراء : ١٢٤ ـ ١٢٧] .

وكذلك قال صالح : [الشعراء : ١٤٢ ـ ١٤٥] .

وكذلك قال لوط : [الشعراء : ١٦١ ـ ١٦٤] .

وكذا قال شعيب : [الشعراء : ١٧٧ ـ ١٨٠] .

وكان التعقيب واحدًا وهو قوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

وذلك بعد هلاك قوم نوح ١٢١ ، ١٢٢ وهلاك عاد ١٣٩ ، ١٤٠ ، وهلاك ثمود ١٥٨ ، ١٥٩ ، وهلاك قوم لوط ١٧٤ ، ١٧٥ ، وأصحاب الأيكة ١٩٠ ، ١٩١ .

فهي متناسبة مع القصص الواردة في السورة في وحدة الرسالة ، والخاتمة ، والتعقيب .

ثم ذكر أن الفلك مشحون ، أي ممتلئ ، ولم يذكر ذلك في موضع آخر .

وأما في سورة العنكبوت فقد قال : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت : ١٥] وهذا هو الموطن الوحيد الذي

ذكر فيه لفظة السفينة في قصة نوح . وقد بينا في كتابنا (أسئلة بيانية) سبب اختيار السفينة على الفلك في هذا الموطن ، وما الفرق في الاستعمال القرآني بين السفينة والفلك فلا نعيد القول فيه .

ثم بين أمر السفينة فقال فيها : ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ فذكر أنه جعلها آية للعالمين ، ومما قيل في معنى ذلك أنه أبقاها بعد ذهاب نوح لتكون آية لمن بعده ، فقد قيل إنها بقيت زمانًا طويلاً على الجودي يشاهدها المارة[١] .

ولم يذكر ذلك في موطن آخر .

فذكر أمر الفلك في الشعراء عند النجاة ووصفه بأنه مشحون .

وذكره هنا بعد خلوه مما فيه وأنه جعله آية للعالمين .

وأما في سورة الصافات فقد قال : ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات : ٧٦ ـ ٧٧] فذكر نجاته وأهله ولم يذكر من معه .

وهذا من دقيق مراعاة المقام ، فإن المقام لا يناسب ذكر من معه ، وذلك أنه قال : ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ أي جعل ذريته هم الباقين على قيد الحياة ، وأما من نجا معه من المؤمنين فقد هلكوا وبادوا ، وإن البشر بعدهم إنما هم من ذرية نوح فهو أبو البشر الثاني والأول هو آدم .

فلو قال : ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ثم قال بعد ذلك : ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ لدل ذلك على أنه أهلك من معه من المؤمنين ، وأبقى أهل نوح وذريته ، وهذا لا يناسب مع ذكر النجاة ، إذ سيكون المعنى أنه أنجاهم من الماء ليهلكهم على اليابسة ويبقي ذرية نوح وحده .

---

(١) انظر روح المعاني ٢٠/ ١٤٣ ، تفسير ابن كثير ٣/ ٤٠٧ .

فلما ذكر أنه أبقى ذريته وحدهم ناسب ذكر نجاة أهله وعدم ذكر الآخرين.

وأما في سورة القمر فقد ذكر أن نوحًا دعا ربه ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ فذكر نجاته ولم يذكر أحدًا معه، ذلك أنه دعا لنفسه فذكر نجاته فقط.

ثم ذكر السفينة التي حملته فقال هي: ﴿ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ ولم يذكر ذلك في موطن آخر. وهذه هي المرة الوحيدة التي ذكرت فيها صفة السفينة وأنها تجري برعاية الله، ثم ذكر مآلها بعد ذلك فقال: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾.

فذكر في سورة هود حال نوح وهو يصنع الفلك ومرور قومه عليه ساخرين.

وذكر هنا حال السفينة وشأنها. فكأن ما ذكره في سورة القمر استكمال لما ورد في السور قبلها.

وقد تقول: لقد دعا نوح في سورة القمر لنفسه فقال: ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ فذكر نجاته ولم يذكر أحدًا معه.

وقد دعا في سورة المؤمنون لنفسه أيضًا فقال: ﴿ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ فذكر نجاته ونجاة أهله وذكر من معه، فما الفرق؟

فنقول: لقد دلّ السياق في سورة المؤمنون على أن هناك مؤمنين.

فقد قال: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ ﴾ فذكر قول الذين كفروا من قومه، ومعنى ذلك أن هناك من قومه من آمن.

وقال: ﴿ وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ ومعنى ذلك أنه من لم يكن من الذين ظلموا لا يغرق، فدل ذلك على أن هناك صنفًا غير المذكورين.

ثم أمره ربه إذا استوى هو ومن معه على الفلك أن يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ فذكر أن هناك من استوى معه على الفلك وليس هو وحده.

وطلب أن يكون الدعاء بصيغة الجمع ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ ووصف القوم الذين نجاه منهم بأنهم ظالمون.

فالأمر مختلف عما في سورة القمر.

فإنه لم يذكر في سورة القمر أن معه من آمن، ولم يجعل قومه على قسمين:

قسم مؤمن وقسم ظالم ولو على سبيل التضمن أو الإشارة.

وإنما ذكر تكذيب قومه على جهة العموم فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾.

وقال: ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾، وهذا قولهم على العموم وليس كما قال في المؤمنون: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾.

فهو وحده بإزاء قومه فناسب ذكره هو.

فكان كل تعبير مناسبًا لسياقه الذي ورد فيه.

وأما سورة نوح فقد ذكرنا ما فيها.

فتبين أن القصة ليست مكررة وأنه ذكر في كل مكان أمرًا لم يذكره في المواطن الأخرى.

* * *

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٥ ـ ٢٦]

الواو في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ ابتدائية.

وقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ على إضمار القول[1] أي فقال: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

وقوله: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ يحتمل أن يكون معلقًا بـ (أرسلنا) أي أرسلناه بأن لا تعبدوا إلا الله كما في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [المؤمنون: ٣٢] أي أرسلناه بهذا الأمر.

كما يحتمل أن يكون معلقًا بقوله: (نذير) أي إني لكم نذير بأن لا تعبدوا إلا الله، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ٢ ـ ٣] والمعنى أني أنذركم بهذا الأمر.

ويحتمل أيضًا أن تكون مفسرة للإرسال، أي لقد أرسلنا نوحًا والرسالة هي ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾.

كما يحتمل أن تكون مفسرة للإنذار[2] أي قال لهم: إني لكم نذير مبين. وإنذاري لكم هو ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ...﴾ والمعنى أنه سبحانه أرسل نوحاً بعبادة الله وعدم عبادة غيره، وأن نوحًا بلغهم وأنذرهم بذلك.

فدلت الآية على ما قاله نوح وما أرسل به وما أنذرهم به.

قد تقول: لقد قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

فصرح بالقول وذلك قوله: ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وكذا قال في سورة المؤمنون ٢٣.

---

(١) انظر روح المعاني ١٢/ ٣٥ ـ ٣٦، البحر المحيط ٥/ ٢١٤.

(٢) انظر الكشاف ٢/ ٩٤، البحر المحيط ٥/ ٢١٤، روح المعاني ١٢/ ٣٦.

وقال ههنا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ . . . أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فجاء بـ (أن) فما الفرق؟

ما الفرق بين قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ بالتصريح بالقول،

وقوله في سورة المؤمنون مثلاً: ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ بذكر (أنْ)؟

والجواب: أنه إذا صرح بالقول فقال: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فذلك ما قاله لقومه وبلغهم به.

وأما إذا ذكر (أنْ) فالمعنى مختلف.

فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ . . . أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي أرسلنا بهذا الأمر، أي إن هذه هي الرسالة التي أرسلناه بها وليس هذا قوله.

وكذا قوله في سورة المؤمنون: ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ أي أرسلناه بهذا الأمر، أي هذه هي الرسالة التي أرسلناه بها، فـ (أن) مصدرية أو مفسرة.

فقوله في الأعراف: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ هو قول نوح لقومه.

وقوله في المؤمنون: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون: ٣٢] هو الرسالة التي أرسلناه بها إليهم وليس قول نوح.

وكذا قوله في سورة هود كما أوضحنا.

قد تقول: لقد ذكرت أن قوله تعالى: ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ على إضمار القول، فما

الدليل على ذلك؟ ولمَ لم تعلقه بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ كما في قوله: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؟

والجواب: أن الدليل على إضمار القول هو كسر همزة (إنَّ)، ولو كان معلقًا بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ لفتحت الهمزة كما هو المعلوم.

وهناك قراءة متواترة بفتح الهمزة أيضًا، فيكون المعنى على التعليق بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ ويكون المعنى على ذلك أنه أرسله بالإنذار وما بعده.

وقد أنزلت هاتان القراءتان المتواترتان لتدلا على أن نوحًا أرسل بذلك وأنه بلَّغهم بما أرسل به.

قد تقول: ولم حذف القول في قوله: ﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ولم يصرح به فيقول: (فقال إني لكم نذير مبين)؟

والجواب: أنه لو ذكر القول لوجب كسر همزة (إن) كما هو معلوم، ولكان المعنى أن ذلك قوله، ولا يفيد معنى آخر.

فلما حذف القول صح أن تفتح همزة (إن) وأن تكسر فيكون لكل منهما معنى.

فالكسر يدل على القول،

والفتح يدل على التعليق بالإرسال، فجمع بين المعنيين، فدل ذلك على أن هذا ما أرسل به وهو ما بلغه.

وهو الأولى.

* * *

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾

لقد وصف اليوم بأنه أليم، واليوم لا يكون أليمًا وإنما يقع فيه الألم. وهو تعبير مجازي يدل على اتساع الألم وشدته في ذلك اليوم ووقوعه فيه

على سبيل الاستغراق بحيث يكون اليوم كله شاملاً للألم.

ولو قال: (إني أخاف عليكم عذابًا أليمًا) لاحتمل أن يكون ذلك في وقت من الأوقات دون سائر اليوم.

فلما قال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾ دل على أن الألم شامل لليوم كله وليس في وقت منه.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه إذا ذكر اليوم مع العذاب كما في الآية كان العذاب عامًّا وليس خاصًّا بفرد. وإذا لم يذكر اليوم فقد يكون العذاب واقعًا على فرد واحد وذلك نحو قوله تعالى: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٢٥].

ومن الملاحظ أنه لم يوصف اليوم بأنه عظيم أو كبير أو محيط إلا في سياق العذاب ولم يرد في الجزاء الحسن أو في الجنة. فلم يقل في يوم دخول الجنة يوم عظيم أو كبير.

* * *

﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧]

ذكر الملأ الذين كفروا أمورًا تدعوهم إلى الشك في دعواه وهي:

١ ـ أنه بشر مثلهم فلماذا يؤثره الله بهذا الفضل دونهم؟

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنهم يرون أن الله لو أراد أن يرسل رسولاً لأرسل ملكًا من الملائكة، كما قالوا في موطن آخر: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

٢ ـ أن الذين اتبعوه هم أراذل المجتمع في نظرهم، وأما هم فملأ

القوم أي أشرافهم ، فكيف يرى هؤلاء الأراذل ما لا يراه أشراف القوم من الحق؟

وحتى لو كان نوح على حق فإن هؤلاء لا ينبغي أن يكونوا معهم فيجالسوهم ويخالطوهم.

٣ ـ وعلاوة على ذلك فإن هؤلاء الذين اتبعوه وهم أراذل القوم اتبعوه بادي الرأي ، أي أول الأمر من دون تفكير ولا روية ، ولو فكروا وترووا لم يفعلوا.

٤ ـ أنا لا نرى لكم علينا من فضل لا في حصافة عقل ولا في مكانة اجتماعية فلماذا اختاركم الله دوننا في الرسالة أو التصديق؟

جاء في (تفسير الرازي): «والمعنى لا نرى لكم علينا من فضل لا في العقل ولا في رعاية المصالح العاجلة ولا في قوة الجدل. فإذا لم نشاهد فضلك علينا في شيء من هذه الأحوال الظاهرة فكيف نعترف بفضلك علينا في أشرف الدرجات وأعلى المقامات»[(١)].

٥ ـ وذكروا أنهم يظنونهم كاذبين. والخطاب للجميع لنوح وأتباعه ، فنوح في ظنهم كاذب ، وأتباعه في ظنهم كاذبون. فهم لم يؤمنوا به حقًّا وإنما قد يكون إيمانهم لغرض من الأغراض أو أنهم آمنوا به أول الأمر ولم يرجعوا عن ذلك.

لقد قال ههنا: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ من غير توكيد للظن.

وقال في الأعراف: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦] فأكده بإن واللام.

---

(١) تفسير الرازي ٦/ ٣٣٦ ـ ٣٣٧.

وقال في الشعراء: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٦] فأكده بـ (إنْ) المخففة وذلك بحسب المقام الذي يقتضي كل تعبير.

وإيضاح ذلك أن مقام التكذيب في الأعراف أشد من الموطنين الآخرين، فقد قالوا لنبيهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦] ولم يرد نحو هذا في الموطنين الآخرين.

ثم إنه كان بينه وبين قومه مشادّة عنيفة، فقد قالوا له: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠]

فردَّ عليهم قائلاً: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَـٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١] فناسب ذلك قوة المواجهة في التكذيب.

وأما في الشعراء فالمواجهة أخف مما هي في الأعراف، فقد قالوا لشعيب في الشعراء: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥ ـ ١٨٦].

ثم تحدوه قائلين: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧].

وهو لم يواجههم بتلك الشدة التي واجههم بها في الأعراف، فإنه لم يزد على قوله: ﴿قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٨٨].

فوازن بين قول هود في الأعراف: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ وقول شعيب في الشعراء: ﴿رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٨٨]

ووازن بين قولهم في الأعراف: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ وقولهم في الشعراء: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾

يتضح لك الفرق بين المقامين، ويتضح لك الفرق بين التكذيبين.

فجاء التكذيب في الشعراء بـ (إنْ) المخففة.

وأما في هود فالسياق والمقام مختلفان، فهما لم يكونا بذلك العنف والقوة. فهم لم يزيدوا على ما ذكروا من دون مواجهة عنيفة.

حتى إن نوحًا في رده عليهم لم يكن عنيفًا وإنما قال لهم: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨].

أي لُبّست عليكم البينة.

فكانت المواجهة أخف وكان التكذيب أخف.

فناسب كل تعبير مكانه.

* * *

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨]

بدأ بالرد العام عليهم قائلاً لهم: يا قوم أخبروني إن كنت على بينة من ربي وهي البرهان والحجة التي تثبت صدقي وصحة ما أقول فإنه أيدني بمعجزات تدل على ذلك.

وآتاني رحمة من عنده وهي النبوة خصني بها.

ثم إن هذه البينة أُبهمت عليكم ولُبّست أنلزمكم الحجة مع إبهامها وأنتم كارهون لها لا تحبونها ولا تحبون أن تظهر؟

كيف نلزمكم الحجة وهناك مانعان من ذلك :

١ ـ الإبهام والالتباس .

٢ ـ الكراهة لها ، إذ لو كنتم تحبونها وتودون معرفتها لتوصلتم إلى ذلك بكل سبيل ، ولكنكم تكرهونها فكيف نلزمكم إياها؟

جاء في (الكشاف): «أرأيتم: أخبروني ، ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ على برهان ﴿مِّن رَّبِّي﴾ وشاهد يشهد بصحة دعواي ، ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ بإيتاء البينة على أن البينة في نفسها هي الرحمة ، ويجوز أن يريد بالبينة المعجزة وبالرحمة النبوة»[(١)] .

﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ : أبهمت وأخفيت[(٢)] .

والآن لننظر في تأليف هذه الآية :

١ ـ قال (يا قوم) بنداء قومه وأضافهم إلى نفسه تألفًا لهم ومدعاة على أن يستمعوا له .

٢ ـ قال: (أرأيتم) ، ومعنى (أرأيتم) أخبروني ، «ومعنى هذا الفعل منقول من الرؤية إلى معنى الإخبار ، فقولك مثلاً: (أرأيت إن أصبحت أميرًا ماذا أنت فاعل؟) معناه: أنظرت في هذا الأمر؟ فأنت تستخبره عما سألته عنه»[(٣)] .

فهو لا يطابق (أخبروني) ، فلا تقول في: (أخبرني حين يسافر محمود) مثلاً: (أرأيت حين يسافر محمود) ولكن هذا الفعل فيه معنى التعجيب . جاء في (شرح الرضي على الكافية): «ومعنى (أرأيت) أخبرْ ،

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٥ .

(٢) البحر المحيط ٥/ ٢١٦ .

(٣) معاني النحو ٢/ ٤٣٢ .

وهو منقول من (رأيت) بمعنى (أبصرت) أو (عرفت) كأنه قيل: أأبصرته وشاهدت حاله العجيبة، أو أعرفتها، أخبرني عنها. فلا يستعمل إلا في الاستخبار عن حالة عجيبة»[(١)].

وفي الآية معنى التعجيب ظاهر، إذ المعنى: أفكرتم ونظرتم إذا كانت البينة مبهمة عليكم وأنتم لها كارهون فكيف نلزمكموها؟ أيصح ذلك؟ أيكون ذلك مقبولاً عقلاً؟!

فاستعماله هنا أنسب من (أخبروني) الذي قد لا يكون فيه معنى التعجيب.

٣ ـ قال: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ فذكر أن البينة من ربه، ولم يقل: (من ربكم) لأن البينة جاءته هو، ولو كانت البينة جاءتهم هم لقال: (من ربكم) ذلك أنه حيث كان الكلام على المتكلم نفسه يقول إن البينة من ربي فيضيف الرب إلى ياء المتكلم، وحيث قال: إن البينة جاءتكم يقول: إن البينة من ربكم، بإضافة الرب إلى ضمير المخاطبين.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وقال: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ [هود: ٢٨].

ونحو ذلك جاء في [هود ٦٣]، و[هود ٨٨].

بإضافة الرب إلى ضمير المتكلم.

في حين قال: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

وقال: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٧٣].

ونحو ذلك قال في [الأعراف ٨٥ و١٠٥]

---

(١) شرح الرضي على الكافية ٢/ ٢١٢.

بإضافة الرب إلى ضمير المخاطبين.

وكل تعبير مناسب في مكانه ، فكل تأتيه البينة من ربه ؛ لأن الرب هو المربي والمعلم والمرشد والموجه فناسب أن تكون البينة من رب من تأتيه.

ومن الطريف أن نذكر أن جميع الأمم السالفة التي خوطبت بنحو هذا الخطاب قيل لها : ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وذلك في قوم صالح [الأعراف : ٧٣] ومدين [الأعراف : ٨٥].

وقال موسى لفرعون : ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف : ١٠٥] إلا الذين أرسل إليهم سيدنا محمد فإنه قال فيهم : ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام : ١٥٧] ، بزيادة الهدى والرحمة على البينة.

أما الأقوام البائدة فلم يزد فيها على البينة ولم يذكر هدى ولا رحمة ، ذلك أنهم عذبوا وهلكوا.

أما قوم سيدنا محمد فقد هُدوا ورُحموا.

وقال في الأقوام البائدة : ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ﴾ بتأنيث الفعل لأنها يراد بها المعجزات الدالة على صدق الرسول.

وأما في سيدنا محمد فقد قال : ﴿جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بتذكير الفعل لأن المراد بها القرآن ، فقد قال تعالى في سياق هذه الآيات : ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام : ١٥٥].

فذكّر الفعل لأن المراد به مذكر وهو الكتاب.

٤ ـ قال : ﴿وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ فقدَّم الرحمة على الجار والمجرور ﴿مِّنْ عِندِهِۦ﴾ وذلك لأن الكلام على الرحمة ، فقد قال في تمام الآية :

﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ فالكلام على الرحمة.

في حين قال في السورة نفسها في موطن آخر: ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ [هود: ٦٣] فقدم الجار والمجرور المتصل بضمير الرب أي (منه) لأن الكلام على الله لا على الرحمة، ألا ترى إلى قوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾.

فلما كان الكلام على الرحمة قدمها.

ولما كان الكلام على الله قدم ضميره عليها.

٥ ـ قال: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾، وهو يقول في مواطن أخرى: ﴿رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾

ذلك أنه يستعمل ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ بذكر كلمة (عند) لما هو أخص فلا يستعمل ذلك إلا مع المؤمنين.

وأما مع (من) فيستعملها عامة للمؤمن والكافر[1]. قال تعالى: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ۝٤٣ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يس: ٤٣ ـ ٤٤].

وقال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: ٩].

وقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٤٣].

أما مع (عند) فلم يستعملها إلا مع المؤمنين.

٦ ـ قال: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أي أبهمت وأخفيت، واستعمل (عُمّيت)

---

(١) انظر كتابنا (على طريق التفسير البياني) ٢/ ١٥٠ وما بعدها.

دونَ (أُبهمت) أو (لُبّست) أو نحو ذلك، ذلك أنهم قالوا في الآية السابقة: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ [هود: ٢٧] بذكر فعل الرؤية، ونقيض الرؤية العمى، فلما كانت رؤيتهم لم تهدهم إلى الحق وإلى رؤية البينة ناسب أن يذكر أنها عميت عليهم، فاستعمال (عميت) أنسب بالمقام.

ولما ذكر الرؤية ثلاث مرات ناسب تضعيف التعمية.

وقرى أيضاً (فعَميت) بالتخفيف والبناء للفاعل، أي التبست عليهم البينة.

والقراءتان معًا تفيدان أن البينة التبست عليهم وأُبهمت فهي ملتبسة ومبهمة، فكان الالتباس مضاعفًا عليهم من كل وجه: من الشيء نفسه ومُعمًّى من غيره فزاد ذلك التباسًا وتعمية.

وإيضاح ذلك أنك تقول: (التبس عليه الأمر ولبسته عليه) فالأمر في نفسه ملتبس لا يهتدي إليه صاحبه، فإن زدت على ذلك أنك لبسته أيضًا فإنه يزيد التباسًا. وكما تقول: (عسر عليه فهم المسألة وعُسّر عليه فهمها أيضًا) فجمع ذلك عسرين: عسرها هي وتعسيرها عليه، وكذلك ههنا (عَميت عليهم) و(عُمّيت عليهم) فجمعت القراءتان هذين المعنيين.

وقال: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ ولم يقل: (فعميتم عنها) تلطفًا في الكلام. فنسب ذلك إلى البينة لا إليهم.

٧ ـ قال: ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ فقدم الجار والمجرور (لها) على اسم الفاعل ولم يقل (وأنتم كارهون لها) وذلك لإفادة القصر والاختصاص، أي تخصون هذا الأمر بالكراهة.

أي أنلزمكم البينة وأنتم تخصونها بالكراهة فلا تكرهون شيئًا ككراهتكم لها.

ولو قال: (وأنتم كارهون لها) لأفاد ذلك أنهم يكرهونها ولكن لا يخصونها بالكراهة. فلما قدم الجار والمجرور دل على قصر الكراهة عليها، وبيّن ذلك شدة كراهتهم لها فكيف يلزمهم إياها؟

٨ ـ قال: ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ بالاسم، ولم يقل: (وأنتم لها تكرهون) للدلالة على ثبات هذه الكراهة ودوامها. ولو قال: (تكرهون) لكان ذلك دالاً على الحدوث.

فذكر كل شيء يحول بينهم وبين البينة.

* * *

﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٩ ـ ٣٠]

قال نوح إنه ليس طالب مال ولا جاه فهو لا يسألهم مالاً ولا يبغي جاهًا، وإنما هو حامل دعوة فهو لا يطرد ما يسمونهم الأراذل فإنهم ملاقو ربهم.

وفي قوله هذا رد على ما قاله الملأ إنهم اتبعوه بادي الرأي من غير تفكير ولا روية. فقال لهم: أنا لا أعلم ذلك وإنما أحكم بظواهر الأمور والله يعلم دخائل النفوس وما في القلوب، وهم ملاقو ربهم، وهو أعلم بهم.

ثم لماذا يتبعني هؤلاء وليس عندي مال ولا جاه ولا سلطان؟

جاء في (الكشاف) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾: «فإن قلت: ما معنى ﴿إِنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾؟

قلت: معناه إنهم يلاقون الله فيعاقب من طردهم، أو يلاقونه

فيجازيهم على ما في قلوبهم من إيمان صحيح ثابت ، كما ظهر لي منهم وما أعرف غيره منهم ، أو على خلاف ذلك مما تقرفونهم به من بناء إيمانهم على بادي الرأي من غير نظر وتفكر . وما عليّ أن أشق عن قلوبهم وأتعرف سر ذلك حتى أطردهم إن كان الأمر كما تزعمون .

ونحوه ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ الآية . أو هم مصدقون بلقاء ربهم موقنون به عالمون أنهم ملاقوه لا محالة .

(تجهلون) تتسافهون على المؤمنين وتدعونهم أراذل ، من قوله : (ألا لا يجهلن أحد علينا) أو تجهلون لقاء ربكم ، أو تجهلون أنهم خير منكم» [(١)] .

وجاء في (تفسير الرازي) في قوله : ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا . . . ﴾

«اعلم أن هذا هو الجواب عن الشبهة الثانية وهي قولهم : لا يتبعك إلا الأراذل من الناس . وتقرير هذا الجواب من وجوه :

الوجه الأول : أنه عليه الصلاة والسلام قال : أنا لا أطلب على تبليغ دعوة الرسالة مالاً حتى يتفاوت الحال بسبب كون المستجيب فقيرًا أو غنيًا ، وإنما أجري على هذه الطاعة الشاقة على رب العالمين . وإذا كان الأمر كذلك فسواء كانوا فقراء أو أغنياء لم يتفاوت الحال في ذلك .

الوجه الثاني : كأنه عليه الصلاة والسلام قال لهم : إنكم لما نظرتم إلى ظواهر الأمور وجدتموني فقيرًا وظننتم أني إنما اشتغلت بهذه الحرفة لأتوسل بها إلى أخذ أموالكم ، وهذا الظن منكم خطأ فإني لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجرًا إن أجري إلا على رب العالمين فلا تحرموا أنفسكم من

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٦ .

سعاة الدين بسبب هذا الظن الفاسد»[١].

والآن ننظر في هذا التعبير من الناحية البيانية:

١ ـ فقد قال ههنا: ﴿لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ . . .﴾ وفي جميع المواطن الأخرى وردت كلمة (أجر) بدل المال، وذلك كما في قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾ [هود: ٥١]، وقوله: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾ [الشعراء: ١٠٩]، وكما في آيات أخرى نحو ما جاء في الشعراء ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠ وغيرها.

قيل: وذلك أنها وقعت بعدها كلمة (خزائن) «ولفظ المال بالخزائن أليق»[٢] فقد جاء بعدها على لسان نوح: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٣١] فناسب ذكر المال.

٢ ـ نفى السؤال بـ (لا) فقال: ﴿لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾، وحيث نفى هذا الفعل بـ (لا) جرد مفعوله من (من) الاستغراقية، وذلك نحو قوله: ﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾ [الأنعام: ٩٠] وكما في آيات عدة، منها في هود ٥١، يس ٢١، الشورى ٢٣.

وحيث نفاه بـ (ما) أدخل (من) الاستغراقية على المفعول فيقول مثلاً: ﴿مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾ وذلك في آيات عدة، منها في الفرقان ٥٧، الشعراء ١٠٩و ١٢٧ و١٤٥، ص ٨٦ وغيرها، وذلك في جميع القرآن بلا استثناء.

ولعل من أسباب ذلك أن (لا) أكثر إطلاقًا من (ما) وأوسع استعمالاً، بل هي أوسع حرف نفي[٣].

---

(١) تفسير الرازي ٦/ ٣٣٦.

(٢) البرهان للكرماني ٢٣٤ ـ ٢٣٥، وانظر التعبير القرآني ٢١٠.

(٣) انظر معاني النحو ٤/ ٥٨٠ وما بعدها.

وهي إذا دخلت على الفعل المضارع فقد تنفي جميع الأزمنة ،

فهي قد تنفي الحال أو الاستقبال أو الاستمرار وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ [النمل: ٢٠] ، وقوله: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ [الصافات: ٩٢] وهي فيهما لنفي الحال.

وقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٤٨] وهي هنا لنفي الاستقبال.

وقوله: ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩] ، وقوله: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، وقولك: (الأعمى لا يبصر) وهذا للاستمرار.

وأما (ما) إذا دخلت على الفعل المضارع فإنها لنفي الحال.

وإن النكرة المنفية قد تكون عامة وقد تكون للواحد. فقولك: (ما جاءني رجل) يحتمل أنه لم يأتك أحد من جنس الرجال ، كما يحتمل أنه لم يأتك رجل واحد بل أكثر.

فإن دخلت عليها (من) كانت لاستغراق الجنس نصًّا.

فمع (لا) جاء بما يحتمل الجنس والمفرد مناسبة لإطلاق (لا).

ومع (ما) جاء بما هو للجنس نصًّا. فناسب التنصيص على الحال التنصيص عل الجنس.

٣ ـ قال: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فأكد النفي بالباء الزائدة.

وجاء بـ (طارد) اسم الفاعل للدلالة على الدوام، أي إن هذه هي حاله الدائمة. ولم يقل: (ولا أطرد) أو (ولن أطرد) بالفعل فيدل على الحدوث وعلى زمن معين، وإنما هو لا يطردهم على سبيل الدوام والثبات.

٤ ـ وأضاف اسم الفاعل (طارد) إلى ما بعده وهو الاسم الموصول

ولم ينون اسم الفاعل ، فلم يقل: (وما أنا بطاردٍ) ، وذلك للدلالة على إطلاق الزمن ، أي لم أفعله في الماضي ولا أفعله في الحال ولا في الاستقبال.

ولو نوّن لكان عدم الطرد في الحال أو في الاستقبال ؛ لأنَّ اسم الفاعل إذا عمل في المفعول كان للحال أو الاستقبال.

٥ ـ قال هنا: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾.

وقال في الشعراء في القصة نفسها: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٤].

فجعل صلة الموصول في آية هود فعلاً (الذين آمنوا).

ووصفهم بالإيمان على جهة الثبوت في الشعراء (المؤمنين) وذلك لأن الكلام في هود كان في زمن أسبق مما هو في الشعراء ، فقد قال الملأ في هؤلاء: ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧].

في حين كان الكلام في الشعراء على ما بعد ذلك ، فقد لبث فيهم نوح زمنًا يدعوهم بعد ذلك حتى هددوه بالرجم إن لم يكفّ ، ولم يفعلوا مثل ذلك في سياق آيات هود ، وإنما قالوا له: ﴿ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [هود: ٣٢] فدل ذلك على أن المشهد في الشعراء إنما كان بعد ما قضى مرحلة طويلة وبرموا به فهددوه بالرجم وإن نوحًا برم بهم فدعا ربه قائلاً: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٧ ـ ١١٨] ، فوصف جماعته ههنا بالإيمان الثابت لصبرهم وثباتهم والدلالة على أن إيمانهم عن يقين وليس إيمانًا بلا تروٍّ ولا تمحيص ، فكان كل وصف في مكانه أنسب.

٦ ـ قال: ﴿ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ فقال: (أراكم) كما قالوا

له: ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ فكأنه رد على ما قالوه فيه وما كانوا يرونه.

فقد قالوا له: ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ فقال لهم: ﴿ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾.

٧ ـ قال ههنا: ﴿ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ وكذلك قال في الأحقاف (٢٣) فقال في الموطنين: (أراكم).

وقال في الأعراف: ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وقال في النمل: ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [النمل: ٥٥] ولم يقل فيهما: أراكم.

ذلك أن الكلام في هود والأحقاف فيما يراه كلا الفريقين من الدعوة إلىٰ التوحيد، فقد قال ذلك في قصة نوح بعدما دعاهم إلى عبادة الله قائلاً: ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [هود: ٢٦] وما واجهه قومه به.

وقال ذلك في قوم عاد بعد أن قال لهم نبيهم: ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأحقاف: ٢١] وما واجهه قومه به.

فكان الكلام فيما يراه كل فريق في الآخر.

وأما في سياق آية الأعراف فليس كذلك، وإنما قال ذلك موسى لقومه بني إسرائيل بعدما أغرق آل فرعون أمام أعينهم وجاوز بهم البحر، قال تعالى: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨ ـ ١٣٩] فقد قال لهم موسى: ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ مؤكدًا ذلك بـ (إنَّ) ولم يقل: (أراكم) ذلك أن هؤلاء مؤمنون بما جاء به موسى، وقد أنجاهم الله وأغرق آل فرعون بمعجزة شاهدوها وعاشوها ومع ذلك طلبوا أن يجعل لهم نبيهم صنمًا يعبدونه كما



يفعل عبدة الأصنام ، أليس هذا من أعجب العجب؟!

لماذا إذن أنجاهم الله وأغرق آل فرعون إذا كان كل منهم يعبد غير الله؟

فقال لهم موسى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ ولم يقل: (أراكم) ، فهذا ليس ما يراه وإنما هو أمر محقق مؤكد.

وأما ما ورد في سياق آية النمل فهو في قوم لوط وما يأتونه من الفاحشة. قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٤ ـ ٥٥].

وهذه فاحشة معلنة ، ومن يأتيها واقع في المنكر لا محالة ، فليست هي في سياق مناقشة أفكار ، وإنما هو تقرير أمر واقع وليس رأيًا يراه نبيهم فيهم ، فقال لهم مقررًا: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ فمن يفعل ذلك كان كذلك ، ليس على رأي دون آخر.

وقال في قوم موسى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ بالتأكيد بإنَّ ، وقال في قوم لوط: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ ولم يؤكده بإن كما فعل موسى مع قومه ؛ وذلك لأن جهل بني إسرائيل أكبر ، فهم مع إيمانهم لموسى وبدعوته طلبوا صنمًا ليعبدوه ، فهذا من أكبر الجهل ، وهو أكبر من فعل الفاحشة.

فالمؤمن بالله الموحّد إذا عبد صنمًا كان فعله أكبر وأعظم ممن فعل الفاحشة ، فهذه ردة بعد الإيمان وشرك بعد التوحيد.

والشرك أكبر الكبائر ، وقد ذكر ربنا أن الله لا يغفر للمشرك ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] فناسب تأكيد جهل قوم موسى بإن دون قوم لوط مع نسبتهما كليهما إلى الجهل والله أعلم.

* * *

﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٣٠]

ذكر أمرين يمنعان من طرد من آمن معه:

الأمر الأول: أنهم ملاقو ربهم وهو أعلم بحالهم.

والأمر الآخر: أنه ليس ذلك إليّ ولا أستطيعه، فإن فعلت فإن الله سيعاقبني ولا ينجيني أحد منه. ومن ذا الذي ينصرني من الله إن طردتهم؟

وقال: ﴿إِن طَرَدتُّهُمۡۚ﴾ ولم يقل: (إن أطردهم) أي لا أحد ينجيه من الله إن طردهم ولو مرة واحدة. فكيف إذا كرر طردهم؟!

وهذا يدل على أنه إن طردهم ولو مرة يوجب عليه العقاب.

وقال: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ولم يقل: (أفلا تتذكرون) أي إن هذا الأمر لوضوحه وظهوره لا يحتاج إلى طول تذكر وإنما هو أمر ظاهر. فإنهم عباده وهم ملاقوه وهو أعلم بحالهم.

ثم إني إن فعلت ذلك عاقبني ربي ولا ينجيني أحد منه، فإنه هو الذي أرسلني وكلفني تبليغ دعوته لعباده. والكل عباده غنيهم وفقيرهم.

* * *

﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٣١]

ثم ذكر أنه ليس عنده مغريات تدعو إلى اتباعه بسببها، فهو لا يملك المال الكثير حتى يتبعه طلاب المال. والناس إنما يستهويهم المال أكثر ما يستهويهم كما قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾ [الفجر: ٢٠].

وهو لا يعلم الغيب، ولا يظننّ أحد أني لكوني رسول الله أعلم الغيب فأنا لا أعلم الغيب، ولذا لا أستطيع أن أصنف الناس فأعلم المؤمن من

مدعي الإيمان وإنما علم ذلك إلى الله ، ولا أستطيع أن أجيب عما يحصل في المستقبل ، ولا من يريد أمرًا من أمور الغيب يجد جوابه عندي.

ولا أقول إني ملك وإنما أنا بشر كما تقولون.

فإذا كان الفضل تحسبونه في هذه الأشياء فما لي عليكم من فضل.

ثم إني لا أقول للذين تزدرونهم لن يؤتيهم الله خيرًا ، وهذا توكيد لعدم علم الغيب. ثم أكد ذلك بقوله: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾ فالله هو الذي يعلم بما في أنفسهم ، وأما أنا فلا أعلم الغيب.

فهو لا يملك ـ كما هو واضح من كلامه ـ مغريات تدعو الفقير أو الغني إلى اتباعه بسببها ، وإنما هي دعوة إلى عبادة الله ، والله هو الذي يجزي عن ذلك وليس إليه شيء منه.

جاء في (الكشاف): «لا أقول: عندي خزائن الله ، ولا أقول: أنا أعلم الغيب ، ومعناه: لا أقول لكم عندي خزائن الله فأدعي فضلاً عليكم في الغنى حتى تجحدوا فضلي بقولكم ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ ﴾.

ولا أدعي علم الغيب حتى تنسبوني إلى الكذب والافتراء أو حتى أطلع على ما في نفوس أتباعي وضمائر قلوبهم.

﴿ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ ﴾ حتى تقولوا لي: ﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا ﴾ ، ولا أحكم على من استرذلتم من المؤمنين لفقرهم أن الله لن يؤتيهم خيرًا في الدنيا والآخرة لهوانهم عليه كما تقولون مساعدة لكم ونزولاً على هواكم»[(١)].

ومن الملاحظ في هذا التعبير:

١ ـ إنه قال: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ ﴾ فجاء بالفعل المضارع (أقول) ونفاه

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٦.

بـ (لا) ، ولم يقل: (ما أقول) أو (ما قلت) أو (لم أقل) للدلالة على الاستمرار في عدم القول. فهو لا يقوله في حال من الأحوال.

فهو لم ينفه بـ (ما) فلم يقل: (ما أقول) فيكون النفي للحال فقط.

كما هو لم يقل: (ما قلت) أو (لم أقل) فيكون النفي في الماضي، وقد يقوله في وقت آخر. وإنما نفاه بـ (لا) التي تستعمل لجميع الأزمنة.

٢ ـ وقال: ﴿خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ بإضافة الخزائن إلى الله ولم يقل: (خزائن لله) فتكون الخزائن نكرة، وقد تكون الخزائن قليلة أو كثيرة، فلو كانت ثلاثًا صح ذلك. ولكنه قال: ﴿خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ فشملت جميع خزائنه، وذلك أدعى إلى اتباعه لو كانت عنده.

٣ ـ قال هنا: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾

وقال في الأنعام على لسان سيدنا محمد: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠] فكرر (لكم) ذلك أن المقام في هود مقام التلطف بقومه، فقد قال قبلها: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي. . . وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا . . . وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ. . . وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾.

«فتأمل جليل ملاطفته عليه السلام لهم، وما يُفهم من كلامه من عظيم الإشفاق من حالهم، وإرادته ما به نجاتهم من العذاب، ومن أخذه بمرتكباتهم. فهذا كله استلطاف في الدعاء لا يناسب تكرار كلمة تفهم تعنيفًا أو توبيخًا، والتأكيد والتكرار يفهم ذلك ويردان حيث يُقصَد»[١].

أما السياق في الأنعام فهو في مقام التبكيت والتعنيف، فقد قال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ

---

(١) ملاك التأويل ١/ ٣٢٨.

﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦ - ٤٧].

وقد يكرر ضمير الخطاب في نحو هذا المقام «فتكرر فيها قوله: (لكم) تأكيدًا يفهم التعنيف ويناسب التوبيخ والتقريع»[١].

٤ - قال: ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ فقال: (تزدري) بالفعل المضارع، ولم يقل (ازدرت) للدلالة على الاستمرار، قيل: أو لحكاية الحال[٢].

٥ - قال: ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ فحذف العائد، والأصل (تزدريهم)، فحذف العائد إكرامًا لهم لئلا ينال الازدراء ضميرهم صراحة.

ونحو ذلك يكون في كلامنا، فإذا أردنا أن نكرم أحدًا فلا نعدي إليه فعلاً فيه إهانة، فلا نقول مثلاً: (أنا ما شتمت فلانًا) أو (أنا لم أضربه) وإنما نحذف المفعول إكرامًا له.

فكما نذكر المفعول إكرامًا وذلك كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨] قد يحذف المفعول إكرامًا أو لغير ذلك من الأغراض.

٦ - وقال: ﴿لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ فأسند الازدراء إلى الأعين ولم يقل (للذين تزدرونهم) فيسند الازدراء إليهم. وذلك أنه أراد إكرامهم أيضًا، فكأنه قال: (أنتم ترون ظواهرهم ولم تخبروا حقيقتهم)، وهذا الازدراء إنما وقع من ظاهر الرؤية، والمرأى قد لا يدل على الحقيقة،

---

(١) ملاك التأويل ١/ ٣٢٩.

(٢) انظر روح المعاني ١٢/ ٤٣.

فكم من رجل تزدريه عيناك وهو في الحقيقة رجل أيّ رجل.

ثم إن هذا التعبير مناسب لقوله: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ فعلقوا ذلك بالرؤية، والرؤية إنما تكون بالعين، فناسب أن يقول: ﴿تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ فكأنه قال: إنما حكمتم بالظواهر ولم تدركوا الحقائق.

٧ ـ قال: ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ فجاء بـ (لن) الدالة على الاستقبال، وهذا الاستقبال عام قد يكون في الدنيا وقد يكون في الآخرة وقد يكون فيهما.

فإن تكن تزدريهم الأعين الآن فلربما يتغير الحال في المستقبل، فقد يصبح الفقير غنيًا، وقد يكون ممن يملأ العين.

وقد يكون ذلك في الآخرة، وقد يكون فيهما، وكل ذلك استقبال، فجاء بحرف الاستقبال.

٨ ـ وقال: ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ فجاء بضمير الغيبة ولم يقل: (لن يؤتيكم الله خيرًا) بضمير الخطاب. وكان الأصل أن يقول ـ كما هو ظاهر السياق ـ (ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيكم الله خيرًا). قيل: وقد عدل عن ذلك إلى قوله: ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ لأن اللام ليست للتبليغ وإنما هي لبيان العلة أي لأجلهم.

جاء في (روح المعاني): «واللام للأجل لا للتبليغ وإلا لقيل فيما بعد: (يؤتيكم)»[1].

وقد يكون لغرض آخر لطيف وهو أن الإنسان قد يتكلم في الشخص في غيبته ما لا يستطيع أن يواجهه به تلطفًا أو حياء أو خوفًا أو لأي سبب.

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٤٣.

فقد تقول: (إن فلانًا لا يصلح لهذا المنصب) ولكن لا تقول ذلك له مواجهة.

وسيدنا نوح قال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ أي لا أقول ذلك في غيبتهم مع أنه في مأمن من أن يسمعوا كلامه فيتأثروا إكرامًا لهم. ولا شك أنه لا يقول ذلك في حضرتهم وهم يسمعون كلامه من باب أولى.

فأنت ترى أنه حذف مفعول (تزدري) وهو العائد، وأسند الازدراء إلى الأعين ليدل على أن هذا حكم بالظاهر.

وقال: ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ﴾ بضمير الغيبة ليدل على أنه لا يقول فيهم ما يسيء إليهم في غيبتهم فكيف في حضورهم؟

وكل ذلك مما يدل على إكرام هؤلاء الذين تزدريهم الأعين.

ثم إنه جعل باب الاحتمال مفتوحًا في المستقبل الذي لا يعلمه إلا الله، فلربما آتاهم الله خيرًا يجعلكم تندمون على ما قلتم في حقهم.

وهذا من ناحية فيه تخفيف من غلواء القوم فيهم، ومدعاة إلى إكرامهم من ناحية أخرى.

٩ ـ قال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ توكيداً لما قاله: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾.

وقال ههنا: ﴿بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فجاء بالأنفس بجمع القلة.

وقال في سورة الإسراء: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٢٥] فجاء بالنفوس بجمع الكثرة؛ وذلك لأن آية هود في جماعة نوح من المؤمنين وهم قلة كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

وأما الخطاب في الإسراء فلعموم الخلق من المكلفين وهم كثير ولا

شك. فجاء بالجمع الذي يناسب المقام في كل تعبير.

١٠ ـ وقال في هود: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ ﴾ بذكر لفظ الجلالة.

وقال في الإسراء: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ ﴾ بذكر الرب، ذلك لأن الكلام في هود في مقام العبادة، فقد قال لهم نوح: ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ فناسب ذكر لفظ الجلالة.

وأما في الإسراء فهو في مقام الإحسان إلى المربي وهما الوالدان، فقد قال تعالى في هذا السياق: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا... ﴾ [الإسراء: ٢٣]

والوالدان يربّان أبناءهم، أي يربيانهم.

والرب هو المربي، فناسب ذكر الرب.

١١ ـ ثم ختم بقوله: ﴿ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ بتأكيد ذلك بإن واللام.

والطريف أن يتفق ما قاله أول رسول مذكور في القرآن لقومه وهو سيدنا نوح مع ما أمر به أن يقوله خاتم الرسل لقومه، مما يدل على وحدة الرسالة ووحدة موقف المجتمع البشري منها منذ فجر التاريخ إلى حين نزول الرسالة الخاتمة.

فقد قال سيدنا نوح: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ ﴾.

وأُمر سيدنا محمد أن يقول نحو هذا القول، قال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وقال نوح: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ ﴾ [هود: ٢٩].

وقال ربنا لسيدنا محمد: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ



يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

مما يدل على وحدة الطلب من هذين المجتمعين المتباعدين مع ما بينهما من تطاول القرون.

ووُصف من فعل ذلك بالظلم في الحالين فقال نوح: ﴿إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقال ربنا لسيدنا محمد: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

مما يدل على أن من فعل ذلك بمؤمن إرضاء لكافر كان من الظالمين.

* * *

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢]

بعد أن أسقط الشبه التي ذكروها فيه وفي أتباعه ولم يبق عندهم ما يحتجون به أرادوا أن يقطع الجدال معهم، إذ لا فائدة من الكلام والجدال وإن طال وكثر.

فقالوا له: إنك قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فائتنا بما تعدنا به من العذاب الأليم إن كنت صادقًا في دعواك. وقالوا: ﴿جَٰدَلْتَنَا﴾ ولم يقولوا: (تجادلُنا)، وقالوا: ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ ولم يقولوا: (فكثر الجدال بيننا) وذلك ليدل على أنه هو الذي كان يتعرض لهم ليدعوهم ويكثر جدالهم، ولم يترك الأمور لتجري على ما هي عليه، بل كان يلاحقهم ليدعوهم إلى ربهم، وذلك شأن الدعاة الذين يحملون همّ الدعوة. فلم يكفّ ولم يفتر ولم تثنه كثرة التكذيب أو السخرية عن دعوتهم فلعلهم يلينون أو يرعوون، ولكن الأبواب كانت موصدة دونه،

كما قال تعالى على لسانه في التقرير النهائي: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٥ ـ ٧].

وقالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ بالفعل المضارع (تعدنا)، ولم يقولوا: (فائتنا بما وعدتنا) بالفعل الماضي، للدلالة على أنه كان يكثر تذكيرهم بما يعدهم به.

وقالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ ولم يقولوا: (فائت بما تعد) أو (فائتِ بما تعدنا) أو (فائتنا بما تعد) للدلالة على عدم المبالاة بما ينذرهم وشدة تكذيبهم، فهم طلبوا أن يأتيهم هم بما وعدهم.

فكان لهم ما أرادوا، فقطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين.

* * *

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: ٣٣]

فقال لهم: إن الأمر ليس إليّ، وإن الأمر الذي أعدكم به لا يستطيع بشر أن يفعله أو يأتي به، إنما أمره إلى الله وهو الذي يأتيكم به إن شاء.

وجاء بـ (إنما) للدلالة على أن ذلك بيد الله حصرًا لا يقدر على ذلك غيره.

وقال: ﴿يَأْتِيكُم بِهِ﴾ ولم يقل: (يأتي به) فيجعله عامًّا؛ ذلك لأنهم قالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ فأرادوا ذلك لأنفسهم، فقال لهم: ﴿يَأْتِيكُم بِهِ﴾ فيصيبكم أنتم.

وقال: ﴿إِن شَآءَ﴾ فجعل ذلك مرتبطاً بمشيئته. وهذا تأكيد لعدم علمه وعدم قدرته. فلم يقل: (إنه سيأتيكم) وإنما أعاد ذلك على مشيئة الله،

ونسب الإتيان به إلى الله.

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ «بدفع العذاب أو الهرب منه»[1].

وقد أكد عدم إعجازهم بالباء الزائدة.

وجاء باسم الفاعل ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾ ولم يقل: (تعجزون) للدلالة على ذلك على جهة الدوام والثبوت. فهم لا يعجزونه أبدًا على كل حال. وقد مَرَّ بيان نحو ذلك في آية سابقة.

وقد أطلق نفي الإعجاز من كل متعلق لا في مكان دون مكان، ولا في زمان دون زمان، ولا غير ذلك من المتعلقات، بل إن ذلك على جهة الإطلاق والدوام.

وفي الآية أكثر من تهديد وتخويف:

١ ـ فقد قال: ﴿ إِنَّمَا﴾ للدلالة على القصر، وأن الذين توعدون به أمر عظيم لا يستطيع أن يفعله غير الله.

٢ ـ وقال: ﴿ يَأۡتِيكُم﴾ فعدَّاه إلى ضميرهم للدلالة على أن ذلك إنما يأتيهم هم حصرًا، ولم يقل: (يأتي) على العموم فيصيبهم أو لا يصيبهم.

٣ ـ قال: ﴿ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ فقدَّم الجار والمجرور المتصل بضمير العذاب على الفاعل وهو الله.

ولم يقل: (إنما يأتيكم الله به) وذلك لأكثر من سبب:

منها: الدلالة على عظم ما سيأتيهم فلذلك قدمه.

ومنها: أن الكلام في سياق الآيات فيما بعد على ما سيأتيهم والتفصيل فيه.

---

(١) تفسير البيضاوي ٢٩٥.

والسبب الآخر: أن ذلك ما يقتضيه المعنى، ذلك أن المعنى (ما يأتيكم به إلا الله)، فـ (إنما) أداة حصر وهو من باب قصر الفعل على الفاعل.

ولو قال (إنما يأتيكم الله به) لكان المعنى (ما يأتيكم الله إلا به) فيكون من باب قصر فعل الفاعل على شيء واحد، وهو غير مراد ولا يصح، إذ سيكون المعنى: لا يأتيكم الله إلا بهذا الشيء، وهو لا يصح إذ لربما يأتيهم من أمور العذاب والآيات أمور أخرى لا يعلمها إلا الله.

٤ ـ أسند ذلك إلى لفظ الجلالة تصريحًا، وفيه من التهديد والتخويف ما فيه، فلم يسند إلى وصف دون وصف، بل إلى الاسم الجامع لكل الأوصاف.

٥ ـ وعلق ذلك بمشيئته فقال: ﴿إِن شَآءَ﴾ لأن ذلك عائد إليه حصرًا، ولو شاء الخلق كلهم أن يفعلوا ولم يشأ الله ذلك لما استطاعوا.

وهذا دال على عظم ما سيصيبهم من الموعود.

جاء في (روح المعاني): «﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ أي إن ذلك ليس إليّ ولا مما هو داخل تحت قدرتي، وإنما هو لله عز وجل الذي كفرتم به وعصيتم أمره يأتيكم به عاجلاً أو آجلاً إن تعلقت به مشيئته التابعة للحكمة.

وفيه كما قيل ما لا يخفى من تهويل الموعد، فكأنه قيل: الإتيان به خارج عن دائرة القوى البشرية وإنما يفعله الله تعالى.

وفي الإتيان بالاسم الجليل الجامع تأكيد لذلك التهويل» [١].

٦ ـ ثم قال: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ وذلك للدلالة على ضعفهم

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٤٥.

وعجزهم على جهة الإطلاق والثبات والدوام.

فهو دال على عظم ما يوعدون به، وعلى عجز من يقع عليهم. وفي ذلك تهديد وتحذير عظيمان للذين يفقهون.

* * *

﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [هود: ٣٤]

يعني: إذا نصحتكم وأنا أريد لكم النصح لا ينفعكم نصحي إن كان الله يريد غير ذلك، فإن الإنسان قد ينصح شخصًا وهو ـ أي الشخص الناصح ـ لا يرغب في نصحه ولا يريد ذلك، ولكن قد ينصحه لسبب من الأسباب، فإنه في هذه الحال لا يبالغ في النصح ولا يهتم به، ولكنه إذا أراد النصح وهو حريص على ذلك فلا شك أنه سيبالغ في النصح بكل ما أوتي من مقدرة.

فقال لهم نوح: إنه لا ينفعكم نصحي وإن أردت ذلك، أي مع إرادتي لنصحكم ورغبتي فيه وشدة اهتمامي به إن كان الله يريد أن يغويكم.

وهذا بيان لعظيم قدرة الله، فإنه إن نصحهم بهذه الحال وهذا الاهتمام وكان الله يريد أن يغويهم لم ينفع نصحه لهم. فمجرد إرادة الله الإغواء تمنع من النفع.

فهو لم يقل: (لا ينفعكم نصحي وإن بالغت في ذلك إن كان الله أغواكم) فيجعل فعله بمقابل الإغواء، وإنما قال: (لا ينفعكم نصحي إن كان الله يريد أن يغويكم) فجعل عدم النفع بمقابل إرادة الإغواء، فمجرد الإرادة تمنع من الانتفاع فكيف إذا فعل؟

جاء في (روح المعاني): «وإنما اقتصر في ذلك على مجرد إرادة

الإغواء دون نفسه حيث لم يقل: (إن كان الله يغويكم) مبالغة في بيان غلبة جنابه جل جلاله، حيث دل ذلك على أن نصحه المقارن للاهتمام به لا يجديهم نفعًا عند مجرد إرادة الله تعالى إغواءهم فكيف عند تحققه وخلقه فيهم»[1].

قد تقول: لقد قال في الأعراف: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٢].

فذكر أنه ينصح لهم، ولم يقل كما قال ههنا: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾.

فلم ذاك؟

فنقول: إن السياق في كل منهما مختلف.

فإن السياق في الأعراف كان في بيان أول الدعوة، وقد ذكر مهمته لقومه وهي أنه رسول من رب العالمين يبلغهم رسالات ربه وينصح لهم.

وأما في هود فالسياق مختلف، فإنه قال ما قال بعدما تطاول الزمن وكثر الجدال بينه وبين الملأ من قومه، وبعدما أوصدوا الباب دونه وطلبوا منه أن يأتيهم بما يعدهم به. فقال لهم: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ فقد قال لهم ذلك بعد أن لم ينفعهم نصحه مع حرصه على ذلك وتطاول الزمن فناسب أن يقول لهم ذلك. ولا يناسب أن يقول هذا لهم في أول الدّعوة وعند أول التبليغ.

فكان كل تعبير أنسب في مكانه.

لقد قال في المؤمنين الذين ازدروهم ﴿ إِنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ ﴾.

وقال للملأ الذين كفروا: ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

---

(١) روح المعاني ١٢/٤٧.

فقوله: ﴿ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾ بمقابل ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

وقوله: ﴿ رَبِّهِمْ ﴾ بمقابل ﴿ رَبُّكُمْ ﴾

والتعبيران إنما هما في الرجوع إلى الله ولقائه.

ومعنى قوله: ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ ﴾ أي ليس لكم رب غيره.

وبذا يكون قد دعاهم إلى توحيد الألوهية ، وتوحيد الربوبية.

فتوحيد الألوهية دعاهم إليه بقوله: ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ .

وتوحيد الربوبية هو قوله: ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

فقوله: ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ ﴾ يعني ليس لكم رب غيره.

وقوله: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ يعني أنكم ترجعون إليه حصرًا لا إلى غيره.

غير أن ثمة فرقًا بين اللقاءين ، فإن المؤمنين ملاقوه وهم مطيعون له مستجيبون لأمره.

وأنتم ملاقوه وأنتم كافرون به عاصون لأمره.

لقد قال في المؤمنين: ﴿ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾ .

ولم يقل في الكافرين كذلك ، وإنما قال: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

ولعل سبب هذا الاختلاف أو من أسبابه أن القرآن يستعمل التعبير ﴿ مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾ ونحوه في المؤمنين ولم يستعمله في الكافرين ، واستعمله في عموم الإنسان مرة واحدة.

قال تعالى فيمن أوتي كتابه بيمينه: ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٢٠ ـ ٢١].

وقال في الصلاة: ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة: ٤٥ ـ ٤٦].

وقال في جنود طالوت الصابرين: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وقال ربنا مخاطبًا المؤمنين: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

وقال ربنا مخاطبًا الإنسان على العموم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ [الانشقاق: ٦].

ولم يستعمل نحو هذا في الكافرين.

قد تقول: ولكنه قال في اليهود: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾ [الجمعة: ٨].

فنقول: إنه لم يقل إنهم ملاقو الموت ولكن الموت هو الذي ملاقيهم. ونحن قلنا فيمن يلاقونه لا فيما يلاقيهم.

ومن جهة أخرى أنه لم يستعمل ذلك مع الله وإنما مع الموت، ونحن قلنا ذلك في لقاء الرب.

فاختلف التعبيران والسياقان.

وأما ﴿ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فهي عامة في المؤمن وغيره، وأكثر ما تستعمل للعموم.

* * *

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ [هود: ٣٥]

قيل: إن هذه الآية من كلام قوم نوح ، أي يقولون افترى الوحي على الله .

وقال آخرون: إن هذه الآية معترضة في قصة نوح والقائلون مشركو مكة ، أي افترى محمد خبر نوح أو افترى القرآن[١] .

ومنطوق الآية يصلح في كل رسول كذبه قومه ورموه بالافتراء على الله .

والرد يصلح على كل من قال هذا القول .

فقوم نوح رموه بالافتراء على الله ، والرد يصلح ردًّا عليهم .

وهناك أقوام آخرون رموا رسلهم بالافتراء على الله ، والرد يصلح ردًّا عليهم .

ومشركو قريش رموا سيدنا محمدًا بالافتراء على الله . وذكر القرآن ذلك في أكثر من موضع ورد عليهم في كل موضع بما يناسب قولهم .

وهذا الكلام يصلح أن يكون في الكلام على سيدنا محمد ، والرد يصلح أن يكون ردًّا عليهم .

فالأمر لا يختلاف أيًّا كان القائل والجواب يصلح للجميع .

واختلف في معنى الآية :

فقد قيل إن معناها: إن افتريته فعليّ إثم ذلك ، وأنا بريء مما ترتكبون من الآثام «والكفر والتكذيب» [٢] . فكل منا محاسب عما يعمل كما قال تعالى : ﴿أَنتُمْ بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس : ٤١]

---

(١) انظر روح المعاني ١٢/٤٨ ، تفسير الرازي ٦/ ٣٤٣ ، البحر المحيط ٥/ ٢٢٠ .

(٢) البحر المحيط ٥/ ٢٢٠ .

وقيل إن معناها: إن افتريته فعليّ عقوبة افترائي.

ولكن الحقيقة أني بريء مما تنسبونه إليّ من الافتراء.

وادعاؤكم أني افتريته هو إجرام. فأنت إذا نسبت الافتراء إلى شخص وكان بريئًا من ذلك فأنت مجرم في حقه.

جاء في (الكشاف): «والمعنى: إن صح وثبت أني افتريته فعليّ عقوبة إجرامي: أي افترائي، وكان حقي حينئذ أن تعرضوا عني وتتألبوا علي.

﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ﴾ يعني ولم يثبت ذلك وأنا بريء منه.

ومعنى ﴿مِّمَّا تُجۡرِمُونَ﴾ من إجرامكم في إسناد الافتراء إليّ. فلا وجه لإعراضكم ومعاداتكم»[1].

والمعنيان صحيحان يصلحان لكل من قال ذلك.

وقال: ﴿إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ﴾ ولم يقل: (وأنا بريء من إجرامكم) كما قال: ﴿فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي﴾ ذلك لأنهم رموه بأمر واحد وهو الافتراء فقال: ﴿فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي﴾.

وأما هم فإجرامهم مستمر من الكفر والتكذيب وغيرهما من الآثام فقال: ﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ﴾ أي مما أنتم مستمرون عليه من الإجرام.

* * *

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦]

بعد أن أغلقوا باب الجدل بينهما وتحدوه أن يأتي بما يعدهم إن كان صادقًا أوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، فلا يدخل أحد في دينه بعد.

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٧.



قد تقول: لقد قال ههنا: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ﴾ ببناء الفعل للمجهول: (أوحي).

وقال في سورة المؤمنين: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ [المؤمنون: ٢٧] بالبناء للمعلوم فلم ذاك؟

والجواب من أكثر من وجه:

من ذلك أن نوحًا دعا ربه في سورة المؤمنون لينصره ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٢٦] فاستجاب له ربه فقال: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ فالذي طلب منه النصر استجاب له فقال: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ ولم يقل: (فأوحي) بحذف فاعل الاستجابة.

والأمر الآخر: أنه حيث جاء فعل أمر متصل بالإيحاء لم يقل: (أوحي) بالبناء للمجهول، وإنما يذكر الفاعل فيقول: (أوحينا) أو (أوحيت) أو (أوحى ربك) ونحوه.

قال تعالى: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [الأعراف: ١١٧].

وقال: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

وقال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ [طه: ٧٧].

وقال: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾ [المائدة: ١١١].

وقال: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل: ٦٨].

ولما جاء أمر بعد الإيحاء في آية المؤمنون وهو قوله: ﴿أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ ناسب ذلك قوله: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ﴾ من هذا الوجه أيضًا.

﴿لَن يُؤْمِنَ﴾

نفى فعل الإيمان بحرف الاستقبال (لن) للدلالة على أنه لا يؤمن له أحد في المستقبل ، فإن الأمر انتهى ولا فائدة من دعوتهم .

﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾

أي لا تحزن لما كانوا يفعلونه من استهزاء وتكذيب وإيذاء[1] .

وقال ههنا : ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ بذكر الفعل (يفعلون) .

وقال في سورة يوسف : ﴿ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ فقال : ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ فذكر العمل ، ذلك أنه يستعمل الفعل (فعل) مع الإهلاك ولم يستعمل الفعل (عمل) . قال تعالى : ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾ [الأعراف : ١٥٥] .

وقال : ﴿ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٣] .

ولم يرد في نحو هذا (عمل) .

ثم إن ربنا يستعمل الفعل (فعل) في عقوبات الأقوام وإهلاكهم ولم يستعمل (عمل)

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ [الفجر : ٦] .

وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ [الفيل : ١] .

وقال : ﴿ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [إبراهيم : ٤٥] .

وقال : ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [المرسلات : ١٦ ـ ١٨] .

ولم يقل في نحو هذا : (عمل) .

---

(١) انظر روح المعاني ١٢/ ٤٩ .

فلما قضى ربنا إهلاك قوم نوح استعمل الفعل الذي يستعمله في الإهلاك فقال: ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ أي إن فعلهم يقتضي إهلاكهم كما قال: ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ فإن فعل هؤلاء يقتضي إهلاكهم.

وليس الأمر في قصة يوسف كذلك، فاستعمل فعلاً آخر يؤدي إلى المعنى المقصود. والله أعلم.

* * *

﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧]

بدأ بما فيه النجاة وهو صنع الفلك وقدمه على مصير الظالمين وهو الإغراق. وهذا هو الكثير في القرآن في قصة نوح وغيرها، يقدم نجاة المؤمنين على إهلاك الكافرين وذلك نحو قوله: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [الأعراف: ٦٤] فقدم نجاة المؤمنين على إغراق الذين كذبوا.

ونحوه قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [يونس: ٧٣].

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا... وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [هود: ٦٦ ـ ٦٧].

وقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [هود: ٩٤] وغيرها.

ومعنى (بأعيننا): برعايتنا وحفظنا، وجاءت بالجمع للدلالة على تكثير الحفظ وديمومته كما قيل.

جاء في (البحر المحيط): (بأعيننا) «بمرأى منا وكلاءة وحفظ . . . وجمعت هنا لتكثير الكلاءة والحفظ وديمومتها» [١] .

وجاء في (روح المعاني): «الأعين حقيقة في الجارحة وهي جارية مجرى التمثيل ، كأن لله سبحانه أعينًا تكلؤه من تعدي الكفرة ومن الزيغ في الصنعة ، والجمع للمبالغة . . . وقيل: المراد من أعيننا ملائكتنا الذين جعلناهم عيونًا على مواضع حفظك ومعونتك» [٢] .

(ووحينا) أي تعليمنا لك كيف تصنعها[٣] .

ولما قدم ما فيه نجاتهم وهو الفلك قدم ما يدل على عنايته وحفظه لهم ، وما يدفع الشر عن الفلك ، وحفظها مما يمنعه من العمل في إتمامها وذلك قوله: ﴿ بِأَعْيُنِنَا﴾ .

فقدم كل ما يتعلق بالنجاة والحفظ ، من صنع الفلك وحفظ الله ورعايته .

ثم قال: (ووحينا) أي تعليمنا لك كيف تصنعها .

وهذا يقتضي مراقبة ما يعمل ثم توجيهه إلى أن يستكمل صنعها ، وذلك يقتضي أيضًا تقديم قوله: ﴿ بِأَعْيُنِنَا﴾ على قوله: ﴿وَوَحْيِنَا﴾ .

ثم إن تعليمه ووحيه إنما هو لغرض النجاة فقدم ما يتعلق بالحفظ والنجاة .

جاء في (تفسير الرازي): «إن إقدامه على عمل السفينة مشروط بأمرين:

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٢٢٠ .

(٢) روح المعاني ١٢/ ٤٩ .

(٣) انظر تفسير الرازي ٦/ ٣٤٥ ، روح المعاني ١٢/ ٤٩ .

أحدهما: أن لا يمنعه أعداؤه عن ذلك العمل.

والثاني: أن يكون عالمًا بأنه كيف ينبغي تأليف السفينة وتركيبها ودفع الشر عنه.

وقوله: ﴿وَوَحْيِنَا﴾ إشارة إلى أنه تعالى يوحي إليه كيف ينبغي عمل السفينة»[١].

والأول متعلق بقوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾.

* * *

﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾

أي لا تراجعني فيهم فتطلب إمهالهم وتأخير العذاب عنهم[٢].

وقال: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ فذكر صفتهم، ولم يقل: (ولا تخاطبني فيهم) ذلك أنه ذكر الصفة التي تستدعي إهلاكهم وهي الظلم.

وهذه الصفة توجب عقوبتهم لا أن تستشفع فيهم.

فناسب ذكر صفتهم التي تستدعي عقوبتهم وعدم مراجعة ربه في إمهالهم.

جاء في (روح المعاني): «﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ أي لا تراجعني فيهم ولا تدعني باستدفاع العذاب عنهم. وفيه من المبالغة ما ليس فيما لو قيل: ولا تدعني فيهم»[٣].

﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾.

---

(١) تفسير الرازي ٦/ ٣٤٤ ـ ٣٤٥.

(٢) انظر فتح القدير ٢/ ٤٧٤، روح المعاني ١٢/ ٥٠.

(٣) روح المعاني ١٢/ ٥٠.

قال: ﴿ مُّغۡرَقُونَ ﴾ بالاسم ، ولم يقل: (سأغرقهم) للدلالة على الثبوت ، فكأنهم أغرقوا وانتهى الأمر.

* * *

﴿ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴾ [هود: ٣٨ ـ ٣٩]

﴿ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ ﴾ حكاية حال ماضية[١] لاستحضاره صورته وهو يصنع الفلك ، فكأنك تشاهده وهو يعمل.

وقيل: تقديره: وأخذ يصنع الفلك ، أو طفق يصنع الفلك ، أو أقبل يصنعها[٢] ونحوها من أفعال الشروع.

وعدم التقدير أولى ؛ لأن قولنا: (أخذ يعمل) أو (طفق يعمل) ونحوه يحيلنا على بداية العمل ، أي بدأ يعمل.

وأما قوله: ﴿ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ ﴾ فإنه يذكر الحال المستمرة للعمل وليست بداية العمل. وهو نظير قولك: (أخذ محمود يقرأ) وقولك: (محمود يقرأ) فالجملة الأولى تشير إلى بداية القراءة ، وأما الثانية فهي تدل على أنه في داخل الحدث مستمر على فعله. ولذا تخريجه على حكاية الحال أولى ؛ لأنه ينقل المخاطب إلى المشهد ونوح منهمك في العمل.

* * *

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٧ ، وانظر فتح القدير ٢/ ٤٧٤.

(٢) انظر روح المعاني ١٢/ ٥٠ ، فتح القدير ٢/ ٤٧٤.

﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾

قال: ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ ﴾ ولم يقل: (وكلما مَرَّ به ملأ) وذلك يدل على أنه ليس يصنع في طريق المارة، بل هو متنحٍّ عنهم في مكان أخفض من طريق المارة معه الألواح ومعه أدواته. يدل على ذلك قوله: (عليه)، و(على) للاستعلاء.

ولم يقل: (به) التي تفيد الإلصاق كما قال: ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ [المطففين: ٣٠] أي في الطريق الذي هم فيه أو المكان الذي هم فيه.

وجواب (كلما) يحتمل أن يكون ﴿ سَخِرُواْ مِنْهُۚ ﴾ فيكون المعنى: كلما مر الملأ عليه سخروا. فالسخرية مستمرة عند كل مرور. وتكون جملة ﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ ﴾ استئنافية.

كما يحتمل أن يكون جواب (كلما): ﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا ﴾، وجملة ﴿ سَخِرُواْ مِنْهُۚ ﴾ صفة للملأ. فيكون المعنى: (كلما مَرَّ عليه ملأ ساخر قال إن تسخروا منا). فهو لا يترك ساخرًا إلا رد عليه، وكلما سخر أجابه نوح بقوله: ﴿ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا... ﴾.

وعلى الاحتمال الأول يكون المعنى: (كلما مَرَّ عليه ملأ سخروا منه)، ولا يدل ذلك على أنه يجيبهم في كل مرة، بل قد يجيبهم أحيانًا وقد يتركهم أحيانًا، أو هو يجيبهم دائمًا. لكن لا يدل ذلك على أن الإجابة كانت في كل مرة حتمًا.

وأما على الاحتمال الثاني: فإنه يدل على أنه كلما مَرَّ عليه ملأ ساخر رَدَّ عليه ولا يترك سخرية من دون ردّ. ولكن لا يدل على أن كل ملأ يمر عليه يسخر منه، فقد يسخر منه ملأ وقد لا يسخر آخر.

ولو قال: (وكلما مَرَّ عليه ملأ من قومه يسخرون منه قال) لكان الجواب (قال) حتمًا ، ولكان المعنى أنه لا يترك ملأ يسخر إلا رَدَّ عليه.

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: فما جواب كلما؟

قلت: أنت بين أمرين:

إما أن تجعل (سخروا) جوابًا، و(قال) استئنافًا على تقدير سؤال سائل.

أو تجعل (سخروا) بدلاً من (مرّ) أو صفة لملأ ، و(قال) جوابًا»[١].

وجاء في (روح المعاني): «و(كل) منصوب على الظرفية ، و(ما) مصدرية وقتية ، أي كل وقت مرور ، والعامل فيه جوابه وهو (سخروا) ، وقوله سبحانه: ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ استئناف بياني ، كأن سائلاً سأل فقال: فما صنع نوح عليه السلام عند بلوغهم منه هذا المبلغ؟

فقيل: قال ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا﴾ لهذا العمل ومباشرة أسباب الخلاص ومن العذاب ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ لما أنتم فيه من الإعراض عن استدفاعه بالإيمان والطاعة...

هذا وجوز أن يكون عامل (كلما): (قال) ، وهو الجواب ، وجملة (سخروا) صفة لملأ أو بدل من (مر) بدل اشتمال... ويلزم على هذا التجويز استمرار هذا القول منه عليه السلام وهو ظاهر.

وعلى الإعراب الأول قيل: لا استمرار ، وإنما أجابهم به في بعض المرات»[٢].

وقال: ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا﴾ ولم يقل: (إن سخرتم منا) للدلالة على استمرار السخرية ، فهم دائمون عليها. وهو مناسب لقوله: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٨.

(٢) روح المعاني ١٢/ ٥١.

﴿عَلَيۡهِ مَلَأٞ﴾ بذكر (كلما) التي تفيد الاستمرار.

وقال: ﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا﴾ ولم يقل: (إن تسخروا مني) مع أنه قال: ﴿سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾ إشارة إلى أنهم لم يكتفوا بالسخرية منه، بل يسخرون من المؤمنين أيضًا.

فهم يسخرون منه إذا رأوه يصنع الفلك، ويسخرون من المؤمنين إذا رأوهم، ولذلك كان جواب الشرط بالجمع أيضًا وهو قوله: ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾ ولم يقل: (فإني أسخر منكم).

جاء في (روح المعاني): «وجمع الضمير في (مِنَّا) إما لأن سخريتهم منه عليه السلام سخرية من المؤمنين أيضًا، أو لأنهم كانوا يسخرون منهم أيضًا إلا أنه اكتفى بذكر سخريتهم منه عليه السلام ولذلك تعرض الجميع للمجازاة في قوله: ﴿نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾»[1].

وقال: ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾ ولم يقل: (سنسخر منكم) أو (سوف نسخر منكم)، وذلك أن الفعل (نسخر) يحتمل الحال والاستقبال، وقوله: ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾ يحتمل أنهم يسخرون من الكافرين في الحال لعدم معرفتهم بما سيحيق بهم وهم لاهون عابثون ساخرين من الآخرين، وهؤلاء يستحقون أن يسخر منهم في هذه الحال.

وأنهم يسخرون منهم في المستقبل أيضًا عندما يَحِلُّ عليهم العذاب فيأخذهم الطوفان فيغرقهم أجمعين.

ويسخرون منهم في الآخرة وهم في السعير كما قال تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾ [المطففين: ٣٤].

فقوله تعالى: ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾ أفاد السخرية منهم في الحال وفي

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٥١.



الاستقبال عند الغرق وعند حلول العذاب المقيم وهو عذاب الآخرة.

* * *

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ ﴾ يحتمل أن تكون (من) اسمًا موصولاً، أي فسوف تعلمون الذي يأتيه العذاب الذي يذله ويفضحه.

كما يحتمل أن تكون (من) اسم استفهام مبتدأ، وجملة (يأتيه) خبر، والجملة مفعول (يعلم) والفعل معلق سدت الجملة مسد مفعوليه[١].

وقوله: ﴿ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ يعني عذاب الدنيا وهو الغرق.

ومعنى (يخزيه) يفضحه ويذله.

وقوله: ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ يعني عذاب الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا ﴾ [نوح: ٢٥].

ومعنى (يحل عليه): يجب عليه ويلزمه لزومًا لا ينفك عنه، ومعنى (مقيم): ثابت لا يتحول[٢].

ووصف العذاب أنه يخزيهم مجانسة لأفعالهم التي كانوا يسترذلون بها المؤمنين ويسخرون منهم، فأتى بالعذاب الذي يخزيهم ويذلهم.

وقال أولاً: ﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ ﴾ ثم قال: ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ ﴾ فذكر الإتيان أولاً. والإتيان لا يستلزم الدوام، فقد يأتيهم ثم ينصرف عنهم. ولئلا يخطر في الذهن ذلك أتبعه بقوله: ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أي يجب عليهم وجوبًا لا ينفك عنهم ولا يرحل أو يتحول، أعاذنا الله منه.

* * *

---

(١) انظر البحر المحيط ٥/ ٢٢٢.

(٢) انظر الكشاف ٢/ ٩٨، روح المعاني ١٢/ ٥١.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴾ [هود: ٤٠]

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا ﴾

قال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ ﴾ ولم يقل (أتى) ذلك أن (جاء) يستعمله القرآن لما فيه مشقة وصعوبة، أو لما هو أصعب مما يستعمله له (أتى) [١]، ولما كان في هذا المجيء مشقة وهو العذاب استعمل (جاء).

ولذا حيث ورد (أمرنا) بمعنى العذاب والعقوبات استعمل له (جاء) وذلك نحو قوله: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ [هود: ٥٨].

وقوله: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ [هود: ٦٦].

وقوله: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ [هود: ٨٢].

وقوله: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ [هود: ٩٤].

وقد تقول: ولكنه قال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ ﴾ [يونس: ٢٤] فقال: ﴿ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا ﴾.

فنقول: إن ذلك ليس في عقوبات الأقوام وإنما هو في الكلام على الحياة الدنيا وزوالها ولا يتعلق ذلك بقوم من الأقوام.

وقد تكلمنا على الفرق بين (جاء وأتى) في كتابنا (لمسات بيانية) [٢] فلا نعيد القول فيه.

﴿ وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾

---

(١) انظر المفردات للراغب الأصبهاني (أتى) و(جاء).

(٢) انظر كتابنا (لمسات بيانية) صفحة ١١٣ وما بعدها.

قيل: هو تنور الخبز وجعل فوران الماء منه علامة على بداية الطوفان.

وقيل: هو مجاز عن شدة الأمر، كما يقال: (حمي الوطيس)، ولا مانع أن يكون الأمران مرادين.

* * *

﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ﴾

قال: (قلنا) بإسناد القول إلى نفسه في نجاة المؤمنين.

وقال في هلاك الكافرين: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ببناء فعل القول للمجهول: (قيل).

وأظنك تحس الفرق بين رعايته للمؤمنين وتوجيهه سبحانه لنجاتهم في قوله: (قلنا)، وبين هلاك الكافرين وإبعادهم في قوله: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

وقد بدأ بذكر حمل الحيوانات في قوله: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ لأنها قوام حياة الإنسان وسبب بقائه، وإلا فماذا يأكل وكيف يعيش؟

ثم ذكر حمل الأهل بعد ذلك فقال: (وأهلك) لأن الأقربين أولى بالمعروف كما قال تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦].

ألا ترى كيف نادى نوح ابنه ليركب معه ولم يناد غيره من الكافرين فقال: ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ [هود: ٤٢].

وكيف نادى نوح ربه فقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود: ٤٥]؟

ثم ذكر بعد الأهل من آمن.

واستثنى من أهله (من سبق عليه القول) أي من حق عليه العذاب لعدم إيمانه.

وهو يستعمل نحو هذا التعبير في العذاب. ونحوه قوله: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ [الإسراء: ١٦]، و﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ [القصص: ٦٣].

وقد ذكرنا ذلك في تفسيرنا لسورة (يس) في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ [يس: ٧] (١).

جاء في (روح المعاني) في قوله: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾:

«وجيء بـ (على) لكون السابق ضارًّا لهم. كما جيء باللام فيما هو نافع في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾» (٢).

وأما التشابه والاختلاف بين هذه الآية وما جاء في سورة المؤمنون وهو قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، فقد ذكرناه في كتابنا (أسئلة بيانية) فلا نعيد القول فيه.

* * *

﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١]

وردت قراءتان متواترتان في (مجراها) وهما: بفتح الميم وضمها.

وهي بالفتح مصدر أو اسم مكان أو زمان من (جرى) الثلاثي، أي

---

(١) انظر كتابنا (على طريق التفسير البياني) ٢/ ١٧ وما بعدها.

(٢) روح المعاني ١٢/ ٥٥.

جريانها هي كما قال تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢].

وبالضم مصدر أو اسم مكان أو زمان من (أجرى) الرباعي. نقول: أجرى الله الفلك في البحر، وأجرتها الرياح. والمصدر الميمي (مُجرى) بضم الميم.

وأما (مُرساها) فهي بضم الميم في جميع القراءات المتواترة، وهي أيضًا مصدر واسم مكان واسم زمان من (أرسى) الرباعي، وليس من (رسا) الثلاثي.

يقال: (رست السفينة) إذا رست هي، والمصدر الميمي (مَرسى) بفتح الميم، وتقول: (أرسى الملاح السفينة) أو أرساها الله سبحانه، والمصدر الميمي (مُرسى) بضم الميم.

وقد جمعت هذه العبارة معاني عدة كلها مرادة، منها:

بسم الله جريانها هي وإرساؤها من الله سبحانه، وبسم الله إجراؤها وإرساؤها، فالله هو مُجريها ومرسيها. فيكون المعنى: إجراؤها وجريانها وإرساؤها كل ذلك حاصل وكائن بسم الله ربنا.

وبسم الله مكان جريها وإجرائها ومكان إرسائها، أي في المكان الذي تجري فيه وتُجرى فيه، وفي المكان الذي تُرسى فيه.

وبسم الله في الزمان الذي تجري فيه وتُجرى فيه، وفي الزمان الذي تُرسَى فيه.

وعلى هذا يكون المعنى:

بسم الله جريانها وإجراؤها ومكان جريها ومكان إجرائها، وزمان جريها وزمان إجرائها.

وبسم الله إرساؤها ومكان إرسائها وزمان إرسائها.



ولو غيرت أية صيغة من الصيغ لم يجمع هذه المعاني.

وهذا يدل على أن جريانها ومكان الجريان وزمانه، وإجراءها ومكانه وزمانه مقدرات. وإرساءها ومكان إرسائها وزمانه كل ذلك مقدر.

فهي تجري وتُجرى في المسار الذي قدره ربنا. وترسو في المكان الذي قدره ربنا لها.

هذا علاوة على ما في التأليف من معان.

فقوله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ يحتمل أن يكون الكلام مبتدأ وخبرًا، فقوله: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ خبر مقدم، وقوله: ﴿مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ مبتدأ مؤخر، فيكون المعنى على ما ذكرنا.

ويحتمل أن يكون المعنى: (اركبوا فيها بسم الله) أي مسمين الله حين جريها وحين إرسائها، أي ذاكرين الله في الجري والإرساء، و(مجراها ومرساها) مصدران أو ظرفان كما ذكرنا.

ويحتمل أن يكون تقدير مجراها ومرساها على الحال، فيكون المعنى: اركبوا فهي جارية ومجراة ومرساة بسم الله.

فجمع هذا التعبير معاني متعددة لا يجمعها غير هذا التعبير:

اركبوا فيها:

بسم الله جريها وإجراؤها وإرساؤها، أي يكون ذلك باسمه سبحانه.

بسم الله في مكان جريها وإجرائها وإرسائها.

بسم الله في زمان جريها وإجرائها وإرسائها.

اركبوا فيها مسمين الله في مكان جريها وإجرائها وإرسائها.

ومسمين الله في زمان جريها وإجرائها وإرسائها.

واركبوا فيها جارية ومجراة ومرساة بسم الله.

جاء في (الكشاف): «يجوز أن يكون كلامًا واحدًا وكلامين.

فالكلام الواحد أن يتصل (بسم الله) بـ (اركبوا) حال من الواو، بمعنى: اركبوا فيها مسمين الله أو قائلين بسم الله وقت إجرائها ووقت إرسائها، إما لأن المجرى والمرسى للوقت، وإما لأنهما مصدران كالإجراء والإرساء حذف منهما الوقت المضاف، كقولهم: خفوق النجم ومقدم الحاج.

ويجوز أن يراد مكانا الإجراء والإرساء وانتصابهما بما في (بسم الله) من معنى الفعل أو بما فيه من إرادة القول.

والكلامان أن يكون ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ جملة من مبتدأ وخبر مقتضبة، أي بسم الله إجراؤها وإرساؤها...

ويحتمل أن تكون غير مقتضبة بأن تكون في موضع الحال... وانتصاب هذه الحال عن ضمير الفلك، كأنه قيل: اركبوا فيه مجراة ومرساة بسم الله»[1].

﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

قال ﴿إِنَّ رَبِّى﴾ بذكر الرب، والرب هو المربي والمعلم والموجه والمرشد والقيم. وهو أنسب اسم ههنا لأنه يوجههم ويرشدهم إلى سبيل نجاتهم. ألا ترى أن رئيس الملاحين في السفينة يسمى (رُبّان) وهو مأخوذ من لفظ (الرب) لأنه يوجه ويرشد إلى المسار الصحيح وإلى سبيل النجاة.

وقال: ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فأكد ذلك بـ (إنَّ) واللام، في حين قال

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٨.



على لسان سيدنا يوسف: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣] فأكده بـ (إنَّ) وحدها.

وقال على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨] فأكده بـ (إنَّ)، وجاء بضمير الفصل وتعريف الاسمين الجليلين: الغفور الرحيم.

وكل تعبير في مكانه هو المناسب.

فإن سيدنا يوسف لم يرتكب ذنبًا وإنما سجن ظلمًا بضع سنين، فهو معتدى عليه فلا يحتاج إلى توكيد المغفرة كتوكيدها فيمن لم يظلم ولم يقع عليه عدوان وهو طليق حر قد يقع في اللمم أو في الذنب.

هذا علاوة على أنه واحد وقوم نوح جمع، فزاد المغفرة لما زاد في العدد.

وأما ما قاله يعقوب فهو جواب عما اعترف به أبناؤه من الخطيئة من إلقاء يوسف في غيابة الجب وما حصل لأبيهم من جراء ذلك وطلبوا منه أن يستغفر لهم ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩٧].

فقال لهم أبوهم: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨].

فالله وحده هو الذي يغفر في نحو هذا، فإن في فعلهم ما يتعلق بحقوق الآخرين وذلك ليس إليه. فأكد ذلك بـ (إنَّ) وبضمير الفصل وجاء بتعريف الاسمين: الغفور الرحيم للدلالة على القصر.

فكل تعبير مناسب في مكانه الذي ورد فيه.

* * *

﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ



ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٢ ـ ٤٣].

بعد الأمر بالركوب انتقل إلى مشهد الفلك وهي تجري في الماء ، فلم يقل: (فركبوا فيها ثم جرت السفينة) لأنه لا يتعلق غرض بذكر ذلك ، فإن قوله: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ﴾ يدل على أنهم ركبوا وقد جرت بهم.

وقوله: ﴿تَجْرِى بِهِمْ﴾ حكاية للحال الماضية ، فكأنك تشاهدها وهي تجري بهم والأمواج تصعد بها وتنزل.

وقوله: ﴿فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ يرسم المشهد الذي هي فيه.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾

أي رفع نوح صوته مناديًا ابنه مما يدل على أن ابنه في مكان بعيد لا يُسمعه إلا النداء.

والملاحظ ههنا أن نوحًا هو الذي نادى ابنه ليركب معه ، وكان المظنون أن ينادي الابن أباه ليحمله فينجو مع الناجين ، وكل الأمر يدل على أن الفلك هي سبيل النجاة الوحيد ولكن الابن رفض هذه الدعوة وآثر على رفقة هؤلاء الذين لا يرغب فيهم أن يلجأ وحيدًا إلى جبل ظانًّا أنه يعصمه من الماء.

وكان نداء نوح هو: ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

فقال: (يا بنيّ) بنداء التحبيب وذلك بتصغير الابن وإضافته إلى ياء المتكلم ، وهو نداء كله حنان ، ولم يقل له: (يا فلان) أو نحو ذلك.

وقال: ﴿ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ولم يقل: (ولا تكن من الكافرين) فلم يدعه إلى الدخول في دينه في هذا الموقف وإنما نهاه أن

يكون مع الكافرين فيغرق معهم.

وقد دعاه إلى النجاة أولاً ليعيش في مجتمع مؤمن غير الذي ألفه وغير الخلاّن الذين كان يحيا معهم فيميلون به إلى معتقداتهم وأسلوب حياتهم. والخليل يؤثر في خليله كما قال تعالى: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ [الفرقان: ٢٨ ـ ٢٩].

فنوح أراد أن يكون ابنه معهم أولاً فيعيش في مجتمع مؤمن مرقاة إلى أن يكون منهم فيما بعد.

* * *

﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣].

رفض الابن دعوة أبيه للركوب في سفينة النجاة وآثر أن ينجو بنفسه وحيداً على أن يكون مع أسرته ومع الجماعة المؤمنة.

ولم يكرر أبوه الدعوة له وإنما قال: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ فنفى العاصم من أمر الله على سبيل الاستغراق في مثل هذا اليوم.

وذكر اليوم مع أنه لا عاصم من أمر الله على الإطلاق لا في هذا اليوم ولا في غيره؛ لأن هذا اليوم ليس كسائر الأيام، فإنه لا ينفع فيه اتخاذ الأسباب. فأنت في سائر الأيام تتخذ الأسباب للنجاة وتفر من قدر الله إلى قدر الله، وللوصول إلى سائر الغايات.

فالمرض مثلاً من أمر الله، والدواء من أمر الله وهو خالقه. والدواء يرفع المرض وكلاهما من أمر الله. أما في هذا اليوم فلا ينفع شيء من ذلك ولا يعصم من أمر الله شيء إلا من رحم.

وقال: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل: (من الماء) للإشارة إلى

أن هذا الماء ليس كسائر المياه التي تنجو منها بالالتجاء إلى جبل مرتفع أو نحو ذلك ؛ لأن هذا أمر الله الذي أنزله على الذين ظلموا من عباده ولا يعصم شيء منه.

جاء في (روح المعاني): «وزاد (اليوم) للتنبيه على أنه ليس كسائر الأيام التي تقع فيها الوقائع وتلم فيها الملمات المعتادة التي ربما يتخلص منها بالالتجاء إلى بعض الأسباب العادية.

وعبر عن (الماء) في محل إضماره بـ (أمر الله) أي عذابه الذي أشير إليه بقوله سبحانه: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ تفخيمًا لشأنه وتهويلاً لأمره وتنبيهًا لابنه على خطئه في تسميته ماء وتوهمه أنه كسائر المياه التي يتخلص منها بالهرب إلى بعض المهارب المعهودة، وتعليلاً للنفي المذكور، فإن أمر الله سبحانه لا يغالب وعذابه لا يرد»[1].

وقوله: ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ يحتمل معاني:

منها: أنه لا عاصم اليوم من أمر الله إلا الراحم وهو الله و(من رحم) يعني به الله.

كما يحتمل أن يكون المعنى أنه لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحمه الله فإنه يعصمه. والمعنى: لا عاصم اليوم من أمر الله إلا المرحوم. وذكروا أموراً غير ذلك.

جاء في (الكشاف): «﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ إلا الراحم وهو الله تعالى. أو لا عاصم اليوم من الطوفان إلا من رحم الله، أي إلا مكان من رحم الله من المؤمنين وكان لهم غفورًا رحيمًا في قوله: ﴿ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . . . يعني السفينة.

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٦٠.

وقيل: (لا عاصم) بمعنى لا ذا عصمة إلا ذا من رحمه الله ، كقوله: ماء دافق ، وعيشة راضية.

وقيل: (إلا من رحم) استثناء منقطع ، كأنه قيل: ولكن من رحمه الله فهو المعصوم» [١].

وجاء في (حاشية ابن المنيّر على الكشاف): «قال أحمد: والاحتمالات الممكنة أربعة: لا عاصم إلا راحم ، ولا معصوم إلا مرحوم ، ولا عاصم إلا مرحوم ، ولا معصوم إلا راحم.

فالأولان استثناء من الجنس ، والآخران من غير الجنس.

وزاد الزمخشري خامسًا وهو: لا عاصم إلا مرحوم على أنه من الجنس بتأويل حذف المضاف ، تقديره: لا مكان عاصم إلا مكان مرحوم» [٢].

وقوله: ﴿ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ أشار إلى غرقه وغرق الآخرين.

ولو قال: (فغرق) لأفاد غرقه ولم يفد غرق الآخرين.

ثم إن قولنا: (غرق) يدل على أنه غرق بنفسه ، أما قوله: ﴿ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ فيدل على أن جهة ما أغرقته وأغرقت الآخرين ، وأن ذلك إنما حصل بفعل فاعل قصد إلى إغراقه وإغراق الآخرين. وفيه إشارة إلى العقوبة التي أوعدوا بها.

* * *

﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود: ٤٤].

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٩.

(٢) حاشية ابن المنير على الكشاف ٢/ ٩٩.

ذُكر في هذه الآية الشيء الكثير وأُفردت فيها رسائل ، ومما قيل فيها : «أجمع المعاندون على أن طوق البشر قاصر عن الإتيان بمثل هذه الآية» [١] .

وقيل فيها أيضًا : إنه «قد أمر فيها ونهى وأخبر ونادى وسمى وأهلك وأبقى وأسعد وأشقى وقَصَّ من الأنباء ما لو شرح ما اندرج في هذه الجملة من بديع اللفظ والبلاغة والإيجاز والبيان لجفت الأقلام» [٢] .

ونحن نقول : إن كل تعبير بمقدار أقصر سورة معجز للبشر أجمعين ، بل معجز للثقلين إلى آخر الدهر .

وعلى أية حال فنحن نذكر شيئًا من الأمور البيانية في هذه الآية :

١ ـ بدأ بفعل القول (قيل) ، والقول يقال لمن يسمع ويعقل .

ثم نادى ، والمنادَى ينبغي أن يعلم أنه نودي لسماع شيء ما أو تبليغه بأمر ، وذلك إذا لم يكن النداء مجازًا ، وإنما نودي لأمر ينبغي أن يسمعه أو يفعله .

ثم أمر على سبيل الحقيقة والاستعلاء وليس على سبيل المجاز . والمأمور ينبغي أن يكون عالمًا بما أُمر به وخاصة إذا كان الآمر طلب من المأمور أن يفعل ما أمره به .

وهذا كله يدل على أن الأرض والسماء سمعتا وعقلتا وأذنتا للقائل وامتثلتا لما أُمرتا به .

وليس هذا نظير نداء أو أمر لما لا يعقل وإنما قيل تجوزًا ، كقول الشاعر مخاطبًا الليل :

---

(١) الإتقان ٣/ ٢١٨ .

(٢) الإتقان ٣/ ٢١٧ .

فقلتُ له لما تمطَّى بصلبه وأردفَ أعجازًا وناء بكلكل
ألا أيها الليلُ الطويلُ ألا انجلِ بصبحٍ وما الإصباحُ منك بأمثل

وإنما القول والنداء والأمر في الآية كلهن على سبيل الحقيقة. وإن كل واحدة من السماء والأرض فعلت ما يخصها ، فاستجابتا وفعلتا كما يفعل العاقل المقتدر على تنفيذ ما أمر به.

ومع أن النداء للأرض والسماء وهما ما هما من الكبر والعظمة لم يذكر القائل ، وإنما بنى فعل القول للمجهول فقال: (وقيل).

وهذا يدل على عظمة القائل ، فإنه أمرهما من وراء حجاب فأطاعتا ، ويكفي أنهما عرفتا القائل وسطوته وإن لم يفصح عن ذاته فامتثلتا لأمره.

جاء في (الكشاف): «نداء الأرض والسماء بما ينادى به الحيوان المميز على لفظ التخصيص والإقبال عليهما بالخطاب. . .

ثم أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل من قوله (ابلعي ماءك وأقلعي) من الدلالة على الاقتدار العظيم ، وأن السماوات والأرض وهذه الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يشاء غير ممتنعة عليه ، كأنها عقلاء مميزون. . ويفزعون من التوقف دون الامتثال له والنزول على مشيئته على الفور من غير ريث» (١).

٢ ـ وقال: (يا أرض) فناداها بحرف النداء (يا) الذي هو للبعيد ، ولم يرد في القرآن الكريم حرف نداء غيره.

إن هذا النداء يدل على عظمة المنادي ، ذلك أنه ناداها باسم الجنس ﴿يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى﴾ ، وهو كما تقول لشخص ـ ولله المثل الأعلى ـ يا رجل افعل كذا ، أو لا تفعل كذا.

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٩.

وجردها من كل وصف أو إضافة أو غير ذلك مما يفيد التشريف أو التكريم لتستجيب. فلم يقل مثلاً: (يا أرضي) فيضيفها إليه، أو يا أرض الخير ويا سماء الخير والبركة، ولا يا أيتها الأرض المباركة، ولا أي وصف يشعرها بالتكريم والتشريف.

كما إنه لم يقل: (يا أيتها الأرض) فيتوصل إلى ندائها بـ (أيّ) لعلها كانت غافلة فتسمع آخر النداء، إذ لا يمكن الغفلة عن أي حرف يصدر عن هذا المنادي.

إضافة إلى الإيجاز الذي اتسمت به الآية قال (يا أرض) أوجز من (يا أيتها الأرض).

جاء في (روح المعاني): «اختيرَ (يا) دون سائر أخواتها لكونها أكثر في الاستعمال وأنها دالة على بعد المنادى الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة وإبداء شأن العزة والجبروت، وهو تبعيد المنادى المؤذن بالتهاون به.

ولم يقل: (يا أرضِ) بالكسر؛ لأن الإضافة إلى نفسه جلَّ شأنه تقتضي تشريفًا للأرض وتكريمًا لها فترك إمدادًا للتهاون.

ولم يقل: (يا أيتها الأرض) مع كثرته في نداء أسماء الأجناس قصدًا إلى الاختصار والاحتراز عن تكلف التنبيه المشعر بالغفلة التي لا تناسب ذلك المقام»[١].

٣ ـ وقال: (ابلعي) ولم يقل (ابتلعي) لأن ابتلع على وزن (افتعل) الذي يدل على التكلف والاجتهاد، وهو يحتاج إلى وقت أطول، وإنما قال: (ابلعي) الذي هو أقصر بناءً وزماناً فتبلعه في أقصر وقت.

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٦٥.

وهذا إضافة إلى الإيجاز ، فإن (ابلعي) أوجز من (ابتلعي) .

جاء في (روح المعاني) : «واختير لفظ (ابلعي) على (ابتلعي) لكونه أخصر وأوفر تجانسًا بـ (أقلعي)» [١] .

٤ ـ وقال : ﴿ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ فذكر مفعول البلع ؛ لأن بلع الماء هو المقصود ، ولم يحذف المفعول به فيقول : (يا أرض ابلعي) فيشمل البلع كل ما عليها من أشجار وحيوان وغيرها .

جاء في (روح المعاني) : «وإنما لم يقل : (ابلعي) بدون المفعول لئلا يستلزم تركه ما ليس بمراد من تعميم الابتلاع للجبال والتلال والبحار وساكنات الماء بأسرهن نظرًا إلى مقام عظمة الآمر المهيب وكمال انقياد المأمور» [٢] .

٥ ـ وقال : (ماءك) بالإفراد «دون الجمع لما فيه من صورة الاستكثار المتأبي عنها مقام إظهار الكبرياء وهو الوجه في إفراد الأرض والسماء» [٣] .

«وعبر عنه بالماء بعدما عبر عنه فيما سلف بأمر الله تعالى ؛ لأن المقام مقام النقص والتقليل لا مقام التفخيم والتهويل» [٤] .

٦ ـ وقال : (ماءك) بإضافة الماء إليها لأنَّ الماء الذي ينزل من السماء إنما هو للأرض ، ينزل إليها وينفذ في داخلها ويخرج منها على هيئة عيون وآبار يستفيد منه الناس . فهو ماؤها سواء ما تفجر منها وما نزل إليها من السماء .

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٦٥ .
(٢) روح المعاني ١٢/ ٦٥ ـ ٦٦ .
(٣) روح المعاني ١٢/ ٦٥ .
(٤) روح المعاني ١٢/ ٦١ .

ثم في الحقيقة أن ما ينزل من السماء من ماء إنما هو ماء الأرض ؛ لأن السحب إنما تتكون من البخار الذي يتصاعد من مياه الأرض بحارها وأنهارها ، فهو على كل حال ماء الأرض.

٧ ـ ثم نادى السماء فقال لها: (أقلعي) أي أمسكي وكفي ، ولم يذكر عما ذا تمسك لأنه معلوم وهو المطر وليس شيئًا آخر ، فلم يذكر متعلقًا.

جاء في (روح المعاني): «ولما علم أن المراد بلع الماء وحده علم أن المقصود بالإقلاع إمساك السماء عن إرسال الماء ، فلم يذكر متعلق (أقلعي) اختصارًا واحترازًا عن الحشو المستغنى عنه» [١].

فذكر متعلق البلع في الأرض أنسب ، وإطلاق الإمساك في السماء أنسب.

٨ ـ قدم أمر الأرض ببلع الماء لأنه أهم وذلك لترسو السفينة وهو مطلوب أهل السفينة ، فإنها إن لم ترس السفينة فلن يخرج من فيها منها. وإن لم تبلع الأرض ماءها فلن ترسو السفينة فقدم الأهم.

ثم إن الماء بدأ منها ، فإن ذلك بدأ من التنور الذي فار الماء منه.

جاء في (روح المعاني): «قَدَّم أمر الأرض على أمر السماء لكونها الأصل نظرًا إلى كون ابتداء الطوفان منها حيث فار تنورها أولاً» [٢].

٩ ـ قال: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ أي ذهب ونشف. ومعنى ذلك أن الأرض والسماء امتثلتا لأمر الآمر.

وهذا يدل على عظمة الآمر.

وكانت الاستجابة على الفور ، فلم يقل: فبلعت الأرض ماءها

---

(١) روح المعاني ١٢/٦٦.

(٢) ن. م.

وأمسكت السماء ، فإن كل ذلك يدل عليه قوله : ﴿ وَغِيضَ ٱلْمَآءُ ﴾ .

وقد بنى الفعل للمجهول ولم يذكر الفاعل تعظيمًا للآمر والقائل والمنادي وللإيجاز .

جاء في (روح المعاني) أنه لم يقل : «(قيل يا أرض ابلعي) فبلعت (ويا سماء أقلعي) فأقلعت ؛ لأن مقام الكبرياء وكمال الانقياد يغني عن ذكره الذي ربما أوهم إمكان المخالفة» (١) .

١٠ ـ قال بعد قوله : ﴿ وَغِيضَ ٱلْمَآءُ ﴾ : ﴿ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ أي الأمر الذي أراده ربنا بقوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا ﴾ وهو نجاة من نجا وإهلاك من هلك .

وبنى الفعل للمجهول تعظيمًا لمن قضى الأمر . وهو في كل ذلك آمر واحد وفاعل واحد .

١١ ـ ثم قال : ﴿ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ﴾ ولم يذكر الفاعل لأنه معلوم وهو السفينة .

ولم يبن الفعل للمجهول ؛ وذلك لأن الجريان كان منسوبًا إلى السفينة وذلك قوله : ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾ فناسب أن يكون الاستواء منسوبًا إليها أيضًا .

لقد قال ذلك بعد قوله : ﴿ وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ فإن السفينة لا تستوي حتى يغيض الماء .

وكان استواؤها بعد أن قضي الأمر ، أي بعد أن انتهت المهمة فنجا كل من كان راكبًا فيها وهلك كل من حكم عليه بالهلاك فلم يبق منهم أحد يؤذي مؤمنًا ، وهو أنسب وقت لاستوائها .

إن قوله : ﴿ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ يدل على النجاة والأمان فناسب الاستواء

---

(١) ن . م .

لينزل ركاب السفينة وهم آمنون.

جاء في (روح المعاني): «واختير (استوت) على (سُوِّيت) أي أقرّت مع كونه أنسب بأخواته المبنية للمفعول اعتبارًا لكون الفعل المقابل للاستقرار أعني الجريان منسوبًا إلى السفينة على صيغة المبني للفاعل في قوله: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ﴾ مع أن (استوت) أخص من (سوّيت)»[(١)].

١٢ ـ قال: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ فبنى الفعل للمجهول آخرًا عندما بعدوا وهلكوا كما بناه أولاً عند الأمر بنزول أمره لعذاب الظالمين.

لقد بنى الفعل للمجهول ولم يذكر فاعلاً معيناً وذلك ليشمل كل قائل من الملائكة وكل عبد صالح.

جاء في (البحر المحيط): «والظاهر أن قوله: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا﴾ من قوله الله تعالى كالأفعال السابقة. وقيل: من قول نوح والمؤمنين. ويحتمل أن يكون من قول الملائكة»[(٢)].

وجاء في (الكشاف): «﴿وَقِيلَ بُعْدًا﴾... إذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ونحو ذلك...

ومجيء إخباره على الفعل المبني للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء»[(٣)].

١٣ ـ وقال: ﴿لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ فوصفهم بالظلم لأنه وصفهم بالظلم أولاً فقال: ﴿وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾.

جاء في (فتح القدير): «ووصفهم بالظلم للإشعار بأنه علة الهلاك

---

(١) روح المعاني ١٢/٦٦.
(٢) البحر المحيط ٥/٢٢٩.
(٣) الكشاف ٢/٩٩.



وللإيماء إلى قوله: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾»[1].

١٤ ـ وقال: ﴿لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ولم يقل: (بعدًا لهم) فذكر الوصف الذي استحق به القوم العقوبة. وهو تحذير لكل ظالم.

١٥ ـ وقال: ﴿بُعْدًا﴾ بالمصدر ولم يأت بالفعل للدلالة على الحدث المطلق غير المقيد بزمن أو بفاعل وللدلالة على الثبوت.

جاء في (روح المعاني): «واختير المصدر أعني (بعدًا) على (ليبعد القوم) طلبًا لتأكيد معنى الفعل بالمصدر مع الاختصار في العبارة... مع فائدة أخرى هي الدلالة على استحقاق الهلاك بذكر اللام.

وإطلاق الظلم عن مقيداته في مقام المبالغة يفيد تناول كل نوع فيدخل فيه ظلمهم على أنفسهم لزيادة التنبيه على فظاعة سوء اختيارهم في التكذيب من حيث إن تكذيبهم للرسل ظلم على أنفسهم لأن ضرره يعود إليهم...

وأما من حيث النظر إلى ترتيب الجمل:

فذلك أنه قدم النداء على الأمر...

ثم قدم أمر الأرض على أمر السماء لكونها الأصل نظرًا إلى كون ابتداء الطوفان منها حيث فار تنورها أولاً...

ثم جعل قوله سبحانه: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ تابعًا لأمر الأرض والسماء...

ثم إنه تعالى أتبع غيض الماء ما هو المقصود الأصلي من القصة وهو قوله جلت عظمته: ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ ثم أتبع ذكر المقصود حديث السفينة لتأخره عنه في الوجود»[2].

---

(١) فتح القدير ٢/ ٤٧٧.

(٢) روح المعاني ١٢/ ٦٦ ـ ٦٧.

وجاء في (الإتقان): أن «جمله معطوف بعضها على بعض بواو النسق على الترتيب الذي تقتضيه البلاغة من الابتداء بالأهم الذي هو انحسار الماء عن الأرض المتوقف عليه غاية مطلوب أهل السفينة من الإطلاق من سجنها، ثم انقطاع مادة السماء المتوقف عليه تمام ذلك من دفع أذاه بعد الخروج ومنع اختلاف ما كان بالأرض، ثم الإخبار بذهاب الماء بعد انقطاع المادتين الذي هو متأخر عنه قطعًا، ثم بقضاء الأمر الذي هو هلاك من قدّر هلاكه، ونجاة من سبق نجاته، وأخر عما قبله لأن علم ذلك لأهل السفينة بعد خروجهم منها وخروجهم موقوف على ما تقدم.

ثم أخبر باستواء السفينة واستقرارها المفيد ذهاب الخوف وحصول الأمن من الاضطراب، ثم ختم بالدعاء على الظالمين لإفادة أن الغرق وإن عَمَّ الأرض فلم يشمل إلا من استحق العذاب لظلمه»(١).

ثم إن الآية في غاية الإيجاز فلم يذكر إلا ما لا بد من ذكره. ومن مظاهر الإيجاز فيها:

١ ـ أنه قال: (وقيل) فبنى الفعل للمجهول وحذف الفاعل وذلك للتعظيم كما أسلفنا.

٢ ـ وقال: (يا أرض) ولم يقل: (يا أيتها الأرض). وقوله: (يا أرض) أوجز كما هو معلوم.

٣ ـ وقال: (ابلعي) ولم يقل: (ابتلعي)، وابلعي أوجز.

٤ ـ وقال: (ماءك) ولم يقل: (مياهك).

٥ ـ وقال: (يا سماء) ولم يقل: (يا أيتها السماء).

٦ ـ وقال: (أقلعي) ولم يذكر متعلقًا.

---

(١) الإتقان ٣/ ٣٩٥.



٧ ـ وقال: (وغيض الماء) فبنى الفعل للمجهول ولم يذكر الفاعل.

٨ ـ وقال: (وغيض) الثلاثي، ولم يقل: (غيّض) الرباعي.

جاء في (روح المعاني): «واختير (غيض) على (غيّض) المشدد لكونه أخصر»(١).

٩ ـ وقال: (وقضي الأمر) فبنى الفعل للمجهول ولم يذكر الفاعل.

١٠ ـ وقال: (وقضي الأمر) فعبر عن كل ما حدث بـ (الأمر) وهو النجاة والغرق وما أراده ربنا.

١١ ـ وقال: (واستوت على الجودي) فلم يذكر الفاعل وإنما ستره.

١٢ ـ وقال: (وقيل بعدًا) فبنى الفعل للمجهول ولم يذكر الفاعل.

١٣ ـ وقال: (بعدًا) فذكر المصدر ولم يذكر الفعل الذي يقتضي زمنًا وفاعلاً.

وغير ذلك.

* * *

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٥ ـ ٤٦]

١ ـ قال في آية سابقة: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ [هود: ٤٢] فاستعمل فعل النداء وحده (نادى) ولم يستعمل معه فعل القول، فلم يقل: (ونادى نوح ابنه فقال يا بنيّ).

وقال ههنا: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ فاستعمل فعل

---

(١) روح المعاني ١٢/٦٦.

القول (فقال) إضافة إلى الفعل (نادى) وذلك أن هذا الموقف أهم من الأول ، فإنه بعد غرق ابنه حين أدركته عاطفة الآباء وأدركه الحزن لغرقه .

وقد ذكرنا الفرق بين ذكر ما فيه معنى القول من الأفعال وحده نحو نادى ووصى وسأل ، وما ذكر معه فعل القول نحو (نادى فقال) و(سأل فقال) ونحوها في كتابنا (الجملة العربية تأليفها وأقسامها) وبينا أن ما ذكر فيه القول مع ما فيه معناه آكد وأهم ، فلا نعيد القول فيه[١] .

لقد قال : ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ﴾ والفاء هذه للترتيب الذكري وهي تفيد التفصيل بعد الإجمال ، وذلك أن تذكر المعنى مجملاً أولاً ثم تفصله بعد ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء : ١٥٣] فقد ذكر السؤال مجملاً أولاً ثم فصله بقوله : ﴿فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ ، وقوله : ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف : ٤] فذكر الإهلاك على العموم وفصله فيما بعد .

ونحوه قوله : ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ فإن قوله : ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ تفصيل للنداء[٢] .

فكان الاهتمام في التعبير في الآية من أكثر من جهة :

منها أنه جمع لفظ القول مع ما فيه معنى القول وهو (نادى) (فقال) .

ومنها أنه فصل بعد الإجمال ، والتفصيل بعد الإجمال يفيد المبالغة والاهتمام[٣] .

٢ ـ لقد قال : ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ فذكر لفظ الرب ولم يذكر غيره من

---

(١) انظر كتابنا (الجملة العربية تأليفها وأقسامها) ٢١١ وما بعدها .

(٢) انظر كتابنا (معاني النحو) ٣/ ٢٢٥ (العطف بالفاء) .

(٣) انظر كتابنا (معاني النحو) ٢/ ٧٥٧ ، وانظر حاشية الصبان ٢/ ١٩٥ .

الأسماء الحسنى ، فلم يقل مثلاً : (ونادى الله) أو (نادى الحي القيوم) أو غير ذلك من أسمائه الحسنى ، ذلك أنه لم يستعمل فعل المناداة في القرآن الكريم إلا مع الرب دون بقية أسمائه الحسنى ، سواء كان النداء من العبد لله أو من الله للعبد وذلك نحو قوله : ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ [مريم : ٣] ، وقوله : ﴿ ۞وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ ﴾ [الأنبياء : ٨٣] ، وقوله : ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ ﴾ [الأنبياء : ٨٩].

وكذلك إذا كانت المناداة من الله فإنه يسند الفعل إلى لفظ الرب فقط ، وذلك نحو قوله : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشعراء : ١٠]

وقوله : ﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الأعراف : ٢٢]

وقوله : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [النازعات : ١٥ ـ ١٦].

وهو المناسب فإن الإنسان إذا احتاج شيئًا طلبه من ربه وهو مربيه والقائم على أمره.

ونحو ذلك الدعاء. فإنه لم يرد في القرآن إلا مع لفظ الرب وذلك نحو قوله : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا ﴾ [آل عمران : ١٤٧] ، وقوله : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] ، وقوله : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الشعراء : ٨٣].

ولم يرد الدعاء بغير لفظ الرب إلا في موطن واحد وهو قوله : ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : ٣٢].

وهو الأنسب ، فلا يناسب أن يقال : (ربنا إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء) لأن الرب هو المربي والمعلم

والهادي ، فالمناسب إذا جاء بلفظ الرب أن يقال: (إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه واشرح صدورنا له) فلما كان الدعاء بطلب العذاب لم يصح أن يطلب ذلك من ربهم الذي هو متولي أمرهم والقيم عليهم.

ولم يرد الدعاء بلفظ (اللهم) وحده في غير هذا الموطن.

قد تقول: ولكنه قال: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٤].

فنقول: إنه ذكر الرب مع (اللهم) فقال: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ﴾.

وقد تقول: لقد قال في أصحاب الجنة: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس: ١٠].

فنقول: ليس في هذا القول دعاء شيء ولا طلب حاجة.

٣ ـ قال: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ بحذف حرف النداء وذلك ليصل إلى مقصوده بأقصر سبيل ولئلا يضيع الوقت وابنه غارق تحت الماء ، إذ لعله يجد سبيلاً على إنقاذه في أقصر وقت.

والقرآن يحذف حرف النداء في نداء كلمة (رب) في الأكثر فيقول مثلاً: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ [يوسف: ١٠١] ، ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨].

ولم يذكر حرف النداء في نداء الرب على كثرة ما ورد إلا في موطنين وهما قوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠] ، وقوله: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الزخرف: ٨٨] وذلك أن الرسول ضاق صدره بقومه وكفرهم كما أخبر عنه سبحانه بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧] فمد صوته بنداء ربه لعله يخفف عما يجد في نفسه من الضيق والبرم.

ومدّ الصوت قد يخفف عما في النفس ، والفضفضة في الكلام تخفف ، وحبس الكلام قد يقتل صاحبه فقال: (يا رب) فأطال شيئًا في الكلام لعله يروّح عما يجد في نفسه.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن ذكر حرف النداء هو المناسب للسياق في الموطنين.

ففي آية الفرقان ناسب ذكر (يا) سياق ما ورد من عذاب أهل النار ومدهم الصوت بالندم وذلك قوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٨] فناسب مدهم الصوت بالندم في الآخرة مد صوت الرسول بنداء ربه لما فعلوا به في الدنيا من ضيق وأذى. فالرسول قال في الدنيا: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾.

وهم يقولون في الآخرة: ﴿يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾.

بذكر (يا) في الموطنين.

وكذا السياق في آية الزخرف ، فإنّ مدّ صوت الرسول بالنداء مناسب لمناداة أهل النار مالكاً ليقضي عليهم ربه كما أخبر عنهم سبحانه قائلاً: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وهذا مناسب لإيذائهم رسولهم في الدنيا ، فإنه مد صوته مناديًا ربه قائلاً: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الزخرف: ٨٨].

فقال له ربه: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٩].

فالرسول نادى ربه في الدنيا قائلاً: يا رب إن هؤلاء لا يؤمنون ، وهم في الآخرة ينادون مالكًا قائلين: يا مالك ليقض علينا ربك.

فما أجمل التناسب في التعبير وأجلّه!

٤ ـ وقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾ مشيرًا إلى ما وعده ربه من نجاة أهله ولم يصرح بذلك تأدّبًا مع ربه، فإنه لم يقل: (لقد وعدتني بنجاة أهلي وهذا ابني قد غرق، فكيف ذاك؟)

وقال: ﴿وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾ ولم يقل: (وما وعدتني به الحق) وإنما أخرج وعده مخرج العموم، فكل ما يعد به ربه هو الحق فدخل فيه ما وعده.

جاء في (روح المعاني): «﴿وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي وإن وعد ذلك أو كل وعد تعده حق لا يتطرق إليه خلف، فيدخل فيه الوعد المعهود دخولاً أوليًا»[١].

وقال: ﴿وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾ ولم يقل: (وإن وعدك حق) بل جعل وعده هو الحق حصرًا وهو سيقع حتمًا لا يمكن أن يتخلف أو يتغير.

جاء في (الكشاف): «﴿وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي وإن كل وعد تعده فهو الحق الثابت الذي لا شك في إنجازه والوفاء به، وقد وعدتني أن تنجي أهلي فما بال ولدي؟»[٢].

﴿وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾.

يجوز أن يكون ذلك من الحكم وهو القضاء، ويجوز أن يكون من الحكمة. فيجمع التعبير عدة معان: (أقضى القضاة) و(أحكم القضاة) و(أقضى الحكماء) و(أكثرهم حكمة)[٣] فجمع التعبير عدة معان كلها مرادة.

---

(١) روح المعاني ١٢/٦٨.
(٢) الكشاف ٢/١٠٠.
(٣) انظر كتابنا (التعبير القرآني) ـ تفسير سور التين.



جاء في (الكشاف): «﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أي أعلم الحكام وأعدلهم ؛ لأنه لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم والعدل. . . ويجوز أن يكون من الحكمة على أن يبني من الحكمة حاكم بمعنى النسبة ، كما قيل دارع من الدرع» (١).

* * *

﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]

قال له ربه إنه ليس من أهلك ؛ لأن الكفر يقطع النسب ، وبيّن له علة ذلك قائلاً: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ فأخبر عن ابنه بالمصدر وذلك للمبالغة ، فإنه إذا كان الشخص مكثرًا من الوصف مبالغًا فيه قد يخبر عنه بالمصدر وقد يوصف بالمصدر فيقال مثلاً: هو رجلٌ صوم أو زَوْر ونحوه. ولا يقال ذلك لمن لم يكثر.

والمعنى أن ابنك يا نوح قد تحول إلى كتلة عمل غير صالحة ليس فيها من عنصر الذات شيء.

جاء في (الكشاف): «وجعلت ذاته عملاً غير صالح مبالغة في ذمه كقولها: (فإنما هي إقبال وإدبار)» (٢).

وجاء في (تفسير الرازي): «إن الرجل إذا كثر عمله وإحسانه يقال له: إنه علم وكرم وجود. فكذا ههنا لما كثر إقدام ابن نوح على الأعمال الباطلة حكم عليه بأنه في نفسه عمل باطل» (٣).

---

(١) الكشاف ٢/ ١٠٠.

(٢) الكشاف ٢/ ١٠١.

(٣) تفسير الرازي ٦/ ٣٥٧ ، وانظر تفسير البيضاوي ٢٩٧.

وقال: ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ فحذف ياء المتكلم في الرسم وأشار إليها بالكسرة. وذلك أنه كما أشار إلى الطلب في نجاة ابنه ولم يصرح به أشار ربه بالكسرة إلى ياء المتكلم ولم ترسم خطًّا.

قد تقول: ولكنه قال في سورة الكهف في موسى والرجل الصالح: ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف: ٧٠] فقال: (فلا تسألني) برسم الياء، فما الفرق؟

فنقول أولاً: إن السؤالين مختلفان في المعنى، فالسؤال الذي خوطب به نوح معناه الطلب، أي لا تطلب ولا تلتمس مني ما ليس لك به علم.

وأما السؤال الذي خوطب به موسى فمعناه الاستفهام والاستفسار، أي لا تستفهم ولا تستفسر عن شيء حتى أبينه لك.

ولا شك أن الاستفهام والسؤال يحتاج إلى إيضاح وشرح أكثر مما يحتاجه طلب الحاجة أو طلب شيء من الأشياء.

فطالب الحاجة إما أن يجاب بالإيجاب أو بالرفض.

وأما المستفهم فلا بد أن يبين له الأمر حتى يعيه.

ثم إن السؤال الذي خوطب به نوح إنما هو إشارة إلى طلب معين وهو نجاة ابنه.

وأما الذي خوطب به موسى فإنه غير معين، ومن الراجح أن تتعدد الأسئلة بحسب الحوادث التي سيواجهها.

فلما كان السؤال في قصة نوح لأمر واحد حذف الياء لقلة الأسئلة.

ولما كان السؤال في قصة موسى غير محدد ويحتمل التعدد ذكر الياء

لأنه سيواجه المسؤول أكثر من مرة. فاختصر في السؤال الواحد بحذف الياء واكتفى بالكسرة.

وأعطى اللفظ كله في احتمال التعدد. وقد قيل إن الياء كسرتان فاكتفى بكسرة واحدة في الطلب الواحد.

وجاء بما هو أطول وأكثر في احتمال التعدد.

فناسب كل تعبير موضعه.

* * *

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]

ذكرنا في كتابنا (على طريق التفسير البياني) في تفسير سورة الفلق متى يستعمل القرآن (إني أعوذ) بتوكيد الاستعاذة، ومتى يقول: (أعوذ) من غير توكيد.

ومما ذكرنا هناك هذه الآية فلا نعيد القول[١].

لقد قال: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾ ولم يقل: (إني أعوذ بك من ذلك) لئلا يفهم أن الاستعاذة من ذلك السؤال الذي سأله نوح لربه حصرًا، وإنما قال ما قال ليشمل كل سؤال في المستقبل مما ليس له به علم.

وقال: ﴿أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ﴾ ولم يقل لربه بعدما نهاه (سأفعل) ذلك لأنه أراد أن يلتجئ إلى ربه ويحترز به ليقيه ويحفظه من نحو هذا السؤال. وهذا إعلان لضعفه وعدم الاعتداد بقراره من غير إعانة الله له. وهو غاية الالتجاء إلى الله سبحانه.

---

(١) على طريق التفسير البياني ١/ ٢٦ وما بعدها (تفسير سورة الفلق).

جاء في (روح المعاني): «ولم يقل أعوذ بك منه أو من ذلك مبالغة في التوبة وإظهارًا للرغبة والنشاط فيها وتبركًا بذكر ما لقنه الله تعالى. وهو أبلغ من أن يقول: (أتوب إليك أن أسالك) لما فيه من الدلالة على كون ذلك أمرًا هائلاً محذورًا لا محيص منه إلا بالعوذ بالله تعالى وأن قدرته عليه السلام قاصرة من النجاة من المكاره إلا بذلك»[(١)].

وقد تقول: هل يدل قوله: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أنه وقع في معصية؟

والجواب: لا يدل ذلك على ما ذكرت، فإن طلب المغفرة لا يدل على وقوع صاحبها في المعصية حتمًا بل قد يسأل المسلم المغفرة والتوبة وإن لم يكن قد أذنب. فقد سأل الأنبياء لأنفسهم المغفرة، فقد قال سيدنا إبراهيم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

وقال نوح: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨].

وقال موسى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١]

وغير ذلك وغيره.

وأمر الله رسوله أن يستغفر ولم يصدر منه ذنب فقال: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [غافر: ٥٥].

وقال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد: ١٩].

وقال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٧١ ـ ٧٢.

ﭐللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١ـ٣] وكذلك التوبة فإن المسلم يتوب إلى الله سواء أذنب أم لم يذنب.

وهي من الذنب أولى بل هي مطلوبة. وقد وصف الله المؤمنين بأنهم تائبون فقال: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

وحذر ربنا أزواج النبي إن طلقهن رسوله أن يبدله ربه أزواجاً خيراً منهن ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ [التحريم: ٥].

وقد أمر الله المؤمنين جميعًا بالتوبة فقال: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

وربنا سبحانه يحب التوابين. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وقد أخبر الله أنه تاب على النبي مع أنه لم يأت بذنب، وأخبر أنه تاب على المهاجرين والأنصار فقال: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧].

فاتضح ما قلناه.

وقد ذكرنا في كتابنا (التعبير القرآني) قوله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

وقوله على لسان آدم: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وقوله على لسان بني إسرائيل بعدما عبدوا العجل: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩].

والفرق بين هذه التعبيرات فلا نكرر ما قلناه.

* * *

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨]

إن قوله سبحانه: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا . . .﴾ بعد قول نوح: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ فيه مناسبة لطيفة فإن ربه بشره بالسلامة والأمان والبركات عليه وذلك يدل على مغفرته له ورحمته إياه.

جاء في (البحر المحيط): «﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ والباء للحال: أي مصحوبًا بسلامة وأمن وبركات وهي الخيرات النامية في كل الجهات. ويجوز أن يكون السلام بمعنى التسليم، أي اهبط مسلّمًا عليك مكرماً. . .

وبشر بالسلامة إيذانًا له بمغفرة ربه له ورحمته إياه وبإقامته في الأرض آمنًا من الآفات الدنيوية» [١].

وجاء في (روح المعاني): «ثم ذكر بعد توبته عليه السلام قبولها بقوله عز وجل: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ﴾ إلخ وهو من الحسن بمكان» [٢].

قد تقول: قال هنا: (قِيل) ببناء الفعل للمجهول، وقال فيما قبلها: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ بالبناء للمعلوم فلم ذاك؟

والجواب: أنه في الآية السابقة، أعني قوله: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ إنما هو حكم شرعي، والحكم الشرعي إنما هو لله حصرًا.

ولا يجوز أن يكون ذلك لغيره، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ﴾ [الشورى: ٢١].

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٢٣١.

(٢) روح المعاني ١٢/ ٧٢.

وأما الآية هذه فإنها أمر بالهبوط من السفينة إلى الأرض وهو يصح من كل قائل. وقد قيل: إن القائل ههنا، أي في قوله: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ﴾ هم الملائكة(١).

والظاهر أن القائل هو الله بدليل قوله: ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾، وقوله: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ (٢). ففرق بين القولين كما ذكرنا.

هذا إضافة إلى أنه في الآية الأولى ما يدعو إلى البناء للمعلوم غير ما ذكرت منها:

١ ـ أنه نادى ربه قائلاً: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ فكان من المناسب أن يجيبه ربه لا أن يبني للمجهول.

٢ ـ أن ربه قال: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ فذكر نفسه سبحانه.

٣ ـ وقال: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ فذكر نفسه.

فناسب كل ذلك أن يقول: (قال) لا (قيل).

وقال: ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ فذكر أن السلام منه، في حين قال مخاطبًا أصحاب الجنة: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٦]، وقال: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ [ق: ٣٤] ولم يقل: (منا) وذلك لأنه القائل هناك معلوم من السياق وهو الله.

ففي سياق آية الحجر كان الحوار بين الله سبحانه وإبليس فقال سبحانه: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] ثم يستمر الكلام فيقول: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾

---

(١) انظر البحر المحيط ٥/ ٢٣١، روح المعاني ١٢/ ٧٢.

(٢) انظر البحر المحيط ٥/ ٢٣١.

﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝٤٦ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٥ ـ ٤٧] فلا يحتاج إلى ذكر جهة السلام.

ونحو ذلك في سورة (ق) فإن المتكلم هو الله والكلام مع أهل النار، ثم يلتفت إلى أهل الجنة. فقد قال ربنا لأصحاب النار: ﴿قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ۝٢٨ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٨ ـ ٢٩] ثم يستمر الكلام إلى أن القول: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ۝٣٤ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ [ق: ٣٤ ـ ٣٥] فالقائل معلوم من السياق، بخلاف آية هود التي بني فيها الفعل للمجهول.

ثم إن السلام على أهل الجنة ليس من جهة واحدة، فإن الملائكة تحييهم إضافة إلى تحية رب العزة قائلاً: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: ٥٨] والملائكة يحيونهم قائلين: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤].

حتى إن أصحاب الأعراف يحيونهم كما قال تعالى: ﴿وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ﴾ [الأعراف: ٤٦].

فلما بيّن جهة السلام في آية هود بقوله: (منا) علم القائل وهو الله. ولو لم يقل: (منا) لم يعلم القائل أهو الله أم الملائكة.

وقدم السلام على البركات لأن السلامة والأمان أهم من البركات، وهو مقدم عليها، فإن السلام مقارن للهبوط، والبركات وهي الخيرات متأخرة.

وذكر جهة السلام فقال: ﴿بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾ ولم يقل: (وبركات منا عليك) لأن جهتها معلومة؛ لأن القائل واحد، فالذي قال: ﴿بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾ هو الذي قال: ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾ فالسلام والبركات منه.

﴿عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾.

أي على أمم تنشأ ممن معك في السفينة هي من آمن من الأمم، ولذا نكَّر الأمم، ولم يقل: (وعلى الأمم ممن معك) فتشمل جميع الأمم المتفرعة.

ثم استأنف الكلام على أمم أخرى فقال: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فذكر أنه سيمتعها في الدنيا ثم يمسهم منه عذاب أليم وهو عذاب الآخرة.

والمعنى: أنه ستنشأ أمم من الذين معك في السفينة، منها أمم مؤمنة وهؤلاء هم الذين قال فيهم: ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾، ومنها أمم كافرة وهي التي سيمتعها في الدنيا ثم يمسها العذاب الأليم في الآخرة.

جاء في (البحر المحيط): «والذي ينبغي أن يفهم من الآية أن من معه ينشأ منهم مؤمنون وكافرون.

ونبه على الإيمان بأن المتصفين به من الله عليهم سلام وبركة، وعلى الكفر بأن المتصفين به يمتعون في الدنيا ثم يعذبون في الآخرة» (١).

وجاء في (الكشاف): «والمعنى أن السلام منا والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين ينشأون ممن معك.

وممن معك أمم ممتعون بالدنيا منقلبون إلى النار» (٢).

وجاء في (روح المعاني): «﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ بعض الأمم المتشعبة منهم وهي الأمم الكافرة المتناسلة منهم إلى يوم القيامة» (٣).

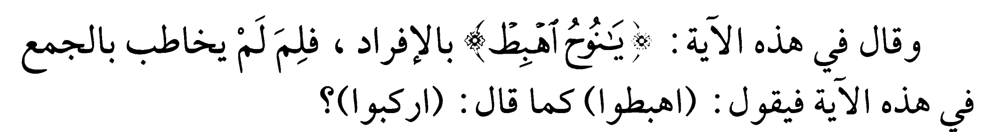
قد تقول: لقد قال في آية سابقة: ﴿۞وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ مخاطبًا بالجمع.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٢٣١.

(٢) الكشاف ٢/ ١٠٢.

(٣) روح المعاني ١٢/ ٧٤.



وقال في هذه الآية: ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ﴾ بالإفراد، فلِمَ لَمْ يخاطب بالجمع في هذه الآية فيقول: (اهبطوا) كما قال: (اركبوا)؟

فنقول: إن المتكلم في الآية السابقة هو نوح مخاطبًا من آمن معه فلا بد أن يقول: (اركبوا) ولا يصح الإفراد.

وأما ههنا فالمتكلم هو الله والمخاطب نوح وهو رسوله، ولا يصح أن ينادي الله المؤمنين في السفينة.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لا يصح الخطاب بالجمع حتى لو قال: (يا نوح اهبطوا) فيخاطب نوحًا ويأمر الجميع بالهبوط كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١]، فنادى النبي وخاطب المؤمنين، وذلك أنه قال: ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ فلو خاطب بالجمع لقال: (وبركات عليكم وعلى أمم ممن معكم) وهو لا يصح، إذ المعنى سيكون (وبركات عليكم وعلى أمم من الذين معكم) وهذا يقتضي أن في السفينة أممًا مع المخاطبين من غير المؤمنين، وأن البركات إنما هي على الأمم التي هي من الذين معهم وليست منهم. وهذا لا يصح قطعًا، وهو ظاهر.

وقد تقول: هل خص السلام نوحًا والبركات عليه وعلى الأمم التي ستأتي، ولم يشمل السلام البركات من معه؟

والجواب: كلا، فإن السلام والبركات شملت نوحًا ومن معه ومن سيأتي ممن معه، وذلك أن (من) يحتمل ـ كما قيل ـ أن تكون بيانية فيكون من معه هم المعنيين، وذلك كما تقول: (عنده أربعة من البنين) و(أكرمت مائة من الرجال) أي من جنس الرجال، وذلك إذا كان الرجال مائة وليسوا أكثر.

وكما تقول: (وعد الله الكفار من المنافقين والمشركين نار جهنم)

فبينت جنس الكفار بـ (من).

كما يحتمل أن تكون (من) ابتدائية فتشملهم وتشمل من بعدهم، كما تقول: (أكرمتهم من كبيرهم إلى صغيرهم) فدخل الصغار مع الكبار.

ونحو ذلك قوله ﷺ: (فمطرنا من الجمعة إلى الجمعة) فدخلت الجمعة الأولى في المطر.

وعلى كلا التقديرين شمل السلام والبركات من معه.

جاء في (الكشاف): «﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ يحتمل أن تكون (من) للبيان فيراد الأمم الذين كانوا معه في السفينة، لأنهم كانوا جماعات... وأن تكون لابتداء الغاية، أي على أمم ناشئة ممن معك وهي الأمم إلى آخر الدهر»[1].

وكون (من) لابتداء الغاية هو الأظهر، أي أن البركات تبدأ ممن معهم إلى من سيأتي بعدهم، وذلك أنه قال: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ وليس مع نوح أمم بل أفراد. قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

جاء في البحر المحيط «والظاهر أن (من) لابتداء الغاية، أي ناشئة من الذين معك، وهم الأمم المؤمنون إلى آخر الدهر»[2].

* * *

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]

لقد تحدى القرآن أهل الكفر قبل هذه الآية في السورة نفسها بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن

(١) الكشاف ٢/ ١٠٢.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٢٣١.

دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٣ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [هود: ١٣ ـ ١٤].

ولم يستجيبوا لهذا التحدي فلم يأتوا بما طلب وانقطعوا فألزمهم الحجة.

وفي هذه الآية دليل وبرهان من نوع آخر ، فإنه بعد أن سرد أحداث قصة نوح مفصلة أعلن على الناس جميعًا أن هذه المعلومات إنما هي من أنباء الغيب أوحاها الله إليه ، وأنه لم يكن يعلمها هو ولا قومه من قبل هذا التنزيل.

ولم ينكر ذلك أحد من قومه ، ولم يدّع أحد أنه كان يعلمها أو أنه أخبر محمدًا بها فألزم الناس جميعهم الحجة.

فمن أعلمه بها إذن إن لم يكن ذلك وحيًا من عند الله؟

لا يمكن أن يقال: إنما علمه بشر ، أو علم ذلك من أي مصدر غير الوحي ، فقد قال: إنها من أنباء الغيب أوحاها الله إليه.

فلو كان قومه أو أحد من قومه يعلمها لرفع صوته وقال: أنا أعلمها ، ولو كان علّمه أحد لقال: أنا علمته ، ورفع صوته بذلك والقرآن يتلى في مكة والمدينة ، والأعداء متربصون وهم كثر.

والآن لننظر في هذه الآية وتأليفها:

١ ـ فقد قال: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ ﴾ ولم يقل: (تلك من الأنباء نوحيها إليك) فتكون نبأ من الأنباء علمه الناس أو جهلوه ، بل ذكر أنها من الغيب الذي لم يكن يعلمه هو ولا قومه.

وهذه حجة ملزمة.

٢ ـ وقال: ﴿ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ ﴾ أي نحن الذين أخبرناك بها ولم تعلمها من طريق آخر.

وهذه حجة وإلزام آخر.

جاء في (روح المعاني): «﴿نُوحِيهَآ﴾ والتعبير بصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية...

والمقصود من ذكر كونها موحاة إلجاء قومه صلى الله تعالى عليه وسلم للتصديق بنبوته عليه الصلاة والسلام وتحذيرهم مما نزل بالمكذبين»[(١)]

٣ ـ وقال: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ﴾ فنفى بـ (ما)، ولم يقل: (لم تكن تعلمها) وذلك أن نفي الماضي بـ (ما) آكد، فإنه نفي لـ (لقد فعل)[(٢)]. وهي تقع في جواب القسم المنفي إذا كان الفعل ماضيًا.

فأفاد ذلك توكيد عدم علمه هو وعدم علم قومه.

٤ ـ وقال: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ﴾ فأكد الفاعل المستتر بـ (أنت) ولم يقل: (ما كنت تعلمها ولا قومك) مع أنه يصح أن يقال ذلك لوجود الفاصل وهو الضمير (ها)، ووجود فاصل آخر وهو (لا) وكل منهما مسوّغ للعطف على الضمير المتصل ظاهرًا أو مستترًا.

وفي القرآن نظير لكل منهما[(٣)]. ولكنه جاء بـ (أنت) توكيدًا لعدم العلم.

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٧٥.

(٢) انظر كتاب سيبويه ١/ ٤٦٠، الإتقان ١/ ١٧٦، معاني النحو ٤/ ٥٦٩.

(٣) قال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ [الرعد: ٢٣] فعطف (من صلح) على الواو في (يدخلونها)، والفاصل الضمير (ها).
وقال: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ فعطف (آباؤنا) على الضمير (نا)، والفاصل (لا). والضمير المستتر من الضمائر المتصلة، وأما المحذوف فقد يكون متصلاً وقد يكون منفصلاً.

٥ ـ وقال: ﴿وَلَا قَوْمُكَ﴾ فجاء بـ (لا) النافية، ولم يقل: (ما كنت تعلمها وقومك)

و(لا) هذه تفيد التوكيد وتفيد القطع بعدم علمه وعلمهم بها لا على سبيل الإفراد ولا على سبيل الاجتماع. فأنت لا تعلمها، وقومك لا يعلمونها.

ولو قال: (ما كنت تعلمها وقومك) لاحتمل أن نفي العلم إنما هو عن المجموع وقد يعلمها أحد الطرفين.

٦ ـ وقال: ﴿مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ فجاء بـ (من) ليدل على أن علمهم بها إنما جاء الآن بعد الإيحاء.

ولم يقل: (قبل هذا) فيحتمل القبلية القريبة والبعيدة.

٧ ـ وقال: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فأمره بالصبر لينال الخاتمة المحمودة في الدنيا والآخرة، وذلك بعد أن ذكر قصة نوح وصبره على قومه لتكون له عبرة ولئلا يضيق صدره بأذى قومه، ومن المحتمل أن يكون قد حصل له ذلك وقد أشار ربه إلى هذا الأمر فيما تقدم من السورة بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ [هود: ١٢]

جاء في (تفسير الرازي): «﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ والمعنى: يا محمد اصبر أنت وقومك على أذى هؤلاء الكفار كما صبر نوح وقومه على أذى أولئك الكفار.

وفيه تنبيه على أن الصبر عاقبته النصر والظفر والفرح والسرور كما كان لنوح عليه السلام ولقومه»[1].

٨ ـ وقال: ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وكان المظنون أن يقال: (فاصبر

---

(١) تفسير الرازي ٦/ ٣٦١

إن العاقبة للصابرين) وذلك أن المتقين يشملون الصابرين وزيادة. فلما ذكر المتقين دخل فيهم الصابرون، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿۞لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فذكر أن الصبر في البأساء والضراء وحين البأس إنما هو وصف واحد من أوصاف المتقين المذكورة في الآية.

فناسب أن يقول: ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فدخل في ذلك الصابرون.

هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى أنه لم يرد مثل هذا التعبير في القرآن مع غير المتقين، فلم يرد مثلاً (إن العاقبة للصابرين) أو (للمؤمنين) أو غيرهم من غير أصحاب هذا الوصف.

وقد ورد نحو هذا التعبير في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم وهي قوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، [القصص: ٨٣]

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وهي آية هود هذه.

وورد تعبير قريب من هذا وهو قوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

٩ ـ وقال: ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ بالتوكيد بـ (إن)، في حين ورد نحو هذا التعبير من غير توكيد في موضعين من القرآن وهما قوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ في سورة الأعراف: ١٢٨، والقصص: ٨٣.

أما آية القصص فهي قوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وهي كما ترى في الدار الآخرة ، والعاقبة الحسنة في الدار الآخرة ليست للمتقين فقط بل لعموم المؤمنين وإن لم يكونوا متقين. فقد تكون لعصاة المسلمين ولمن لم يبلغ درجة المتقين أيضًا. فلم يؤكد أن العاقبة للمتقين. والمقام ليس مقام توكيد كما ترى.

وأما آية الأعراف فهي قوله: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٨ ـ ١٢٩].

وأنت ترى أن القائل هو موسى لقومه بني إسرائيل.

فإذا كان المقصود بالعاقبة وراثة الأرض المذكورة في الآية، أعني قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ فالمقام ليس مقام توكيد فإن موسى لم يعدهم بذلك وعدًا قاطعًا، وإنما قال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه ليس استخلافًا على الدوام، وإنما هو استخلاف زائل. بخلاف أمة محمد الذين وعدوا بالاستخلاف في الأرض وعدًا قاطعًا من الله وهو قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥].

فأكد العاقبة للمسلمين بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ بتوكيدها لنبيهم، ولم يؤكدها موسى لقومه. وهو المناسب.

وإن كان المقصود بالعاقبة الحسنة في الآخرة فإن المتقين من أمة محمد أكثر بكثير من بني إسرائيل، فإن اليهودية دين منسوخ نسخته

النصرانية ونسخهما الإسلام ، والإسلام باق إلى يوم القيامة ، وأتباعه باقون حتى نهاية الدنيا ، فلا شك أن العاقبة سواء كانت في وراثة الأرض أو في الآخرة فهي في اتباع الرسول محمد أكثر وأتم وأوسع ولذا فهي آكد .

فناسب التوكيد في خطاب الرسول دون الموطنين الآخرين .

وقد ذكرنا أمة محمد وبني إسرائيل ؛ لأن آية هود إنما هي في خطاب نبي الإسلام محمد والوعد يشمله ويشمل أمته .

وإن آية الأعراف إنما هي في خطاب بني إسرائيل كما نصت عليه الآية .

ثم هناك أمر آخر حسّن التوكيد في آية هود دون آية الأعراف وهو أن الخطاب في آية هود إنما هو من الله سبحانه لرسوله محمد .

وأن الخطاب في آية الأعراف إنما هو من موسى لبني إسرائيل .

ولا شك أن خطاب الله آكد من خطاب موسى ، فناسب التوكيد في آية هود من جهة أخرى .

* * *

قصة هـــود



كما ذكرنا في قصة نوح فإن قصة هود وردت في القرآن في مواضع متعددة ولكنها ليست متطابقة ، بل قد يذكر في موضع ما لا يذكره في المواضع الأخرى ، وذلك بحسب السياق وبحسب ما يريد التركيز عليه .

لقد وردت هذه القصة في الأعراف وفي سورة هود والشعراء وفصلت والأحقاف والذاريات والقمر والحاقة والفجر .

وهي قد يكون فيها تفصيل في موضع ، وفي موضع آخر يذكر جانبًا من جوانبها بإيجاز .

وإليك إيضاح ذلك :

١ ـ فقد جاء في سورة الأعراف ـ وهي أول سورة وردت فيها هذه القصة ـ أن هودًا دعا قومه إلى عبادة الله وتوحيده : ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٥] .

فتصدى له الملأ الذين كفروا من قومه وسفهوه واتهموه بالكذب ﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ [الأعراف : ٦٦] .

فنفى أن تكون به سفاهة وأكد لهم أنه رسول من رب العالمين وأنه لهم ناصح أمين .

فرفضوا ادعاءه قائلين: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

فاشتد عليهم نبيهم قائلاً: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١].

ويظهر أن قوله: ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ إنما هو جواب لتحديهم ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

فهم قالوا له: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ وهو أجابهم بقوله: ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾.

ثم جاء الأمر الحاسم بنجاته ومن معه وإهلاك المكذبين تصديقًا لما وعدهم به ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢].

٢ ـ وفي سورة هود ذكر أيضًا أنه دعاهم إلى عبادة الله وتوحيده ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠] غير أن ما قاله في هود لا يطابق ما قاله في الأعراف. فإنه قال لهم في الأعراف: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

وقال في هود: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾.

وذلك أنهم قالوا في الأعراف: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠] فقال لهم: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ أي إنهم افتروا على الله. فقال لهم في هود: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ فكأن ما ذكره في هود إنما هو تعقيب على ما قالوه في الأعراف واستكمال له.

ثم إنه قال لهم إنه لا يسألهم على دعوته أجرًا.

ولم يقل مثل ذلك في الأعراف.

ووعدهم بالخير الكثير إن هم أطاعوه، فإن ربه سيرسل السماء عليهم مدرارًا ويزيدهم قوة إلى قوتهم.

ولم يقل مثل ذلك في الأعراف.

فردوا عليه قائلين إنه لم يأتهم ببينة، وإنهم لا يتركون آلهتهم بسبب قوله. غير أنه لم تكن المواجهة بينهما على نحو ما ورد في الأعراف، بل كانت أخف، ذلك أن ما ورد في الأعراف إنما هو قول الملأ الذين كفروا من قومه خاصة.

وأما المواجهة في هود فقد كانت مع عموم القوم، وعموم القوم ليسوا كالملأ الذين كفروا، أي أشراف قومه الكافرين، فهم متفاوتون في الإجابة.

وعلى كل حال فهم أخف من الملأ الذين كفروا، ولذا لم يصفوه بالسفه ولم يصرحوا بكذبه، وإنما قالوا له: ﴿ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ [هود: ٥٣ - ٥٤].

أي أصابك سوء من بعض الآلهة فتقول ما تقول، ولم يصرحوا بأنه أصابه جنون مع أنهم يعنون ذلك، وإنما خففوا في المواجهة فقالوا: (أصابك سوء).

ولذا كان جوابه لهم مناسبًا لما قالوا فيه. فقد قال لهم: ﴿ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ فقد تحداهم وتحدى آلهتهم بأن يكيدوه ولا يمهلوه.

ولم يرد نحو ذلك في الأعراف.

ولما كانت المواجهة في الأعراف أشد وإنهم تحدوه كانت العقوبة أشد، فقد قال فيها: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٢].

ولم يقل مثل ذلك في هود، وإنما قال: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [هود: ٥٨] ولم يذكر أنه قطع دابر الذين كذبوه.

فهم في الأعراف تحدوه، وفي هود هو تحداهم.

فأنت ترى أنه ذكر في كل موطن جانبًا لم يذكره في الآخر.

٣ ـ وفي سورة الشعراء بدأ القصة بقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٢٣].

وهذا ما تبدأ به جملة من القصص في هذه السورة.

فالقصة هنا متناسبة مع القصص في السورة من ناحية، ومن ناحية أخرى كأنها استكمال لما ورد في الأعراف وهود، وذلك بعد تكذيب عاد لرسولهم في الأعراف وهود قال في الشعراء: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

ولم يذكر أنه دعاهم إلى عبادة الله وتوحيده كما فعل في الأعراف وهود، وإنما ذكر ما بعد ذلك فقال: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٢٣ ـ ١٢٧].

وهذه العبارات قالتها عموم الرسل لأقوامهم في هذه السورة، فقد قالها نوح لقومه، وقالها هود وقالها صالح وقالها لوط وقالها شعيب.

ثم بكتهم بما يفعلون قائلاً: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ



مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٣٠]

وذكرهم بالنعم التي أمدهم بها رب العالمين.

ولم يرد مثل ذلك في قصة هود في المواضع الأخرى من القرآن الكريم.

وهذا متناسب مع سائر القصص في السورة.

فرد عليه القوم قائلين: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦ ـ ١٣٨]

فأهلكهم رب العزة وجعلهم آية فقال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٣٩ ـ ١٤٠].

وهذا التعقيب جرى بعد عموم القصص في الشعراء.

فأنت ترى أنه ذكر جوانب من القصة لم يذكرها فيما سبق من القصص.

٤ ـ وأما في سورة فصلت فقد ذكر استكبارهم واعتدادهم بقوتهم واغترارهم بها حتى قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، ثم ذكر عقوبتهم وأنه أرسل عليهم ريحًا صرصرًا أذاقتهم عذاب الخزي في الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى.

وهذا أول موضع يذكر فيه نوع العذاب الذي حل بهم وأنه بالريح.

ولم يذكر دعوة رسولهم لهم ولا موقفًا لهم منه، وإنما لخص قصتهم لأهل مكة ولمن يعتبر. فهي تختلف عن كل ما مر من القصص.

وهذا ما ورد من هذه القصة في فصلت:

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ



رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥ ـ ١٦].

٥ ـ وأما في سورة الأحقاف فإنه ذكر مساكنهم ، وهي أول مرة تذكر فيها المساكن وأنها بالأحقاف فقال: ﴿ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١]. والأحقاف في اليمن.

وقال لهم رسولهم منذرًا ومحذرًا: ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١].

فأجابوه قائلين: ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢].

فإنه لما خوّفهم بعذاب يوم عظيم ، تحدّوه قائلين: ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾.

ثم ذكر كيف أنهم استقبلوا عارض العذاب فظنوه سحابًا ممطرًا وقالوا: ﴿ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ﴾.

ثم ذكر مآلهم وأنه أرسل عليهم ريحًا دمرتهم فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم (الآية ٢٥).

وهذه أول مرة تذكر فيه مساكنهم المدمرة الخالية ، كما أنه أول مرة ذكرت مساكنهم في الجزيرة.

٦ ـ وأما في الذاريات والقمر والحاقة والفجر فلم يذكر دعوة ولا موقفًا من رسولهم ، وإنما ذكر عاقبتهم وهلاكهم.

وهو يذكر في كل موضع ما لم يذكره في الموضع الآخر من التفصيل وكيفية الإهلاك.

وكل منها مناسب لما ورد في موضعه.

وبهذا يتضح أن القصة ليست متماثلة في تفصيل أحداثها.

تذكيرهم بالنعم:

إن التذكير بالنعم في القصة ليس متماثلاً. فقد يذكّرهم في موضع على وجه الإجمال، وفي موضع آخر على وجه التفصيل.

وقد لا يذكر ذلك في مواضع أخرى إذ لا يقتضي السياق ذكره.

١ ـ فقد قال في الأعراف: ﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

فذكّرهم ببصطة أجسامهم وقوتها، وذكّرهم بما أنعم الله عليهم على العموم.

٢ ـ وأما في سورة هود فإنه دعاهم إلى الاستغفار والتوبة ليمدهم ربهم ببركات السماء ويزيدهم قوة إلى قوتهم.

ومعنى ذلك أن الله قد أعطاهم قوة وأنه سيزيدهم قوة إلى قوتهم، فذكر أن لهم قوة على العموم ولم يخصصها.

لقد ذكر في آية الأعراف بصطة الجسم وقوته، وهنا ذكر القوة على العموم، قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

٣ ـ وقد ذكر في الشعراء شيئًا من مظاهر قوتهم وعدّد آلاء الله عليهم، وكيف تصرفوا في هذه النعم فقال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٣٤].

ففصل ما أجمله في الأعراف وهود من آلاء الله عليهم في أجسامهم

وأنهم إذا بطشوا بطشوا جبارين.

وفصل فيما أنعم عليهم من الأنعام والبنين والجنات والعيون.

فكأن ما ورد في الشعراء تفصيل لما أجمله في الموطنين السابقين.

٤ ـ وفي فصلت ذكر استكبارهم في الأرض بغير الحق واعتدادهم بقوتهم واغترارهم بها والاستطالة على خلق الله. قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت: ١٥]

٥ ـ ولم يذكر شيئًا عن ذلك في الأحقاف ولا في الذاريات ولا في القمر ولا في الحاقة.

٦ ـ وكذلك في سورة الفجر، فإنه لم يذكّرهم بالنعم وإنما وصفهم أو وصف بلادهم بأنها ذات العماد ثم ذكر صب العذاب عليهم وعلى الأقوام الكافرة الأخرى.

العاقبة والهلاك:

لم يكرر ذكر عاقبة عاد ولا كيفية هلاكهم، وإنما يذكر في كل موضع جانبًا من جوانب العقوبة.

فقد يذكر العقوبة على وجه العموم في موضع ويفصل في موضع آخر، ولكنه لم يذكرها على نمط واحد، بل يذكر في كل موضع ما يناسب السياق وجو السورة.

١ ـ فقد قال في الأعراف: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٢].

فذكر نجاته والذين معه، وذكر أنه قطع دابر الذين كذبوا، غير أنه لم يذكر نوع العقوبة ولا كيف قطع دابرهم.

٢ ـ وفي هود لم يذكر نوع العقوبة أيضًا وإنما ذكر الأمر بصورة أخرى ، فقد قال إنه نجى هودًا والذين آمنوا من عذاب غليظ .

ولم يذكر نوع هذا العذاب ولا أنه قطع دابر الذين كذبوا ، وإنما قال إنهم أُتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة .

قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٥٩﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ﴾ [هود: ٥٨ ـ ٦٠] .

٣ ـ وأما في الشعراء فقد قال: ﴿ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ ﴾ ولم يذكر كيفية الإهلاك ، كما أنه لم يذكر نجاته ونجاة من معه ، ذلك أنه خوفهم بالعذاب قائلاً: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ فقالوا له : ﴿ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ فأهلكهم .

٤ ـ وأول موطن يرد فيه ذكر نوع العقوبة إنما هو في فصلت ، فقد ذكر أنه أرسل عليهم ريحًا صرصرًا في أيام نحسات ، ولم يذكر عدد الأيام تلك . ولم يذكر ماذا فعلت هذه الريح بهم أو بمساكنهم. قال تعالى : ﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [فصلت: ١٦] ولم يذكر نجاة هود ومن معه، ذلك أنه حذر قريشًا أن تصيبهم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، فذكر عذابهم .

٥ ـ وأما في الأحقاف فزاد في وصف الريح وأنها جاءت على هيئة عارض ، أي سحاب ممطر واستبشروا بها فإذا هي ريح مدمرة تدمر كل شيء فلم يبق منهم إلا مساكنهم .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا

مَسَٰكِنُهُمْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٤ ـ ٢٥].

وهذا هو الموطن الوحيد الذي ذكر فيه محل سكناهم وأنه بالأحقاف، وأن الريح أهلكتهم فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم.

وهذه هي المرة الوحيدة التي ذكرت فيها المساكن وأنها بقيت بعدهم خاوية خالية.

ولم يذكر في موضع آخر محل سكناهم ولا مساكنهم.

وذكر المساكن مناسب لذكر موضع سكناهم وهي الأحقاف.

ولم يذكر نجاته، ذلك أنه خوفهم بالعذاب قائلاً: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ فقالوا غير مبالين: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢] فذكر هلاكهم على نحو ما ورد.

٦ ـ وأما في الذاريات فقد زاد في وصف الريح وعتوها وأنها عقيم لا تأتي بخير وأنها لا تأتي على شيء إلا دمرته دمارًا تامًّا. قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١ ـ ٤٢].

٧ ـ وأما في القمر فقد ذكر عمل الريح في الناس فخصص الوصف.

ففي الأحقاف ذكر الدمار على العموم وذكر المساكن.

وزاد في وصفها في الذاريات.

وأما في القمر فخصص فعلها في الناس فقال: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ﴿٢٠﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٩ ـ ٢١].

وهذا أول موطن يذكر فيه ما فعلته الريح في الناس وأنها تنزعهم كأنهم أعجاز نخل منقعر.

فخصص بعد العموم.

٨ ـ وأما في الحاقة فزاد في وصفها وذكر أنها عاتية وذكر مدتها. وهذا هو الموطن الوحيد الذي ذكرت فيه مدة الريح وأنها سبع ليال وثمانية أيام حسومًا.

ثم ذكر أنه لم يبق من عاد أحد.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦ ـ ٨].

وانتهى المشهد وكانت الخاتمة ههنا، ولم يذكر بعد ذلك شيئاً عن نهاية عاد وعاقبتها، فقد انتهى كل شيء بقوله: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾.

٩ ـ وختم ذكر عاد في سورة الفجر، فقد ذكر في هذه السورة اسم بلدهم على ما قيل ووصفها. وهو ما لم يرد في موطن آخر، فقد ذكر أنها ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾.

ومما قيل في إرم «أنها مدينة عظيمة في اليمن، والوصفان لها والمراد ذات البناء الرفيع أو ذات الأساطين التي لم يخلق مثلها سعة وحسن بيوت وبساتين في بلاد الدنيا»[١].

وقيل: إن إرم هي اسم للقبيلة فهي عاد إرم[٢].

وعلى كلا التفسيرين فقد ذكر في هذه السورة ما لم يذكره في أي موضع آخر من القرآن، سواء كانت إرم اسمًا لمدينتهم أم اسمًا لقبيلتهم.

ومن الملاحظ في هذه القصة أنه ذكر في الأعراف النجاة والإهلاك.

---

(١) روح المعاني ٣٠/ ١٢٣.

(٢) فتح القدير ٥/ ٤٢٣، روح المعاني ٣٠/ ١٢٣.



وفي هود ذكر النجاة ولم يذكر عقوبة غير قوله: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

وفي الشعراء وفصلت والأحقاف والذاريات والقمر والحاقة والفجر ذكر العقوبة والإهلاك ولم يذكر النجاة.

وكل ذلك متناسب مع السياق في كل سورة، ومع جو السورة وما ورد فيها.

ومن الملاحظ أيضًا في قصة عاد أنه لم يذكر أن نبيهم دعا على قومه أو دعا بالنجاة في كل ما ورد من القصة.

كما أنه لم يذكر أهله وكيف كانوا كما مَرَّ في قصة نوح.

فاتضح من ذلك أن القصة لم تتكرر وأنه في كل موطن يذكر ما لا يذكره في موطن آخر.

والآن نعود إلى آيات القصة في سورة هود لنتلمس شيئًا من جوانبها الفنية.

* * *

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠]

ناداهم بقوله: (يا قوم) استعطافًا لهم ليسمعوا قوله وليلينوا له وأضافهم إلى نفسه.

قيل: «وقرأ ابن محيصن (يا قومُ) بضم الميم... وهي لغة في المنادى المضاف حكاها سيبويه وغيره»(١).

والقراءة بكسر الميم ـ وهي قراءة القراء العشرة ـ أولى وأظهر في

(١) البحر المحيط ٥/ ٢٣٢.

الإضافة إلى ياء المتكلم ، ذلك أن قوله : (يا قومُ) بضم الميم ليست نصًّا في الإضافة ، بل هي تحتمل النكرة المقصودة ، كما تقول : (يا رجلُ) أو (يا واقفُ) بخلاف كسر الميم فإنها نص في إضافة القوم إلى نفسه . علاوة على كون القراءة بالكسرة قراءة متواترة قرأ بها العشرة .

﴿ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ جاء بـ (من) الاستغراقية لنفي أن يكون ثمة إله غير الله على سبيل الاستغراق .

وقال ههنا : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ ، وقال في الأعراف : ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٥] وذلك أن القصة في الأعراف كانت أول تبليغ لهم ورد في القرآن دعاهم فيه إلى عبادة الله فلا يناسب أن يقول : (إن أنتم إلا مفترون) .

وأما القصة في هود فكانت بعدما ورد في الأعراف من استمساكهم بآلهتهم وردّهم على نبيهم قائلين : ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ [الأعراف : ٧٠] واشتداد نبيهم عليهم بقوله : ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ ﴾ [الأعراف : ٧١] أي إنهم افتروا على الله باتخاذهم الأوثان شركاء الله[1] .

فناسب أن يقول في هود : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ فكأن هذا التعبير استكمال للمحاورة بينهما والرد عليهم .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن التعبير في هود مناسب أيضًا لما ورد في السورة من الكلام على آلهتهم التي افتروها على الله ، فقد قالوا لنبيهم : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ ﴾ [هود : ٥٣] وقالوا له أيضًا :

---

(١) انظر الكشاف ٢/ ١٠٢ .

﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ [هود: ٥٤].

فكان كل تعبير في مكانه أنسب.

ونفى ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ بـ (إنْ) ولم ينفه بـ (ما) ذلك لأن (إنْ) أقوى من (ما) في النفي وآكد(١). فأكد افتراءهم على الله سبحانه.

* * *

﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [هود: ٥١]

نفى عن نفسه ما قد يظنونه أنه يبغي مطمعًا أو مالاً فقال لهم إنه لا يسألهم أجرًا على ما يبذله من النصح لهم، وذلك أدعى إلى قبول النصيحة؛ لأن ذلك يدل على أنه ناصح لهم حقًّا يبغي لهم الخير. فإنه إذا كان القول مشوبًا بمطمع كان أبعد عن القبول وأدعى إلى التهمة.

جاء في (روح المعاني) في هذه الآية: «خاطب به كل رسول قومه إزاحة لما عسى أن يتوهموه وتمحيضًا للنصيحة، فإنها ما دامت مشوبة بالمطامع بمعزل عن التأثير»(٢).

* * *

﴿ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ ﴾

قال ههنا: (فطرني) أي أوجدني من العدم. وهذا تعريض بآلهتهم التي يعلمون أنها ليست هي التي أوجدتهم بل أوجدهم الله كما أخبر عن المشركين سبحانه بقوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٧].

---

(١) انظر معاني النحو ٤/ ٥٧٦.
(٢) روح المعاني ١٢/ ٨٠.

ومعنى ذلك أن آلهتهم لا تستحق أن تعبد وإنما يستحق العبادة الذي فطرهم وفطر السماوات والأرض.

جاء في (البحر المحيط): «ونبه بقوله: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾ على الرد عليهم في عبادتهم الأصنام، واعتقادهم أنها تفعل.

وكونه تعالى هو الفاطر للموجودات يستحق إفراده بالعبادة»[1].

وجاء في (روح المعاني): «وإيراد الموصول للتفخيم، وجعل الصلة فعل الفَطْر الذي هو الإيجاد والإبداع لكونه أبعد من أن يتوهم نسبته إلى شركائهم»[2].

قد تقول: لقد قال في قصة نوح في هذه السورة: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًاۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [هود: ٢٩].

فقال: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ فذكر اسمه العلم.

وقال ههنا: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾ فذكر الذي فطره. فما السبب؟

فنقول: إنه لم يجر ذكر للآلهة وعبادتها في قصة نوح في هذه السورة فجاء باسمه العلم، بخلاف هذه القصة فإنه جرى ذكر لآلهتهم، فناسب ذكر الذي فطره تعريضًا بآلهتهم ودعوتهم إلى عبادة الله وحده وإبطال عبادة ما يعبدون من دون الله.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

وهذا من ألطف التعقيب، فإنه مناسب لقوله: ﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ﴾ فإن الذي لا يبتغي مصلحة لنفسه ناصح صادق، أفلا تعقلون هذا؟ أليس

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٢٣٢.

(٢) روح المعاني ١٢/ ٨٠.

الذي لا يبتغي مصلحة لنفسه ناصحًا صادقًا؟

وهو مناسب لقوله: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِيٓ﴾ ، وفحواه أفلا تعقلون أنه لا يستحق العبادة غير فاطر السماوات والأرض وفاطر الإنسان؟

ألا تعقلون أن غير الفاطر لا يستحق أن يعبد «أو تجهلون كل شيء فلا تعقلون شيئًا أصلاً ، فإن الأمر مما لا ينبغي أن يخفى على أحد من العقلاء» (١) .

جاء في (البحر المحيط): «و﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ توقيف على استحالة الألوهية لغير الفاطر.

ويحتمل أن يكون ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ راجعًا إلى أنه إذا لم أطلب عرضًا منكم وإنما أريد نفعكم فيجب انقيادكم لما فيه نجاتكم ، كأنه قيل: أفلا تعقلون نصيحة من لا يطلب عليها أجرًا إلا من الله تعالى ، وهو ثواب الآخرة؟

ولا شيء أنفى للتهمة من ذلك» (٢) .

* * *

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢]

مناسبة هذه الآية لما قبلها مناسبة لطيفة ، فإنه نفى إرادة مصلحة نفسه في الآية السابقة ودعاهم إلى مصلحتهم هم في هذه الآية. فقد قال إنه لا يطلب أجرًا لنفسه ولكن إن هم أجابوه آتاهم الله المال والقوة. فإنهم إذا

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٨٠.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٢٣٢.

استغفروا ربهم وتابوا إليه أرسل السماء عليهم مدرارًا وهم أصحاب زروع وثمار وبساتين[١] وزادهم قوة إلى قوتهم ، وماذا يطلب الإنسان لدنياه أكثر من ذلك : المال والزيادة في القوة؟

وقد ذكرنا في أول السورة تقديم الاستغفار على التوبة وسبب ذلك فلا نعيد القول فيه .

وقدّم هنا إرسال الغيث على زيادة القوة لأن ذلك سبب في زيادتها ، فإن زيادة المال من أسباب زيادة القوة .

* * *

﴿ قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ [هود: ٥٣ ـ ٥٥]

بعد أن محض لهم النصح ودعاهم إلى أن يحكّموا عقولهم فيما هم عليه وأن فيما دعاهم إليه مصلحتهم هم لا مصلحته هو ردوا عليه بقولهم : ﴿ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ ومعنى ذلك أنك لم تأتنا بحجة واضحة . ولعلك لو جئت ببينة لآمنّا لك وصدقناك .

وقولهم هذا لا ينفي أن يكون هو صادقًا ، فقد يكون صادقًا غير أنه لم يأت بحجة تبين ذاك .

ثم ذهبوا أبعد من ذلك فقالوا : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ ﴾ مؤكدين موقفهم ، وأنهم لا يتركون آلهتهم لقول قاله .

ثم ذهبوا أبعد من ذلك فقالوا: ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أي لسنا مصدقين لك أصلاً .

---

(١) انظر البحر المحيط ٥/ ٢٣٣ ، الكشاف ٢/ ١٠٢ ، فتح القدير ٢/ ٤٨١ .

فقد نفوا أن يكون صادقًا ، فذهبوا من السيء إلى الأسوأ ، ذلك أنهم قالوا له أولاً: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ فلم ينفوا صدقه ، ثم أمعنوا في السوء حتى قالوا له: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ فنفوا أن يكون صادقًا.

ثم ذهبوا أبعد من ذلك في السوء فقالوا: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ أي أصابك بعض الآلهة بالجنون ، فكأنه لما قال لهم: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أرادوا أن يتهموه بعقله أيضًا وأن يرموه بأبعد مما رماهم به فاتهموه بالجنون ، فلم يدعوا مجالاً للإيمان وآيسوه من ذلك ، فكل حالة أسوأ من التي قبلها.

جاء في (روح المعاني): «لقد سلكوا طريق المخالفة والعناد على سبيل الترقي من السيء إلى الأسوأ حيث أخبروه أولاً عن عدم مجيئه بالبينة مع احتمال كون ما جاء به حجة في نفسه وإن لم تكن واضحة الدلالة على المراد.

وثانيًا: عن ترك الامتثال لقوله عليه السلام بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ مع إمكان تحقق ذلك بتصديقهم له في كلامه.

ثم نفوا عنه تصديقهم له عليه السلام بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ مع كون كلامه عليه السلام مما يقبل التصديق.

ثم نفوا عنه تلك المرتبة أيضًا حيث قالوا ما قالوا» [(١)].

إن هذه الآية كل جزئياتها مؤكدة ، إذ كل تعبير فيها مؤكد بمؤكد أو أكثر.

فقوله: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ تعبير مؤكد ، فإنه قال: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ فنفى الفعل الماضي بـ (ما) ، ولم يقل: (لم تأتنا ببينة) فينفيه بـ (لم).

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٨٢.

والفعل الماضي المنفي بـ (ما) آكد من الفعل المنفي بـ (لم) ، ذلك أن الفعل الماضي المنفي بـ (ما) يقع جوابًا للقسم ، بخلاف المنفي بـ (لم) فهو آكد[١] . فهذا التعبير منفي نفيًا مؤكدًا.

وقوله : ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ تعبير مؤكد ، فإنه قال : ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ ولم يقل : (ولسنا تاركي آلهتنا عن قولك) بالجملة الفعلية . فنفى التعبير بالجملة الاسمية المصدرة بـ (ما) ، والجملة الاسمية آكد من الجملة الفعلية كما هو معلوم .

ثم جاء بالباء الزائدة المؤكدة في الخبر فقال : ﴿بِتَارِكِيٓ﴾ .

و﴿عَن قَوْلِكَ﴾ فيه معنيان :

المعنى الأول : (صادرين عن قولك)

والمعنى الآخر : التعليل أي (لقولك) أي لا نترك آلهتنا لقول قلته على أية حال .

وقوله : ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ تعبير مؤكد ، ذلك أنهم نفوا إيمانهم بالجملة الاسمية المنفية بـ (ما) ، وجاء بالباء الزائدة في الخبر وهي تفيد التوكيد .

وقدم الجار والمجرور على العامل (مؤمنين) وهو ـ أي التقديم ـ يفيد الاختصاص في الغالب ، أي : نحن نخصّك بعدم الإيمان .

ولو قال مثلاً : (ولسنا مؤمنين لك) لم يكن التعبير مؤكدًا .

وقوله : ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ تعبير مؤكد ، فإنه جاء بأسلوب القصر ، فقد نفى بـ (إنْ) وأثبت بـ (إلا) ولم يقل : (نقول اعتراك بعض آلهتنا بسوء) .

---

(١) انظر معاني النحو ٤/ ٥٧٠ .

والتعبير بأسلوب القصر تعبير مؤكد.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه نفى بـ (إنْ) ولم ينف بـ (ما)، و(إنْ) آكد من (ما) في النفي كما أسلفنا.

فكل جزء من الآية تعبير مؤكد ـ كما ترى ـ.

* * *

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٥]

لما قالوا ما قالوا وآيسوه من إيمانهم وقالوا: إن بعض آلهتهم اعتراه بسوء، أعلن البراءة من آلهتهم وأشهد الله وطلب منهم أن يشهدوا على ذلك فقال: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ﴾.

ثم تحداهم وتحدى آلهتهم جميعًا، وليس بعض القوم وليس بعض الآلهة فقط أن يكيدوه ولا يمهلوه. وهو تهاون عظيم بهم وبآلهتهم كلها، فهم وآلهتهم أضعف من أن يفعلوا له شيئًا.

وقوله: ﴿مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ يحتمل معنيين:

أن تكون (ما) اسمًا موصولاً بمعنى (الذي)، أي أنا بريء من الذي تشركون.

أو أن تكون (ما) مصدرية فيكون المعنى: أنا بريء من إشراككم آلهة من دونه[1].

وقد أراد المعنيين جميعًا: البراءة من إشراكهم ومن الذين يشركونهم.

ثم قال لهم:

---

(١) انظر البحر المحيط ٥/ ٢٣٢.

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

فقال لهم: إنه اعتمد على الله وركن إليه فهو يكفيه كل شيء، فهو ربه وربهم، يكفي ويحفظ من توكل عليه وركن إليه، فهو ربكم وأنتم لا تفوتونه، وهذه الأصنام لا تمنعكم منه ولا تقدر أن تكيدني بشيء.

﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ ذليلة له خاضعة لا تفوته ولا تقدر أن تمتنع منه.

والناصية «مقدم الرأس، وتطلق على الشعر النابت عليها» [(١)].

والأخذ بالناصية دليل على القدرة والقهر، جاء في (البحر المحيط): «ثم وصف قدرة الله تعالى وعظيم ملكه من كون كل دابّة في قبضته وملكه وتحت قهره وسلطانه، فأنتم من جملة أولئك المقهورين.

وقوله: ﴿ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ تمثيل، إذ كان القادر المالك يقود المقدور عليه بناصيته، كما يقاد الأسير والفرس بناصيته، حتى صار الأخذ بالناصية عرفًا في القدرة على الحيوان. وكانت العرب تجزّ ناصية الأسير الممنون عليه علامة على أنه قد قدر عليه وقبض على ناصيته.

وقال ابن جريج: وخص الناصية لأن العرب إذا وصفت إنسانًا بالذلة والخضوع قالت: ما ناصية فلان إلا بيد فلان، أي إنه مطيع له يصرفه كيف يشاء» [(٢)].

وقد جاء بـ (من) الاستغراقية ولم يقيد مكانًا أو زمانًا لذاك. فكل دابة من إنسان أو غيره أيًا كان وأينما كان مأخوذ بناصيته من ربه خاضع له

---

(١) روح المعاني١٢/ ٨٣، تفسير الرازي ٦/ ٣٦٥.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٢٣٤.

مقهور لسلطانه ذليل لسطوته.

وهذا تعظيم لرب العزة وتهديد لهم عظيم.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

ومع هذا الاقتدار العظيم فربي على صراط مستقيم لا يجور ولا يظلم، ينصر من توكل عليه واعتصم به. ويذل ويخزي من بغى واعتدى، فهو بالمرصاد لكل ظالم باغ.

وهو يهدي إلى الصراط المستقيم ويدل عليه.

ومن سار على الصراط المستقيم وصل إليه كما قال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩]، وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ [النحل: ٩] فعلى الله بيان السبيل المستقيمة. والسبيل القاصدة توصل إليه.

فهذا التعبير يجمع عدة معان منها:

١ ـ أنه لا يظلم ولا يجور.

٢ ـ وأنه يعاقب الظالم الجائر.

٣ ـ وأنه يدل على الصراط المستقيم.

٤ ـ وأن الصراط المستقيم يوصل إليه.

جاء في (الكشاف): «يريد أنه على طريق الحق والعدل في ملكه، لا يفوته ظالم ولا يضيع عنده معتصم به»[١].

وجاء في (روح المعاني): «وهو تمثيل واستعارة لأنه تعالى مطلع على أمور العباد مجازٍ لهم بالثواب والعقاب، كافٍ لمن اعتصم به كمن

---

(١) الكشاف ٢/ ١٠٣.



وقف على الجادة فحفظها ودفع ضرر السابلة بها ، وهو كقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ » (١) .

وجاء في (تفسير الرازي): «أي وإن كان قادرًا لا يظلمهم ولا يفعل بهم إلا ما هو الحق والعدل والصواب. . .

(الثالث) أن يكون المراد: إن ربي يدل على الصراط المستقيم ، أي يحث أو يحملكم بالدعاء إليه» (٢) .

* * *

﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ [هود: ٥٧]

فإن تتولوا فقد أبلغتكم رسالة ربي وأعذرت وأنتم تتحملون عاقبة توليكم.

وهددهم بإهلاكهم فقال: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ وقد سبق أن ذكّرهم بأنه استخلفهم بعد قوم نوح بعد إغراقهم فقال لهم: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ [الأعراف: ٦٩].

﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾

«أي رقيب محيط بالأشياء علمًا فلا يخفى عليه أعمالكم ولا يغفل عن مؤاخذتكم. . .

ويجوز أن يكون الحفيظ بمعنى الحافظ بمعنى الحاكم المستولي ، أي أنه سبحانه حافظ مستولٍ على كل شيء. ومَن شأنه ذلك كيف يضره شيء؟» (٣) .

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٨٣

(٢) تفسير الرازي ٦/ ٣٦٥.

(٣) روح المعاني ١٢/ ٨٥.

لقد قال ههنا: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ بالتوكيد بـ (إنّ).

وقال في سورة سبأ: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: ٢١] من دون توكيد، ذلك أن المقام في سورة هود يستدعي التوكيد، وذلك أن عادًا قالوا لنبيهم إن بعض آلهتهم اعتراه بسوء، فتحداهم وتحدى آلهتهم بقوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٥ ـ ٥٦].

ثم هددهم بالاستئصال بقوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ فناسب ذلك أن يقول: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ بالتوكيد.

وأما في سبأ فالمقام والسياق مختلفان، فقد قال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: ٢٠ ـ ٢١]

فليس المقام مقام تحدّ ـ كما ترى ـ وإنما هو إخبار عن أمة ماضية ليس لهم شأن مع رسول ولا نحو ذلك فلا يحتاج إلى توكيد.

وقد قدم الجار والمجرور ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ على عامله ﴿حَفِيظٌ﴾ للاختصاص، وذلك ليبين أنه لا يفوت حفظه شيء على الإطلاق. في حين قال في سورة الشورى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الشورى: ٦] فأخر الجار والمجرور (عليهم) عن الخبر (حفيظ) وذلك لأنه لا داعي للتقديم، فإنه ليس المقام مقام اختصاص، فإن حفظه سبحانه لا يختص بهم، بل ربنا على كل شيء حفيظ وليس حفيظًا عليهم فقط.

فناسب كل تعبير موضعه.

* * *

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴾ [هود: ٥٨]

قال ههنا: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ فذكر الذين آمنوا معه.

وقال في الأعراف في القصة نفسها: ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٢]

فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ ﴾ ولم يذكر صفة الإيمان، ذلك أنه قال في الأعراف: ﴿ وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ فذكر أنه أهلك الذين كذّبوا وما كانوا مؤمنين. ومعنى ذلك أنه أنجى الذين آمنوا.

ولم يقل مثل ذلك في هود فناسب ذكر الذين آمنوا.

ومثل ذلك ما جاء في قصة نوح في الأعراف، فإنه قال: ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ ﴾ [الأعراف: ٦٤]

فإنه لما ذكر أنه أغرق الذين كذبوا دلّ على نجاة المصدقين بالآيات وهم المؤمنون.

ثم كرر التنجية فقال: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴾ وقد قيل إن تكرير التنجية للتوكيد[1].

وقيل: إنه أراد أن يذكر التنجية من الهلاك أولاً، ثم ذكر صفة العذاب الذي نجاهم منه. وذلك كما تقول: إنه نجاهم من الهلاك وكانت التنجية من عذاب غليظ.

وكما تقول: إنه نجاهم من الغرق، وقد نجاهم من نهر شديد الانصباب.

---

(١) انظر البحر المحيط ٥/ ٢٣٥.

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: ما معنى تكرير التنجية؟

قلت: ذكر أولاً أنه حين أهلك عدوهم نجاهم، ثم قال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ على معنى: وكانت تلك التنجية من عذاب غليظ. وذلك أن الله عز وجل بعث عليهم السموم فكانت تدخل في أنوفهم وتخرج من أدبارهم فتقطعهم عضوًا عضوًا.

وقيل: أراد بالثانية: التنجية من عذاب الآخرة. ولا عذاب أغلظ منه وأشد» (١).

ويقوي القول بأن المقصود بالتنجية الثانية إنما هي من عذاب الآخرة أن القرآن وصف عذاب الآخرة بأنه عذاب غليظ في عدة آيات، ولم يرد هذا الوصف لعذاب آخر.

قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧] وهو في الكلام على عذاب الآخرة.

وقال: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤].

وقال: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠]

ووصف ملائكة النار بأنهم غلاظ شداد فقال: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وذلك كله مما يقوي أن المقصود بالعذاب الغليظ إنما هو عذاب الآخرة.

ومن لطيف التناظر في التعبير أنه كما كرر التنجية كرر اللعنة عليهم في

---

(١) الكشاف ٢/ ١٠٤.

الدنيا والآخرة فقال: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [هود: ٦٠].

وهو تناظر جميل، فذكر التنجية للمؤمنين مرتين وذكر اللعنة على الكافرين مرتين.

وهو مما يقوي أيضًا أن التنجية الأولى من الهلاك في الدنيا، وأن التنجية الثانية من عذاب الآخرة، وذلك أنه ذكر لعنتين: لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة. والله أعلم.

وقال ههنا: ﴿نَجَّيْنَا هُودًا﴾ بتضعيف عين الفعل، وقال في الأعراف في القصة نفسها: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ [٧٢].

وقد ذكرنا في كتابنا (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) الفرق بين استعمال هاتين المفردتين في القرآن الكريم. فقد ذكرنا أن الملاحظ أن القرآن الكريم كثيرًا ما يستعمل (نجّى) للتلبث والتمهل، ويستعمل (أنجى) للإسراع في النجاة، فإن (أنجى) أسرع من (نجّى) في التخليص من الشدة والكرب[١]. وقد ذكرنا بناء كل من هذين الفعلين ودلالته الصرفية[٢].

فاستعمل في الأعراف (أنجى) واستعمل في هود (نجّى)، ذلك أن القصة في هود كانت كأنها استكمال لما ورد في الأعراف. ومعنى ذلك أن اللبث في هود أطول مما في الأعراف؛ لأن ذلك كان بعد الأعراف فشمل الزمانين فحسّن ذلك استعمال (نجّى) في هود.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن المذكور من القصة في هود يدل على مكث أطول في قومه مما في الأعراف، فكان الجدال بينهما أطول

---

(١) انظر بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ٧٤.

(٢) المصدر السابق ٦٥.

والمحاورة أكثر. فناسب ذلك أيضًا استعمال (نجّى) في هود و(أنجى) في الأعراف.

وقال: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ ليدل على أنه ما كانت النجاة في الدنيا ولا في الآخرة إلا برحمة منه سبحانه وليس ذلك بعملهم فقط، فإن العمل لا ينجي وحده لولا رحمة الله.

* * *

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٥٩ ـ ٦٠]

﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾

«إشارة إلى قبورهم وآثارهم، كأنه قال: سيحوا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا»(١).

﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾

الجحود أن يُقِرَّ المرء بقلبه ولا يقرَّ لسانه، أو هو إنكار ما تعلم من الحق. قال تعالى في قوم فرعون: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وقال في سيدنا محمد: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وعاد كذلك جحدوا بآيات ربهم مع علمهم أنها حق وهو ظلم وعناد.

﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ لقد أطلق معصيتهم، فهم عصوا كل ما أمرتهم به رسلهم.

---

(١) الكشاف ٢/ ١٠٤.

وهذه مرتبة أخرى بعد الجحود ، فالجحود أمر قلبي وقولي ، وهذا أمر سلوكي وعملي ، وهي مخالفة الأوامر على العموم.

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾

وهذا على النقيض من موقفهم من رسلهم ، فهم عصوا الرسل واتّبعوا الجبابرة.

وقال: (اتّبعوا) ولم يقل: (تبعوا) وذلك للمبالغة في اتّباع الجبابرة.

ولم يقل: (واتّبعوا الجبارين) أو الجبابرة ، وإنما أراد استغراق الاتباع لكل جبار ، فلم يقتصر اتباعهم لقسم من الجبابرة.

وخص الجبابرة الذين اتبعوهم بالعناد فقال: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ زيادة في المعصية ومخالفة أوامر الله.

ووصف الجبار بأنه عنيد مناسب للجحد الذي يأبى صاحبه أن يقر بلسانه ما يقر به قلبه عنادًا واستكبارًا.

وهذه مرتبة أخرى بعد المعصية. فالمعصية ألاّ تطبق الأوامر ، فقد تتركها أو تفعل غير ذلك ، وأما عاد فلم يكتفوا بذلك بل اتبعوا أمر كل جبار عنيد.

فالاتباع نقيض المعصية ، والجبابرة المعاندون هم أعداء رسل الله.

إن هذه الآية تبين مقدار عنادهم وعتوهم من أكثر من جهة:

١ ـ فقد قال إنهم جحدوا بآيات ربهم مع علمهم أنها حق.

٢ ـ وقال: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ وهو من أسوأ الجحود ، إذ إنهم جحدوا بآيات ربهم الذي تفضل عليهم بالنعم وأحسن إليهم.

٣ ـ قال: ﴿وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ﴾ أي عصوا رسل ربهم المتفضل عليهم ، وهم عصوهم مع علمهم أنهم رسل الله.

٤ ـ وقال: ﴿وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ﴾ ولم يقل: (وعصوا رسوله) ليدل على أنهم عصوا كل ما جاء عن رسل الله ولم يتبعوا أحدًا منهم. وهذا يدل على المبالغة في المعصية، أو «لأنهم إذا عصوا رسولهم فقد عصوا جميع رسل الله ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥]» [1] وعلى هذا يكون الجمع للدلالة على المبالغة في عصيانهم.

٥ ـ وقال: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ﴾ ولم يقل: (تبعوا) وذلك للمبالغة في اتباع الجبابرة وإطاعة أوامرهم.

٦ ـ وقال: ﴿كُلِّ جَبَّارٍ﴾ ولم يقتصروا على اتباع جبار واحد، بل ولا مجموعة من الجبابرة، بل اتبعوا كل جبار على سبيل العموم والاستغراق.

٧ ـ وقال: ﴿عَنِيدٖ﴾ ولم يقل: (معاند) فجاء بصيغة المبالغة ليدل على المبالغة في عناده. وذلك يدل على زيادة عتوهم وظلمهم.

* * *

﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ﴾ [هود: ٦٠]

اللعنة: هي الطرد من رحمة الله. أي إن اللعنة أُرسلت عليهم فهي تطاردهم وتتبعهم حيثما يكونون في هذه الدنيا ويوم القيامة، فهي تلازمهم لا ترجى لهم رحمة لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وهذه مبالغة في الطرد من رحمة الله، فكما أنهم بالغوا في عنادهم ومعصيتهم وبالغوا في اتباع كل جبار عنيد بولغ لهم في هذا العقاب الأبدي الذي لا ينفك عنهم لا في الدنيا ولا في الآخرة.

---

(١) الكشاف ٢/ ١٠٤.

جاء في (روح المعاني): «﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي إبعادًا عن الرحمة وعن كل خير، أي جعلت اللعنة لازمة لهم. وعبر عن ذلك بالتبعية للمبالغة، فكأنها لا تفارقهم وإن ذهبوا كل مذهب بل تدور معهم حسبما داروا، أو لوقوعه في صحبة أتباعهم. . .

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي وأُتبعوا يوم القيامة لعنة أيضًا وهي عذاب النار المخلد.

حذف ذلك لدلالة الأول عليه وللإيذان بأن كلاً من اللعنين نوع برأسه لم يجتمعا في قرن واحد بأن يقال (وأُتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة لعنة). ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

وعبر بيوم القيامة بدل الآخرة هنا للتهويل الذي يقتضيه المقام»[1].

لقد قال في هذه القصة: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾

وقال في السورة نفسها في قصة فرعون: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [٩٩] فلم يذكر (الدنيا) بعد كلمة (هذه) وذلك لأمور منها:

١ ـ أنه ذكر شيئًا من أمور الدنيا في قصة هود فقال: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾، ثم ذكر أن الله يستخلف قومًا غيرهم، وذلك في الدنيا.

ولم يذكر شيئًا من أحوال الدنيا وأمورها في قصة فرعون، فلم يذكر الدنيا.

٢ ـ أنه ذكر يوم القيامة وعقوبتهم فيه في قصة فرعون ولم يذكر شيئًا عن عقوبتهم في الدنيا فقال: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٨٧.

﴿ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨] ثم قال: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٩].

فكان التأكيد على يوم القيامة وليس على الدنيا.

بخلاف قوم هود فإنه ذكر مجيء أمر الله عليهم في الدنيا وأنه نجى هودًا والذين آمنوا معه فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَـٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨] فناسب ذكر الدنيا.

ألا ترى أنه لما ذكر عقوبة فرعون وجنوده في الدنيا في موطن آخر فقال: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠] ذكر الدنيا بعد كلمة (هذه) فقال: ﴿وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤٢].

فناسب ذكر الدنيا في قصة هود وإضمارها في قصة فرعون في هذه السورة، أعني سورة هود.

٣ ـ هذا إضافة إلى أن قصة هود أطول من قصة فرعون في السورة، فإن قصة هود من الآية الخمسين إلى الآية الستين (من ٥٠ ـ ٦٠).

وإن قصة فرعون من الآية السادسة والتسعين إلى الآية التاسعة والتسعين (من ٩٦ ـ ٩٩].

فناسب ذكر (الدنيا) في قصة هود مناسبة لطول القصة، وعدم ذكرها في قصة فرعون مناسبة للإيجاز

فناسب كل تعبير موضعه من أكثر من جهة.

قد تقول: لقد قال ههنا: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ﴾ ببناء الفعل (أُتبعوا) للمجهول.

وقال في سورة القصص في قصة فرعون: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ [القصص: ٤٢] ببناء الفعل للمعلوم وإسناده إلى ضمير الجماعة للتعظيم (أتبعناهم) فما السبب؟

فنقول: إن ذلك لأكثر من سبب منها:

١ ـ أن كل آية مناسبة لبداية السورة التي وردت فيها.

فقد قال في بداية سورة هود: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ بالبناء للمجهول.

وقال في بداية سورة القصص: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ بإسناد الفعل (نتلو) إلى ضمير المتكلم للتعظيم.

فناسب كل تعبير بداية السورة التي ورد فيها.

٢ ـ أن سياق القصة في سورة القصص إنما هو في الإسناد إلى ضمير التعظيم، فقد قال: فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم (٤٠)، وجعلناهم أئمة (٤١)، وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة (٤٢)، ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس (٤٣) فأسند الإهلاك إلى ضمير التعظيم.

وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر (٤٤) ولكنا أنشأنا قرونًا (٤٥)، وما كنت ثاويًا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين (٤٥)، وما كنت بجانب الطور إذ نادينا (٤٦).

فناسب ذلك إسناد الفعل إلى ضمير المتكلمين (أتبعناهم).

وأما السياق في سورة هود فهو في الكلام على الغائب، فقد قال: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ ولم يقل: جحدوا بآياتنا، ولا عصوا رسلنا.



وقال: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾ ولم يقل: (كفروا بنا) ولا (كفرونا).

فناسب ذلك قوله: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ﴾ بالبناء للمجهول.

٣ ـ إن ضمائر التعظيم لله البارزة والمستترة في القصة في سورة القصص واحد وثلاثون ضميرًا (٣١).

وفي قصة هود أربعة ضمائر.

فناسب ذلك إسناد الفعل في القصص إلى ضمير التعظيم من هذه الجهة.

٤ ـ قصة موسى في القصص أطول من قصة هود في سورة هود. فإن قصة موسى أربع وأربعون آية، من الآية الثالثة إلى الآية السادسة والأربعين.

وأما قصة هود فهي إحدى عشرة آية، من الآية الخمسين إلى الآية الستين.

وإن (أتبعناهم) أطول من (أُتبعوا). فإن (أتبعناهم) ثمانية أحرف، وإن (أتبعوا) خمسة أحرف.

فناسب التعبير الذي هو أطول القصة التي هي أطول، والذي هو أقل القصة التي هي أقصر.

فناسب كل تعبير موضعه من كل جهة.

* * *

﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾

الفعل (كفر) يتعدى بحرف الجر وبنفسه.

فيقال: (كفر بالله) متعديًا بحرف الجر وهو الباء. والكفر هنا نقيض الإيمان.

ويقال: (كفر ربه) بتعديه إلى المفعول بنفسه وذلك يفيد معنيين:

المعنى الأول: كفران النعمة ، وهو نقيض الشكر.

والآخر معناه الجحود وهو نقيض الإيمان.

فهم جحدوا ربهم وجحدوا نعمه. جاء في (روح المعاني) في قوله: ﴿ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ ﴾: «أي بربهم أو كفروا نعمته ولم يشكروها بالإيمان أو جحدوه» [(١)].

* * *

﴿ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾

(قوم هود) عطف بيان لعاد أو بدل منه ، ذكر زيادة في التوضيح والتعيين ، كما قال سبحانه ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٥] فذكر هرون زيادة في التنصيص مع أنه قد يستغني عن ذكره ويكتفي بذكر الأخوّة كما قال سبحانه: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾ [يونس: ٨٧] ولم يذكر هرون.

وقيل إن عادًا «عادان: الأولى القديمة التي هي قوم هود ، والقصة فيهم ، والأخرى هي إرم» [(٢)].

وقيل أيضًا: إن عاد إرم هي عاد هذه ، وهم قوم هود ، وهي عاد الأولى [(٣)].

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٨٧.

(٢) الكشاف ٢/ ١٠٤.

(٣) انظر فتح القدير ٥/ ٤٢٢.

وإنما ذكر (قوم هود) زيادة في المبالغة والتأكيد.

وكرر حرف التنبيه (ألا) مرتين زيادة في ذمهم والتنبيه على سوء مآلهم.

جاء في (البحر المحيط): «ثم كرر التنبيه بقوله: (ألا) في الدعاء عليهم تهويلاً لأمرهم وتفظيعًا له وبعثًا على الاعتبار بهم والحذر من مثل حالهم»[1].

ومن الطريف في هذه الآية أنه كرر اللعنة مرتين ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وذكر الدنيا مرتين: مرة باسم الإشارة (هذه)، ومرة بالاسم الصريح، وكرر عادًا مرتين، وكرر (ألا) مرتين، ودل على عاد مرتين: مرة باسمهم ومرة بذكر أنهم قوم هود.

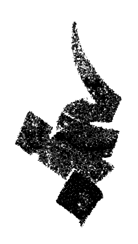
وهو من لطيف التعبير.

* * *

---

(١) البحر المحيط ٥/٢٣٦.

قصة صالح



وردت هذه القصة في الأعراف وهود والحجر والشعراء والنمل وفصلت والذاريات والقمر والفجر والشمس.

وهي كما ذكرنا في قصتي نوح وهود ليست مكررة، بل يُذكر في كل موضع جانب لم يذكر في المواضع الأخرى، وقد يركز على أمور أو على أمر بحسب ما يقتضيه السياق وما يراد أن يركز عليه.

١ ـ فقد دعا صالح قومه ثمود في الأعراف إلى توحيد الله وعبادته فقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وهذا ما ورد في السورة على لسان أكثر الأنبياء، فقد ورد ذلك على لسان نوح وهود وصالح وشعيب.

وذكر لهم آية تدل على صدقه وأنه رسول من عند الله وهي الناقة، وسماها ناقة الله لأنها لا تعود لأحد وإنما هي لله أوجدها ربنا إيجادًا، فقد أخرجها من صخرة ولم تلدها ناقة. وحذرهم من التعرض لها بسوء وإلا أخذهم عذاب أليم.

وذكّرهم بنعم الله عليهم فإنه بوأهم في الأرض بعد عاد يتخذون من سهولها قصورًا وينحتون الجبال بيوتًا.

ولم يذكر ذلك في موضع آخر، وإنما يذكر جانبًا واحدًا من هذه النعم. فقد ذكر أنهم ينحتون من الجبال بيوتًا في سورتي الحجر

والشعراء ، ولم يذكر اتخاذ القصور من السهول .

وكان الجدال بين الملأ الذين استكبروا من قومه وبين المستضعفين من المؤمنين ، ولم يواجهوا صالحًا بكلام أو جدال ، فقد ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٧٥ ـ ٧٦] .

فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ثم تَحدَّوا صالحًا : ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٧] .

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٨] .

٢ ـ وأما في سورة هود فإنه دعاهم أيضًا إلى عبادة الله وتوحيده ، ونحو ذلك فعل نوح وهود وشعيب ، ثم قال لهم إنه أنشأهم من الأرض وجعلهم عُمّارًا لها .

فأجابوه قائلين : ﴿ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ فكان الجدال بينه وبين قومه .

وأما في الأعراف فقد كان الجدال بين المستكبرين من قومه وأتباع صالح .

ثم ذكر لهم الآية التي تدل على صدقه وهي الناقة ، وحذرهم من أن يمسوها بسوء .

فعقروها فأخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين .

٣ ـ وأما في سورة الحجر فإنها المرة الوحيدة التي ذكر عنهم أنهم أصحاب الحجر فذكر محل سكناهم وهو الحِجْر .

والحِجْر: هو موطن ثمود قوم صالح ، وهو أرض بين الحجاز والشام[١].

ولم يذكر أنه دعاهم إلى عبادة الله ، وإنما ذكر تكذيبهم المرسلين ، فكأنها استكمال لما ورد في الأعراف وهود ، فقد دعاهم في الموضعين السابقين إلى توحيد الله وعبادته والتصديق بنبوته وأنه جاءهم بالآية الدالة على صدقه. وقال ههنا عنهم: إنهم كذبوا المرسلين وأعرضوا عن الآيات.

فهي مرحلة بعد التبليغ ، ولم يذكر الآيات ولا نوعها أو ما هي؟

كما لم يذكر اسم نبيهم ولا اسم القوم ، فلم يذكر اسم ثمود ولا صالح ، كما لم يذكر الناقة.

وذكر أنهم كذبوا المرسلين فأخذتهم الصيحة مصبحين.

وهذا ما جاء في شأنهم في سورة الحجر:

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الحجر: ٨٠ ـ ٨٤]

لقد ذكر هنا أنه آتاهم آياته بالجمع ، ولم يقل: (آية) بالإفراد ، وهذا هو الموطن الوحيد الذي ذكرت فيه الآيات مجموعة في هذه القصة.

وأما في المواضع الأخرى فإنه يذكرها (آية) بالمفرد (انظر الأعراف ٧٣ ، هود ٦٤ ، الشعراء ١٥٤) أو يذكر الناقة. وذلك ـ والله أعلم ـ أنه قال: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فذكر مرسلين ولم يذكر رسولاً واحدًا. والمرسلون لهم آيات لا آية ، فناسب أن يقولها بالجمع.

---

(١) انظر البحر المحيط ٥/ ٤٦٣ ، الكشاف ٢/ ١٩٤.

قد تقول: ولكنه قال في الشعراء أيضًا: ﴿ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ لكنه ذكر آية وذكر الناقة.

فنقول: إن السياق مختلف، فإنه في سورة الحجر لم يذكر رسولاً معينًا، وإنما ذكر الرسل على العموم، في حين أن الكلام في الشعراء على صالح، فقد قال: ﴿ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾، فكان المناسب أن يذكر آية صالح لأن الكلام عليه وحده.

قد تقول: لقد قال ههنا: ﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴾.

وقال في سورة طه: ﴿ وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾ [طه: ٥٦] فقال: (كلها).

وكذا جاء في سورة القمر، فقد قال: ﴿ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ ﴾ [القمر: ٤٢].

والكلام على فرعون في الموضعين؛ وذلك لأن آيات موسى كثيرة، وقد ذكر ربنا أنها تسع آيات[١]. بخلاف آيات صالح فإنها آيات متعلقة بالناقة من حيث إنها خرجت من صخرة، وإنها كانت تسقي القبيلة كلها باللبن، وغير ذلك[٢].

فناسب ذكر (كلها) في آيات موسى.

٤ ـ وأما ما في سورة الشعراء فإنه ورد فيها ما ورد في عموم الرسل، فقد قال: ﴿ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾.

وهو ما قاله عموم الرسل لأقوامهم في هذه السورة كما ذكرنا في

---

(١) انظر الإسراء ١٠١، النمل ١٢.

(٢) انظر تفسير الرازي ٧/ ١٥٧.

قصتي نوح وهود. فإنهم لم يأمروهم بتوحيد الله وعبادته، وإنما أمروهم بتقوى الله وإطاعة رسولهم. وهي مرحلة بعد التبليغ بتوحيد الله وعبادته.

فبعد توحيد الله وعبادته أمروهم بتقوى الله وطاعة رسوله.

وذلك ما قاله صالح لقومه أيضًا.

ثم ذكر لهم من النعم ما لم يذكره في المواضع الأخرى، فقد قال: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَا ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٦ ـ ١٤٩] فذكر لهم الأمن والفراهة في السكن ورفاهية العيش في الزروع والثمار والماء.

فقالوا له: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ أي من الذين سحروا كثيرًا حتى غلب على عقله.

وطلبوا منه آية تدل على صدقه، فقال لهم: إن آية صدقه هي الناقة، وإن لها يومًا تشرب فيه الماء، ولهم يوم يشربون فيه الماء.

وهذا أول موضع يذكر فيه أنَّ الماء بين القوم والناقة لكل منهما يوم. وقد ذكر في الأعراف وهود الأكل وقال لهم: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ [الأعراف: ٧٣، هود: ٦٤]

وذكر هنا الشرب.

وذكر الشرب أيضًا في سورة القمر وسورة الشمس ولم يذكر الأكل.

والخط التعبيري في القرآن أنه يقدم الأكل على الشرب حيث اجتمعا، سواء كان ذلك في الدنيا أم في الآخرة، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦٠]

وقوله في الجنة: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]

وقد قدم الأكل في هذه القصة على الشرب مع أنهما لم يجتمعا.

وهذا من لطيف التعبير.

ثم حذرهم من أن يمسوها بسوء وإلا أخذهم عذاب يوم عظيم.

فعقروها فأصبحوا نادمين. ولم يذكر نوع العقوبة التي حلت بهم، وإنما ذكر العذاب على العموم فقال: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ ولم يذكر صيحة أو رجفة أو غيرهما.

٥ ـ وأما في سورة النمل فقد ذكر أنه أرسل إلى ثمود صالحًا وأمرهم بعبادة الله فإذا هم فريقان متخاصمان.

ولم يذكر من هذان الفريقان وما شأنهما؟ ولكن المقام يدل على أنهما فريق مؤمن وفريق كافر.

ولم يطلبوا منه آية، وإنما ذكر تواطؤ تسعة رهط من قومه على قتله وأهله.

ولم يرد هذا في موضع آخر من القرآن الكريم. وهو أنسب موطن لذكر ذلك فإنه كان نهاية الاختصام.

ثم ذكر عاقبة هذا المكر أن الله دمرهم وقومهم أجمعين، ولم يذكر كيف دمرهم ولا نوع العقوبة التي حلت بهم.

٦ ـ وأما في فصلت فالقصة موجزة، فإنه لم يذكر إلا أنه هداهم فاستحبوا العمى على الهدى. ولم يذكر أنه دعاهم إلى شيء.

ثم ذكر أن الصاعقة أخذتهم. وهذا أول موضع يرد فيه ذكر الصاعقة في هذه القصة

وهذا ما ورد منها في هذه السورة:

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ

بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٧ ـ ١٨]

٧ ـ وفي الذاريات ذكر أنه قيل لثمود: تمتعوا حتى حين، فعتوا عن أمر ربهم. ولم يذكر من القائل ولا إلى أي شيء دعاهم، وذكر أنهم عتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون.

وهذا ما ورد منها:

﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾ [الذاريات: ٤٣ ـ ٤٥]

٨ ـ وأما في سورة القمر فإنه قال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ [القمر: ٢٣].

وهذا هو افتتاح عموم القصص في هذه السورة، فإنها تفتتح بتكذيب الأقوام لرسلهم ابتداء من قوم نوح فعاد فثمود فقوم لوط وفرعون كما ذكرنا.

ثم ذكر أنهم قالوا عن نبيهم الذي لم يذكر اسمه إنه كذاب أشر، ولم يرد مثل هذا الوصف له في موضع آخر من القرآن، فتوعدهم ربنا بقوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ [القمر: ٢٦].

ثم ذكر أنه أرسل الناقة فتنة لهم. وقال لهم إن الماء قسمة بينهم كل شرب يحضره أصحابه. فنادوا صاحبهم فعقر الناقة. ثم ذكر أنه أرسل عليهم صيحة واحدة فكانوا كالهشيم الذي يتبقى من صنع الحظيرة التي تصنع للدواب.

ولم يرد مثل هذا في موضع آخر من القرآن.

قال تعالى:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾



إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ [القمر: ٢٣ ـ ٣١]

٩ ـ وأما في سورة الفجر فلم يذكرعن ثمود إلا أنهم جابوا الصخر بالواد، أي قطعوه ونحتوه.

كما أنه أول مرة ذكر الوادي الذي ينحتون فيه، ولم يذكر عقوبة لهم سوى أن جمعهم مع عدة أقوام بقوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: ١٣]

١٠ ـ وأما في سورة الشمس فذكر أن ثمود كذبت بسبب طغيانها، وذكر أن أشقى القوم انبعث، والظاهر أنه انبعث لعقر الناقة، وأن رسولهم حذرهم فقال لهم: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا﴾ [الشمس: ١٣] أي اتركوها ولا تتعرضوا لها. ولم يزد على ذلك فكذبوه فعقروها.

وذكر العذاب بصورة لم يذكرها في بقية المواضع فقال: ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٤] أي أطبق عليهم العذاب مكررًا ذلك عليهم[1].

فأنت ترى أن القصة ليست مكررة، وإنما يذكر في كل موضع ما يناسب السياق الذي وردت فيه. وأنه يذكر في كل موضع منها جانبًا لم يذكر في المواضع الأخرى.

الدعوة:

إن أول ما دعا صالح قومه إلى عبادة الله وتوحيده فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾ ثم ذكر لهم البينة التي جاءتهم وذكرهم بالنعم التي

(١) انظر البحر المحيط ٨/ ٤٨٢.

أنعم الله عليهم بها ، وذلك في الأعراف ٧٣ .

وأما في هود فلم يكتف بذاك وإنما طلب منهم بعد عبادة الله وتوحيده وتذكيرهم بنعمته عليهم بالإيجاد وإعمار الأرض أن يستغفروا ربهم ثم يتوبوا إليه فقال : ﴿ ۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١] .

فهي مرحلة لاحقة بعد التبليغ الأول .

وأما في سورة الحجر فقد ذكر تكذيبهم ، ولم يذكر مواجهة بينه وبين قومه ، وإنما هو إخبار عن هؤلاء القوم .

وأما في الشعراء فإنه طلب منهم أمرًا آخر ، فقد قال لهم : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ وهو ما طلبه الرسل من أقوامهم .

(انظر الشعراء ١١٠ ، ١٢٦ ، ١٣١ ، ١٤٤ ، ١٦٣ ، ١٧٩) ثم ذكرهم بالنعم ، ولم يعد عليهم الأمر بعبادة الله وتوحيده .

وأما في النمل فقد قال : إنه أرسل صالحًا إلى ثمود بعبادة الله فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النمل: ٤٥] .

فاختصم الفريقان في هذا الأمر ، فدعاهم إلى الاستغفار وحضهم على ذلك لعل الله يرحمهم ، فقال لهم : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦] .

وأما في سورة فصلت فإنه لم يذكر دعوة ولا مواجهة ، بل هو إخبار عن غائب .

ونحو ذلك في الذاريات ، فإنه لم يرد فيها إلا تحذيرهم من عاقبة ما هم فيه ، إذ قيل لهم : ﴿ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [الذاريات: ٤٣] .

وفي سورة القمر ذكر تكذيبهم بالنذر ولم يذكر دعوة ولا مواجهة.

ولم يذكر في الفجر سوى أنهم جابوا الصخر بالواد.

وأما في سورة الشمس فقد ذكر تكذيبهم بسبب طغيانهم، ولم يذكر دعوة لهم ولا مواجهة، وإنما طلب أن يتركوا ناقة الله وسقياها.

تذكيرهم بالنعم:

وكذلك التذكير بالنعم لم يكن على نمط واحد:

١ ـ ففي سورة الأعراف بعد أن ذكّرهم بأنه جعلهم خلفاء من بعد عاد وفي هذا تحذير لهم أن يسلكوا سبيلهم ذكّرهم بنعم الله بأن بوّأهم في الأرض، أي مكنهم منها وهيأها لهم يتخذون من سهولها قصورًا وينحتون الجبال بيوتًا. ثم طلب منهم أن يذكروا نعم الله عليهم على العموم فقال لهم: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤].

٢ ـ وأما في هود فقد ذكر أنه أنشأهم من الأرض وجعلهم عمارًا لها ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾.

وهذه النعم المذكورة في هود تختلف عما في الأعراف، فقد توسع في ذكر النعم في الأعراف وأجملها في هود.

٣ ـ وأما في الحجر فقد ذكر أنهم: كانوا ينحتون من الجبال بيوتًا آمنين، فذكر الأمن زيادة على اتخاذ البيوت. وهذه هي المرة الأولى التي يذكر فيها الأمن.

ومن الملاحظ أنه قال هنا: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ بذكر (من)، في حين قال في الأعراف: ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ فلم يذكر

(من) ، وذلك أنه توسع في ذكر النعم في الأعراف ، وذكر ما لم يذكره في الحجر ، فقال: إنه بوأهم في الأرض ، أي مكن لهم فيها وهيأ لهم فيها مكانًا ، وأنهم يتخذون من سهولها قصورًا وينحتون الجبال بيوتًا ، فقال إنهم يتخذون من سهولها قصورًا ولم يقل: (يتخذون في سهولها قصورًا) أي تجعلون من سهولها قصورًا ، وهذا توسع في الإعمار. بخلاف ما لو قال: (تتخذون في سهولها قصورًا) أي تجعلون في السهول قصورًا ، وهذا يمكن أن يقال في بضعة قصور ، بخلاف قولك: (اتخذت من السهول قصورًا) أي جعلت السهول قصورًا. ألا ترى فرقًا بين قولك: (اتخذت في الأرض دارًا) و(اتخذت من الأرض دارًا) فالتعبير الأول قد يفيد أنك بنيت في الأرض دارًا ولا يفيد أنك جعلتها كلها دارًا ، بخلاف قولك: (اتخذت من الأرض دارًا) أي جعلتها داراً كلها.

ثم قال: ﴿ وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾ أي كأن الجبال كلها ينحتونها بيوتًا ، وهذا توسع في العمران ، وهو أوسع من قوله: ﴿ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾ بـ (من) التي قد تفيد التبعيض.

ولذا ذكّرهم بآلاء الله عليهم في الأعراف فقال: ﴿ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ ﴾.

فإنه توسع في ذكر عمارة الأرض في الأعراف ما لم يتوسع في الحجر ، غير أنه زاد الأمن في الحجر.

٤ ـ وأما في الشعراء فقد ذكر نعمًا أخرى عددها عليهم ، فقد ذكر الأمن وذكر الجنات وعيون الماء والزروع والتوسع والفراهة في السكن فقال: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَـٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ ﴾ [الشعراء: ١٤٦ ـ ١٤٩].

فقد ذكر الأمن في المكان ، والسعة في الطعام والشراب ، والفراهة

في السكن ، وهو ما لم يذكر فيما سبق من النعم .

ولم يذكر في السور بعد ذلك نعمًا عددها عليهم سوى أنه قال في الفجر : ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ أي قطعوه ونحتوه .

فأنت ترى أنه لم يكرر ذكر النعم أو يذكرها في موضع واحد .

البينة على صدقه:

ذكر الآية الدالة على صدقه وهي الناقة التي أخرجها الله من الصخرة «وكانوا هم الذين سألوا صالحًا أن يأتيهم بآية ، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عينوها بأنفسهم . . . فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقلة عشراء تمخض ، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمننّ بها وليتبعنّه . فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا الله عز وجل فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وَبْرَاء يتحرك جنينها بين جنبيها كما سألوا . . . فأقامت الناقة وفصيلها بعدما وضعته بين أظهرهم مدة تشرب من بئرها يومًا وتدعه لهم يومًا . وكانوا يشربون لبنها يوم شربها ، يحتلبونها فيملأون ما شاؤوا من أوعيتهم وأوانيهم» [(١)] .

١ ـ فقد ذكرها في الأعراف وسماها بينة وآية فقال : ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف : ٧٣] وطلب منهم أن يتركوها تأكل في أرض الله ولا يمسوها بسوء وإلا أخذهم عذاب أليم .

ولم يسمها بينة في غير هذا الموضع .

وقد أخبرهم عن مجيء هذه الآية ابتداء ولم يذكر أنهم طلبوا منه أن يأتي بآية دالة على صدقه .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٢٨ .

٢ ـ وأما في هود فقد سماها آية ، ولم يذكر أنهم طلبوا منه أن يأتيهم بذاك ، وإنما قال لهم: ﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾ . وطلب منهم أن يتركوها تأكل في أرض الله ولا يمسوها بسوء وإلا أخذهم عذاب قريب.

٣ ـ وأما في الحجر فقد ذكر عن أصحاب الحجر أنهم كذبوا المرسلين. وقال: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ [الحجر: ٨١] فذكر آيات ولم يقل آية. ولم يذكر هذه الآيات مع أنه ذكر في بقية السور أنها آية.

وليس في ذلك تعارض فإن الناقة آية وفيها آيات:

منها أنها خرجت من صخرة من غير أن تلدها أنثى ، وأنها كانت تدر باللبن الذي يسقي القوم كلهم في يوم واحد ، وأنها تشرب ماء البئر كله وهو يسقي القوم وإبلهم ومواشيهم.

٤ ـ وأما في سورة الشعراء فقد ذكر أنهم طلبوا منه أن يأتيهم بآية إن كان من الصادقين (١٥٤).

وهذا هو الموطن الوحيد الذي ذكر فيه أنهم طلبوا منه آية فقال لهم: ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

وطلب منهم أن لا يمسوها بسوء وإلا أخذهم عذاب يوم عظيم (١٥٦).

وهذا أول موضع ذكر فيه الشرب ، وكان قد ذكر في مواضع سابقة الأكل.

كما أن هذا هو الموضع الوحيد الذي أضاف فيه العذاب إلى اليوم ووصفه بالعظم فقال: ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٥٦].

ففي سورة الشعراء ذكر أمورًا لم يذكرها في بقية السور ، أو بدأ

بذكرها قبل ما بعدها من السور.

منها: أنهم طلبوا منه آية. ولم يذكر ذلك في المواضع الأخرى. وأنه ذكر شرب الناقة، في حين أنه ذكر في السور السابقة الأكل.

وأنه أضاف العذاب إلى اليوم ووصفه بالعظم، في حين أنه كان يصف العذاب في المواضع الأخرى فيقول: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣] أو ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤].

٥ ـ ولم يذكر آية أو ناقة في سورة النمل ولا فصلت ولا الذاريات.

٦ ـ ذكر في سورة القمر إرسال الناقة فتنة لهم، ولم يذكر أن تلك آية، ولا أنهم طلبوا منه آية، وإنما كان ذلك من باب التوعد لهم فقال: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ [القمر: ٢٧].

وذكر الشرب ولم يذكر الأكل فقال: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القمر: ٢٨].

٧ ـ لم يذكر شيئًا من ذلك في سورة الفجر.

٨ ـ في سورة الشمس ذكر أن رسول الله طلب منهم أن يتركوا ناقة الله وسقياها، أي شربها.

ولم يذكر أن تلك آية ولا أنهم طلبوا منه آية.

الموقف:

١ ـ كان أشد المواقف المذكورة من الدعوة إنما هو ما ورد في الأعراف، فقد دار جدال عنيف بين المستكبرين من قومه والذين استضعفوا من المؤمنين، فقد ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا

إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥ ـ ٧٦].

ولم يرد حوار أو جدال بين صالح وقومه سوى أنهم تحدوا صالحًا بعدما عقروا الناقة قائلين له: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

٢ ـ وأما في هود فقد كان الحوار بين صالح وقومه، فقد قالوا: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٢ ـ ٦٤].

فعقروها فأمهلهم ثلاثة أيام يقع بعدها العذاب عليهم، فوقع ما توعدهم به.

وهذا الموقف أخف مما في الأعراف، فقد قالوا في الأعراف: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

وههنا قالوا: ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ فذكروا أنهم في شك.

٣ ـ لم يذكر مواجهة بينه وبين قومه في الحجر، إلا أنه أخبر عنهم ربنا أنهم كذبوا المرسلين ولم يذكر مرسلاً بعينه، وقال إنهم أعرضوا عن الآيات.

٤ ـ في الشعراء ذكر حوارًا بين صالح وقومه، وقد عدد عليهم النعم فقالوا له: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ أي من الذين سحروا كثيرًا حتى أثر على عقله.



وقالوا له أيضًا : ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء : ١٥٤] .

ولم يرد مثل هذا الحوار في موطن آخر .

٥ ـ في النمل ذكر أنهم تطيروا به بعد نصح نبيهم لهم قائلاً : ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النمل : ٤٦] .

فقالوا له : ﴿ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ ﴾ .

فردّ عليهم قائلاً : ﴿ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ .

ولم يزد الكلام بينهما على هذا .

ثم ذكر ما حاكوا له من مؤامرة لقتله وأهله .

وهذا إنما كان بعد مدة من التبليغ والأخذ والرد ذكرت في المواطن السابقة التي وردت فيها القصة .

ولا يناسب أن يكون هذا في أوّل الدعوة .

٦ ـ لم يذكر في سورة فصلت شيئًا بين صالح وقومه ، وإنما ذكر شيئًا عن حالهم فقال : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت : ١٧] .

٧ ـ وكذلك في الذاريات فإنه قيل لهم : ﴿ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [الذاريات : ٤٣] .

وذكر أنهم عتوا عن أمر ربهم .

٨ ـ في القمر ذكر أن ثمود كذبوا بالنذر ، ولم يذكر مواجهة بينهم وبين نبيهم ، وإنما قال بعضهم لبعض : ﴿ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ [القمر : ٢٤] .

واتهموه بأنه كذاب أشر ﴿ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ [القمر: ٢٥].

ولم يرد مثل هذه الأقوال في نبيهم في أي موضع آخر. غير أنه لم تذكر هذه الأقوال في مواجهته وإنما ذكرت في غيبته.

وذكر في هذه السورة أنهم نادوا صاحبهم ليعقر الناقة فتعاطى السيف فعقرها، فذكر أن العاقر واحد، غير أنهم لما نادوه ليفعل ذلك كانوا مشتركين في الجريمة فعوقبوا جميعًا.

هذا هو الموطن الوحيد الذي ذكر فيه أنهم نادوا صاحبهم ليعقرها، فقد أسند العقر إلى واحد، في حين أنه في المواطن الأخرى أسند العقر إلى الجميع قائلاً: ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ ﴾ أو ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾.

٩ ـ ولم يرد في سورة الفجر شيء عن موقفهم من رسولهم.

١٠ ـ وأما في سورة الشمس فقد ذكر أنهم كذبوا بطغيانهم، وأنه انبعث أشقاها، وأن نبيهم طلب منهم أن يتركوا الناقة وسقياها، فكذبوه فعقروها.

* * *



الخاتمة

١ ـ ذكر في سورة الأعراف أنهم أصابتهم الرجفة وهي الزلزلة الشديدة فأصبحوا في دارهم جاثمين.

٢ ـ وقال في سورة هود إنهم أصابتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين. وهي صيحة من السماء.

وجَمَعَ الدِّيار في الصيحة وأفردها في الرجفة؛ لأن الصيحة يبلغ مداها أبعد من مدى الرجفة، ولذا حيث ذكر الصيحة جمع فقال: (الديار). وحيث ذكر (الرجفة) أفرد الدار[1].

٣ ـ وذكر في الحجر أنهم أخذتهم الصيحة.

٤ ـ ولم يذكر في الشعراء لا رجفة ولا صيحة وإنما ذكر العذاب وهو مطلق فقال: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [الشعراء: ١٥٨].

٥ ـ وأما في النمل فلم يذكر شيئًا من ذلك وإنما ذكر التدمير على العموم فقال: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥١].

٦ ـ وقال في فصلت إنهم أخذتهم صاعقة العذاب الهون (١٧).

٧ ـ وقال في الذاريات إنهم أخذتهم الصاعقة من دون إضافة إلى

---

(١) انظر التعبير القرآني ٥٧، البرهان للكرماني ١٨٤، ٢٣٩.

العذاب أو إلى غيره (٤٥).

٨ ـ وقال في القمر إنه أرسل عليهم صيحة واحدة فذكر أنها واحدة.

٩ ـ وأما في الفجر فقد جمعهم مع عدة أقوام فقال فيهم جميعاً: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: ١٣].

١٠ ـ وأما في سورة الشمس فلم يذكر شيئًا من ذلك وإنما قال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٤] أي أطبق عليهم العذاب مكررًا، وإنه لم ينج منهم أحد فكانوا في العذاب سواء.

فذكر الرَّجفة مرة واحدة وذلك في سورة الأعراف.

وذكر الصَّيحة ثلاث مرات: مرة في سورة هود، ومرة في الحجر، ومرة في القمر.

وذكر الصَّاعقة مرتين: مرة في فصلت، ومرة في الذاريات.

ولا تناقض في ذلك أو اختلاف، فإن الرجفة في الأرض والصيحة من السماء ومعها الصاعقة.

جاء في (روح المعاني): «الصيحة أي صيحة جبريل أو صيحة من السماء فيها كل صاعقة وصوت مفزع... فأخذتهم الرجفة... ولعلها وقعت عقيب الصيحة» (١).

وأشدهنّ الرجفة لأنها زلزلة وهي تباشرهم أجمعين وتباشر مساكنهم. وذكرها لأنه ذكر استكبارهم ولأنهم عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وتحدوا نبيهم، قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

وتليها الصيحة؛ لأن الصيحة قد لا يسمعها الأصم أو من وضع سدادًا

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٩٢.

في أذنيه ، بخلاف الرجفة التي تعم الجميع .

وذكر الصيحة ههنا لأن موقفهم أخف ، ذلك أنه لم يذكر في هود غير العقر .

ففي الأعراف ذكر العقر والعتو عن أمر ربهم والتحدي ، وليس في هود أو غيرها نحو ذلك .

ولم يذكر في الحجر غير الإعراض عن الآيات .

أما في القمر فلم يذكر غير العقر .

ثم تليها الصاعقة ؛ لأن الصاعقة قد تحل في مكان دون آخر وإن كانت عمتهم أجمعين . وذلك أنه لم يقل في فصلت إلا إنه هداهم فاستحبوا العمى على الهدى . ولم يذكر عقر الناقة .

وفي الذاريات قال : ﴿ فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ [الذاريات : ٤٤] ولم يذكر عقرًا أو غيره .

فذكر في كل موضع جانبًا من العقوبة يناسبه .

النجاة:

١ ـ لم يذكر في الأعراف نجاة وإنما قال : ﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ وهو المناسب لذكر الرجفة التي تعم الجمع .

والسياق يدل على نجاة الذين آمنوا كما هو بيّن .

٢ ـ ذكر في هود أنه نجى صالحًا والذين آمنوا معه .

٣ ـ لم يذكر نجاة في الحجر ولا في الشعراء .

٤ ـ ذكر في النمل وفصلت أنه نجى الذين آمنوا وكانوا يتقون .

ولم يذكر نجاة في غير ذلك من المواضع .

ومن الملاحظ أنه لم يذكر أن رسولهم دعا بطلب النجاة لا له ولا لمن آمن معه. كما أنه لم يدع على قومه.

ولم يرد لأهله ذكر ولا موقفهم من الدعوة، وذلك نظير ما مَرَّ في قصة هود.

* * *

﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [هود: ٦١ ـ ٦٨]

* * *

﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾

﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ ﴾

أي أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحًا، فالآية معطوفة على قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ﴾.

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾

أي جعلكم تعمرونها وتسكنون فيها ، وقدم الإنشاء من الأرض على إعمارها لأنه أسبق ، فإن الإنشاء قبل عمارتهم للأرض.

﴿ فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ هو نظير ما قاله من سبقه لمن سبقهم ، فقد قال ذلك هود لقومه عاد (الآية ٥٢).

وقالها خاتم الرسل لقومه كما سبق ذكر ذلك في الآية الثالثة من السورة.

وسبق أن ذكرنا ثَمّ تقديم الاستغفار على التوبة وسبب ذلك فلا نعيد القول فيه.

﴿ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾

أي قريب يسمع استغفاركم ويجيبكم فيتوب عليكم ويجيب دعاءكم.

وقدم (قريب) على (مجيب) لأن الإجابة تستدعي السماع ، والقريب أدعى إلى السمع من البعيد. فقدم القريب لأنه يسمعك فيجيبك. ونحو هذا قوله: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦] فقدم القرب على الإجابة.

* * *

﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [هود: ٦٢]

﴿ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ﴾

أي «كانت تلوح فيك مخايل الخير وأمارات الرشد ، فكنا نرجوك لننتفع بك وتكون مشاورًا في الأمور ومسترشدًا في التدابير ، فلما نطقت بهذا القول انقطع رجاؤنا عنك وعلمنا أن لا خير فيك.

وعن ابن عباس: فاضلاً خيرًا نقدمك على جميعنا» [(١)].

وقَدَّم الجار والمجرور (فينا) على (مرجوًّا) لأن الكلام يتعلق بهم فقدم ضميرهم في (فينا)، ألا ترى أنهم قالوا: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾؟ فإن الكلام يتعلق بهم فقدم ما يتعلق بهم.

وهذا نظير التقديم في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ كما مَرَّ بيان ذلك في قوله: ﴿وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [هود: ٢٨].

﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾

«الشك هو أن يبقى الإنسان متوقفًا بين النفي والإثبات. والمريب هو الذي يظن به السوء. فقوله: ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ﴾ يعني به أنه لم يترجح في اعتقادهم صحة قوله.

وقوله: ﴿مُرِيبٍ﴾ يعني أنه ترجح في اعتقادهم فساد قوله. وهذا مبالغة في تزييف كلامه» [(٢)].

* * *

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٣]

بعد أن قالوا لنبيهم إنهم في شك مما يدعوهم إليه ناقشهم نبيهم بأمرين: أمر عقلي منطقي، وأمر قائم على الحجة الملزمة.

فأما الأمر العقلي المنطقي فإنه قال لهم: أخبروني لو أن الله كان أرسلني حقًّا ولست مدّعيًا فمن يعصمني من الله وينجيني منه إن عصيته؟

---

(١) الكشاف ٢/ ١٠٥.

(٢) تفسير الرازي ٦/ ٣٦٨.

جاء في (الكشاف): «قدروا أني على بينة من ربي وأني نبي على الحقيقة وانظروا إن تابعتكم وعصيت ربي فمن يمنعني من عذاب الله؟»[١].

وذكرنا في موضع سابق من هذه السورة سبب تقديم الجار والمجرور (منه) على (رحمة)، في حين أَخَّره عن الرحمة في قوله: ﴿ وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةً مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ [هود: ٢٨].

وقد ذكرنا في ذلك الموضع أنه لما كان الكلام على الرحمة قدمها وذلك قوله: ﴿فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾.

ولما كان الكلام على الله في هذه الآية وذلك قوله: ﴿ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥ﴾ قَدَّم الضمير العائد على الله في الجار والمجرور وهو (منه) على الرحمة.

﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ﴾

التخسير مصدر (خسّر) بالتضعيف، وهو يفيد المبالغة والتكثير في الخسار، أي لا تزيدونني إلا مبالغة في الخسران.

لقد دل هذا التعبير على الزيادة في الخسران من أكثر من وجه:

منها قوله: ﴿تَزِيدُونَنِي﴾ أي تضيفون خسارة إلى خسراني.

ومنها: أنه جاء بالمصدر الدال على الكثرة وهو (تخسير).

ومنها: أنه جاء بالنفي مع (غير) ليدل على أنه لا يزيدونه شيئًا غير الزيادة في الخسران. ولو قال بدل هذه العبارة: (كنت خاسرًا) مثلاً لم يفد ذلك إلا أنه سيكون خاسرًا.

---

(١) الكشاف ٢/ ١٠٥.

ومن الملاحظ أنه إذا استعمل القرآن الزيادة في الخسارة استعمل لفظ (الخسار) فقال: ﴿ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال: ﴿ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [فاطر: ٣٩]، وقال: ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [نوح: ٢١].

إلا في هذه الآية فإنه قال: ﴿ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ فجاء باللفظ الدال على المبالغة والكثرة، وذلك أنه إذا كان نبيًا حقًّا وآتاه الله منه رحمة ثم عصاه كانت خسارته أعظم من سائر الكفار الذين لم تأتهم البينة ولم ينزل عليهم وحي، فناسب ذكر التخسير هنا وليس مجرد الخسار، بخلاف سائر المواضع الأخرى، وليس عقاب من علم وعصى كمن جهل. وقد قيل فيما قيل:

وعـــالـمٌ بعلمِـــهِ لـــمْ يعملَـــنْ مُعـــذَّبٌ مـــن قبـل عُبَّـادِ الـوثــنْ

* * *

﴿ وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ [هود: ٦٤]

وهذا هو الأمر الثاني الذي ذكره لهم وهو الأمر القائم على الحجة الملزمة، وهي الآية الدالة على صدقه وهي الناقة التي أخرجها الله من الصخرة كما طلبوا، وقد كانوا تعهدوا لنبيهم أنه إن فعل ذلك آمنوا له وصدقوه.

وسماها ناقة الله لأنها لا تعود لأحد وإنما هي لله كما ذكرنا.

وقَدَّم (لكم) على (آية) للاختصاص، وذلك أن هذه الآية خاصة بهم دون غيرهم أرسلت إليهم هم كما طلبوا. فالآية لهم هم، فهم الذين طلبوها، وهم الذين شاهدوها وتعاملوا معهم.

وطلب منهم أن يتركوا ناقة الله تأكل في أرض الله لا في أرضهم ولا من زرعهم ، فالناقة ناقة الله والأرض أرضه.

وهذا غاية الإنصاف والعدل ، فلماذا يَمَسُّونها بسوء إلا إذا كانوا معتدين عليها ظالمين لها؟

﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ ﴾

«نهى عن المَسِّ الذي هو مقدمة الإصابة بالشر الشامل لأنواع الأذى مبالغة في الزجر فهو كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ ﴾ . . . أي لا تتعرضوا لها بشيء مما يسوؤها أصلاً كالطرد والعقر وغير ذلك»[١].

ونكّر السوء ليشمل أي سوء مهما كان ضئيلاً.

﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾

وصف العذاب ههنا بأنه قريب ، وقال في الأعراف: ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فوصفه بأنه أليم ، ذلك أنه قال لهم ههنا: ﴿ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ﴾ وهذا وعد قريب ، فناسب ذكر القرب.

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أنه في الأعراف كان أول التبليغ لقومه ، فهو أول موضع ترد فيه هذه القصة في القرآن الكريم فلا يناسب ذكر التعجيل بالعقوبة.

في حين كان الكلام في هود بعد ذلك وقد بلّغهم ونصح لهم فناسب ذكر قرب العذاب في هود.

* * *

(١) روح المعاني ٨/ ١٦٣.



﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود: ٦٥]

أي فذبحوها ، والعقر قطع عضو ، ويستعمل في النحر أيضًا .

وقال: (فعقروها) ولم يقل: (فنحروها) لئلا يظن أنهم استحقوا العذاب بسبب نحرها وأنهم لو لم ينحروها لم يعذبهم ، وإنما استحقوا العذاب بعقرها وإن لم يذبحوها ، ذلك أنه حذرهم فقال لهم: ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ فيأخذهم العذاب. فأي مَسٍّ بالسوء مهما كان فهو مدعاة إلى العقوبة .

وقال: (فعقروها) فأسند العقر إليهم كلهم وإن كان العاقر واحدًا كما أخبر ربنا بقوله: ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾ [القمر: ٢٩] وذلك لأنهم تمالؤا على ذلك بدلالة قوله: ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ ﴾ فأسند العقر إليهم فاستحقوا العذاب أجمعون .

﴿ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ .

أي غير مكذوب فيه ، أو (وعد غير كذب) لأن المكذوب قد يكون مصدرًا بمعنى الكذب .

* * *

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ [هود: ٦٦]

قال ههنا: ﴿ نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾ .

فذكر أنه نجاهم برحمة منه ولم يقل مثل ذلك في موضعين آخرين ، فقد قال في سورة النمل: ﴿ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [النمل: ٥٣] ، وقال في فصلت: ﴿ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [فصلت: ١٨] ولم يقل: (برحمة منا) .

وذلك ـ والله أعلم ـ أنه ذكر صفتين في سورتي النمل وفصلت وهما: الإيمان والتقوى فقد قال فيهما: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾.

ولم يذكر في سورة هود غير صفة واحدة وهي الإيمان، فاتسعت رحمته لتشمل من كان مؤمنًا وإن لم يكن متقيًا، فناسب ذكر الرحمة في هذا الموضع، وإن كانت النجاة برحمته سبحانه وليست بشيء آخر.

﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾

أي نجيناهم من العذاب ومن الخزي، فقد عطف قوله: ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ على (نجينا)، والتقدير: «ونجيناهم من خزي يومئذ» [١].

فدل ذلك أنه أصاب الذين ظلموا العذاب والخزي، ونجى الله الذين آمنوا منهما.

وقد ذكرنا الفرق بين (نجينا) و(أنجينا) في كتابنا (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) [٢] فلا نكرر القول فيه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾.

«ناسب مجيء الأمر وصفه تعالى بالقوي العزيز، فإنهما من صفات الغلبة والقهر والانتقام» [٣].

وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ بإضافة الرب إلى ضمير المخاطب وهو رسول الله محمد ﷺ تحذيرًا لقريش من مغبة موقفهم من رسول الله، فإن ربك يفعل بهم ما فعل بالأقوام البائدة الذين أهلكهم الله كما قال محذرًا لهم: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣].

---

(١) الكشاف ٢/ ١٠٥.

(٢) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ص ٧٦ وما بعدها.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٢٤٠.

وعرّف الخبر وجاء بضمير الفصل فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ ولم يقل: (إن ربك قوي عزيز) ليدل على أنه لا قوي غيره على الحقيقة، ولا عزيز غيره على الحقيقة، بل هو وحده القوي العزيز.

قد تقول: لقد قال ههنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾

وقال في الشورى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩].

فأكد في آية هود قوته وعزته بـ (إنَّ) ولم يؤكد ذلك في الشورى. فلم ذاك؟

والجواب: أنه أكد في آية هود لأن المقام مقام عقوبة وإنجاء صالح ومن آمن معه وذلك يستدعي تأكيد القوة والعزة.

وأما السياق في الشورى فإنه في لطفه بعباده فلا يستدعي ذلك تأكيدهما.

وقَدَّم القوي على العزيز لأنه قوي فعز، فإن العزة إنما تكون من القوة، ولذلك حيث اجتمع هذان الوصفان في القرآن الكريم قَدَّم القوي على العزيز، وذلك نحو قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠، ٧٤]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥، المجادلة: ٢١].

* * *

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٧ ـ ٦٨]

ذكرنا في كتابنا (أسئلة بيانية) قوله: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ وقوله: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٩٤] بالتذكير والتأنيث فلا نعيد القول فيهما.

وذكرنا في القصة إفراد الديار مع الرجفة وجمعها مع الصيحة.

﴿ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآ ﴾.

أي كأنهم لم يكونوا فيها ولم يقيموا فيها مستغنين بها عن غيرها.

جاء في (المفردات في غريب القرآن) للراغب الأصفهاني: «غني في مكان كذا إذا طال مقامه فيه مستغنيًا به عن غيره بغنى، قال: ﴿ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآ ﴾»[1].

أما بقية التعبير فقد ورد نحوه في قصة هود.

* * *

---

(١) المفردات للراغب الأصفهاني (غني).



قصة إبراهيم

من سورة هود

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ [هود: ٦٩ ـ ٧٦]

* * *

من سورة الحجر

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ [الحجر: ٥١ ـ ٥٨]

* * *



من سورة الذاريات

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾
[الذاريات : ٢٤ ـ ٣٢]

* * *

من سورة العنكبوت

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٣١ ـ ٣٢]

* * *

ورد هذا الجانب من قصة إبراهيم في ثلاث سور هُنَّ هود والحجر والذاريات ، كما وردت لها إشارة يسيرة في سورة العنكبوت في أثناء قصة لوط .

وهي في كل ما ورد منها مدخل إلى قصة لوط .

ولوط آمن لإبراهيم وهاجر إلى ربه كما قال تعالى : ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [العنكبوت : ٢٦] .

وهو ابن أخيه ، فلا غرو أن يذكر جانبًا من قصة إبراهيم مدخلاً إلى قصة لوط .



وما يذكر من هذه القصة فيه تبسط في بعض المواضع ، وفي بعضها إيجاز ، وذكر جانب منها وطيّ جانب آخر بحسب السياق الذي ترد فيه .

وقد ذكرنا في كتابنا (لمسات بيانية) هذا الجانب من القصة من سورتي الحجر والذاريات ، وبيان شيء من اللمسات البيانية فيهما فلا نكرر القول في ذلك .

لقد ذكر في هذا الموضع من القصة أمورًا لم تذكر في مواضع أخرى ، وهو نحو ما ذكرنا في القصص السابقة ، فإنه لم يكرر القصة وإنما يذكر في كل موضع جانبًا لم يذكر في موضع آخر .

١ ـ فقد ذكر ههنا وفي العنكبوت أنه جاءته رسل ربه . فقد قال ههنا : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾ ، وفي العنكبوت : ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾ [العنكبوت : ٣١] .

وأما في سورتي الحجر والذاريات فقد ذكر أنهم ضيفه . فقد قال في الحجر : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الحجر : ٥١] ، وقال في الذاريات : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ [الذاريات : ٢٤] .

٢ ـ ذكر تحيتهم ورد التحية عليهم في هود والذاريات .

وذكر في الحجر تحيتهم ولم يذكر رد التحية عليهم .

وأما في العنكبوت فلم يذكر تحية ولا رد تحية ، وإنما هو دخول مباشر إلى قصة لوط بعد المجيء بالبشرى .

٣ ـ ذكر تقديم الطعام لضيفه في هود والذاريات ، ولم يذكر ذلك في الحجر .

٤ ـ ذكر في الذاريات أنه دعاهم إلى الأكل قائلاً : ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ ، ولم يذكر ذلك في هود ، غير أنه لما رآهم لا يمدون أيديهم إلى الطعام

نكرهم وأحس منهم خيفة .

٥ ـ ذكر في هود أن امرأته كانت قائمة وأنها ضحكت بعد ذكر الرسل أنهم أرسلوا إلى قوم لوط .

ولم يذكر ذلك في أي موضع آخر .

٦ ـ ذكر في هود أنهم بشروها بالولد ، في حين أن البشارة كانت لإبراهيم في الحجر والذاريات .

٧ ـ في هود بشروها بولد وبولد الولد ، في حين كانت البشرى في الحجر والذاريات بالولد ولم يذكر ولد الولد .

٨ ـ ذكرت البشارة اسمي الولد وولد الولد في هود ، ولم يذكر ذلك في الحجر ولا في الذاريات ، وإنما ذكر البشرى بغلام عليم . ففي هود ذكر اسم العلم ، وفي الحجر والذاريات ذكر صفته .

٩ ـ ذكر في هود عجب امرأة سيدنا إبراهيم ومحاورتها للملائكة وأنها تبسطت في ذكر العجب .

ولم يذكر في الحجر ذلك . وأما في الذاريات فلم تزد على أن صكّت وجها وقالت : ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ .

١٠ ـ ذكر في الحجر محاورة إبراهيم للملائكة في هذه البشرى وكيف أنهم بشروه بعد أن مسه الكبر .

ولم يرد ذلك في موضع آخر .

ففي هود والذاريات كان الكلام فيما يتعلق بالبشرى بين زوجه والملائكة ، وفي الحجر كان الكلام بينه وبين الملائكة .

١١ ـ ذكر تبسط الملائكة في الكلام مع زوج إبراهيم في هود فيما يتعلق بعجبها .

ولم يرد مثل ذلك في الذاريات ، وإنما قالوا لها : ﴿ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

١٢ ـ سألهم إبراهيم عن الغرض من مجيئهم في الحجر والذاريات قائلاً : ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [الحجر : ٥٧ ، الذاريات : ٣١] . فبينوا له سبب ذلك .

في حين ذكروا ذلك ابتداء في هود من غير أن يسألهم ، وكذلك في العنكبوت .

فالقصة كما ترى ليست متطابقة .

* * *



جانب من التفسير البياني

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩]

لقد غير الأسلوب الذي اتبعه في قصص الأنبياء الآخرين في هذه السورة كقصة نوح وهود وصالح وغيرهم ، فقد قال في ابتداء تلك القصص : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ﴾ ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾ ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ .

في حين قال ههنا : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾ .

ذلك أن الغرض والهدف مختلف عن تلك القصص ، فإن قصص بقية الرسل إنما هي في إرسالهم إلى أقوامهم وتبليغهم دعوة ربهم وإنذارهم وذكر عاقبتهم ، وليس الأمر كذلك في قصة إبراهيم هذه ، وإنما الغرض إنما هو ذكر المجيء بالبشرى وأن تكون القصة مدخلاً إلى قصة لوط. فهي محطة في الطريق إلى قوم لوط.

جاء في (روح المعاني): «﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ : وإنما أسند إليهم المجيء دون الإرسال لأنهم لم يكونوا مرسلين إليه عليه السلام بل إلى قوم لوط لقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ وإنما جاؤوه لداعية البشرى.

قيل: ولما كان المقصود في السورة الكريمة ذكر صنيع الأمم السالفة

مع الرسل المرسلة إليهم ، ولحوق العذاب بهم ، ولم يكن جميع قوم إبراهيم عليه السلام من لحق بهم العذاب ، بل إنما لحق بقوم لوط منهم خاصة غير الأسلوب المطرد فيما سبق من قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ﴾ ثم رجع إليه حيث قيل: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾»[١].

وجاء في (البحر المحيط): «تقدم أن ترتيب قصص هذه السورة كترتيب قصص الأعراف ، وإنما أدرج شيئًا من أخبار إبراهيم عليه السلام بين قصة صالح ولوط لأن له مدخلاً في قصة لوط ، وكان إبراهيم ابن خالة لوط ، والرسل هنا الملائكة بشرت إبراهيم بثلاث بشرائر: بالولد وبالخلة وبإنجاء لوط ومن آمن معه»[٢].

وقوله: (بالبشرى) قيل: هي البشرى بالولد[٣] ، وقيل: بأمور أخرى منها ما ذكره صاحب البحر المحيط.

﴿ قَالُواْ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ ﴾ ذكرنا هذا التعبير في أكثر من موضع ، وقد قلنا: إن تحية الملائكة كانت بالجملة الفعلية ، أي نسلم سلامًا ، بدليل نصب السلام ، وإن تحية إبراهيم بالجملة الاسمية بدليل رفع السلام ، أي سلامٌ عليكم. والجملة الاسمية أقوى وأثبت من الفعلية ، فهو رد التحية بخير منها.

﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾

﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ ﴾ أي فما أبطأ في المجيء أو عن المجيء ، والفاعل ضمير مستتر يعود على إبراهيم ، والمصدر المؤول منصوب بنزع

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٩٣.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٢٤١.

(٣) انظر الكشاف ٢/ ١٠٥.

الخافض وهو على تقدير (في) أو (عن).

ويحتمل أن يكون المصدر المؤول فاعلاً، أي فما تأخر مجيئه[١].

جاء في (الكشاف): «﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ﴾ فما لبث في المجيء به، بل عجل فيه، أو فما لبث مجيئه»[٢].

ولم يذكر حرف الجر، فلم يقل: (فما لبث في أن جاء) أو (عن أن جاء) وذلك ليتسع المعنى ويشمل أكثر من دلالة.

فالتعبير يحتمل عدة معان كلها مرادة والله أعلم. فهو يحتمل أن يكون المعنى: فما لبث مجيئه، أي ما أبطأ مجيئه.

ويحتمل أن يكون ما أبطأ إبراهيم في المجيء، ولا أبطأ عن المجيء.

﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ العجل: ولد البقرة.

والحنيذ: السمين المشوي الذي يقطر دسمه.

والحنيذ هو المشوي بالرضف وهي الحجارة في أخدود[٣].

جاء في (البحر المحيط): «حنذت الشاة أحنذها حنذًا: شويتها، وجعلت فوقها حجارة لتنضجها فهي حنيذ»[٤].

وجاء في (لسان العرب): «الحنيذ من الشواء الحار الذي يقطر ماؤه وقد شوي»[٥].

---

(١) انظر روح المعاني ١٢/ ٩٤.
(٢) الكشاف ٢/ ١٠٦.
(٣) انظر الكشاف ٢/ ١٠٦، روح المعاني ١٢/ ٩٤.
(٤) البحر المحيط ٥/ ٢٣٦.
(٥) لسان العرب (حنذ).

والمعنى أنه جاء بعجل مشوي حار سمين يقطر ودكه.
ففي الحنيذ ثلاث صفات:
١ ـ أنه سمين.
٢ ـ ومشوي.
٣ ـ وحار يسيل دسمه ويقطر ماؤه، وهذا غاية الإكرام، فإنه عجل في تقديم أحسن الطعام لضيفه.

* * *

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠]

أي فلما رآهم لا يمدون أيديهم إلى الطعام، أي لا يأكلون نكرهم. وقال: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ فعدى الرؤية إلى الأيدي، ولم يقل (فلما رآهم لا يمدون أيديهم) وذلك إشارة إلى أدب الضيافة، فإنه لا يحسن بالمضيف أن يحدد النظر إلى الضيوف، فإن ذلك يمنعهم من مواصلة الأكل بحسب حاجتهم ورغبتهم، وإنما يسارقهم النظر فينظر أيأكلون أم لا. وإبراهيم عليه السلام نظر إلى أيديهم ليرى أنهم يأكلون أم لا.

جاء في (روح المعاني): «﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ كناية عن أنهم لا يمدون إليه أيديهم، ويلزمه أنهم لا يأكلون... ففيه دليل على أن من أدب الضيافة النظر إلى الضيف هل يأكل أو لا، لكن ذكروا أنه ينبغي أن يكون بتلفت ومسارقة لا بتحديد النظر، لأن ذلك مما يجعل الضيف مقصرًا في الأكل، أي لما شاهد منهم ذلك نكرهم» [١].

فلما رآهم لا يأكلون نكرهم، أي استوحش منهم وداخلته الريبة في أمرهم.

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٩٤ ـ ٩٥.

﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾

أي استشعر الخوف منهم وأحس به ، ذلك أنه «كان عادتهم أن إذا مس من يطرقهم طعامه أمنوه وإلا خافوه» [١] .

و(الخيفة) الخوف ، وهي من أسماء الهيئة ، والمعنى أنه شعر بحالة من الخوف .

جاء في (مفردات الراغب) : «الخيفة الحالة التي عليها الإنسان من الخوف . قال تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾» [٢] .

وجاء في (روح المعاني) : «(خيفة) أي خوفًا ، وأصلها الحالة التي عليها الإنسان من الخوف . ولعل اختيارها بالذكر للمبالغة حيث تفرس لذلك مع جهالته لهم من قبل وعدم معرفته من أي الناس يكونون ، كما ينبئ عنه في الذاريات من قوله سبحانه حكاية عنه : ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ أنهم ملائكة» [٣] .

ويبدو أن هذه الحالة من الخوف ظهرت عليه فأمنوه بقولهم (لا تخف) . وأخبروه أنهم أرسلوا إلى قوم لوط .

جاء في (الكشاف) : «(فأوجس) فأضمر . وإنما قالوا : لا تخف ؛ لأنهم رأوا أثر الخوف والتغير في وجهه ، أو عرفوه بتعريف الله» [٤] .

* * *

---

(١) الكشاف ٢/ ١٠٦ ، وانظر البحر المحيط ٥/ ٢٤٢ .
(٢) المفردات (خوف) .
(٣) روح المعاني١٢/ ٩٥ .
(٤) الكشاف ٢/ ١٠٦ .

﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود: ٧١]

لما سمعت بتأمين زوجها وأنهم أرسلوا إلى قوم لوط ضحكت سرورًا بهذا الخبر ، فبشروها زيادة في إدخال السرور عليها بالولد وبولد الولد.

وأسند البشارة إليه سبحانه فقال: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا﴾ زيادة في إكرامها.

جاء في (البحر المحيط): «فبشرناها على لسان رسلنا. . . قال ابن عطية: أضاف فعل الملائكة إلى ضمير اسم الله تعالى ، إذ كان ذلك بأمره ووحيه» (١).

ولما أسند البشارة إليه سبحانه فقال: (فبشرناها) عظمت البشارة فشملت الولد وولد الولد ، وأنها تعيش حتى ترى ولد ولدها.

جاء في (روح المعاني): «كأنهم بشروها بأن تعيش حتى ترى ولد ولدها ، أو بأن يولد لولدها ولد» (٢).

وجاء في (البحر المحيط): «وبشرت من بين أولاد إسحاق بيعقوب ؛ لأنها رأته ولم تر غيره» (٣).

في حين لما أسند البشارة إلى الملائكة اختصت بذكر الغلام وذلك في الحجر والذاريات. فقال في الحجر: ﴿ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣] ، وقال في الذاريات: ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ [الذاريات: ٢٨] وكانت البشرى بعد التأمين من الخوف في

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٢٤٣.
(٢) روح المعاني ١٢/ ٩٩.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٢٤٣.



جميع المواضع لتتم الفرحة وتنبسط النفس بها ، وإلا فالخائف يطلب الأمن أولاً .

* * *

﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [هود: ٧٢]

أدركها العجب الشديد حين بشرت بالولد وولد الولد وهي عجوز عقيم وزوجها شيخ كبير فقالت: ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ . . . ﴾

و(يا ويلتا) «يستعمل في كل أمر فظيع ، والمراد هنا التعجب. وقد كثرت هذه الكلمة على أفواه النساء إذا طرأ عليهن ما يتعجبن منه. . . وقيل: إن الألف بدل من ياء المتكلم. . . وقيل: إنها ألف الندبة ولذا يلحقونها بالهاء فيقولون: يا ويلتاه» [١] .

﴿ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ﴾ بعلي أي زوجي «وأصل البعل القائم بالأمر فأطلق على الزوج لأنه يقوم بأمر الزوجة» [٢] .

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ فأكدت عجبها بإن واللام زيادة في عجبها. وقد ذكرنا في كتابنا (التعبير القرآني) هذا التعبير وقوله سبحانه: ﴿ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [ق: ٢] ، وقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥] وسبب الاختلاف في التعبير فلا نكرر القول فيه [٣] .

* * *

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٩٩ ، وانظر البحر المحيط ٥/ ٢٤٤ .
(٢) روح المعاني ١٢/ ١٠٠ .
(٣) انظر كتابنا (التعبير القرآني) ٤٤ وما بعدها ـ باب (البنية في التعبير القرآني) .

﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ [هود: ٧٣]

قالوا منكرين عليها عجبها بلطف ودعاء: ﴿أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ ، والمؤمن قد يعجب من أمر الله إذا استعظمه وإن كان يعلم أنه لا حدود لقدرة الله وأنه يفعل ما يشاء.

﴿ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ .

رحمة الله عامة تشمل خيري الدنيا والآخرة ، والبركات من الرحمة وهي أخص منها ، فمن بارك الله عليه فقد رحمه.

والبركات: الخيرات التامة المتكاثرة.

ومجموع ما حيّا به الملائكة هي التحية التامة التي لا أفضل منها وهي: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فقد بدؤا بقولهم: (سلامًا).

ثم أتبعوا ذلك مخاطبين امرأة سيدنا إبراهيم بقولهم:

﴿ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ وهذا يحتمل الدعاء ، ويحتمل الإخبار بأن رحمة الله وبركاته عليهم.

فهم لم يقولوا: (إن رحمة الله وبركاته عليكم) لئلا يكون خبرًا محضًا ، وإنما قالوا: ﴿ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ ﴾ ليحتمل الدعاء والإخبار ، وهما مرادان معًا. وقد يكون ذلك من التحية.

جاء في (روح المعاني): «﴿ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ ﴾ المستتبعة كل خير. . . و﴿وَبَرَكَٰتُهُۥ ﴾ أي خيراته التامة المتكاثرة التي من جملتها هبة الأولاد.

وقيل: الرحمة: النبوة... وقيل: رحمته تحيته»[١].

و﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ يحتمل أن يكون نصبًا على المدح، وأن يكون نداء.

وقيل: يحتمل أن يكون نصبًا على الاختصاص[٢]، وفيه نظر.

﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ والحميد: الذي يستحق الحمد على جهة الثبوت، والمجيد: الرفيع الكثير الخير والإحسان[٣].

* * *

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤]

قدم ذهاب الروع على مجيء البشرى لأنه أهم بالنسبة إلى الخائف؛ لأن الخائف لا يستمتع بالبشرى حتى يأمن.

﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾.

(يجادلنا) أي يجادل رسلنا في أمر قوم لوط وشأنهم[٤]. ولكن لما كان هذا أمر الله وهو الذي أرسلهم به كان كأنه جادل سبحانه في أمره «ففيه مجاز في الإسناد، وكانت مجادلته عليه السلام لهم ما قصه الله سبحانه في سورة العنكبوت ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ فقوله عليه السلام: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ مجادلة»[٥].

* * *

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥].

الحليم: الذي لا يعجل في الانتقام ممن أساء إليه.

---

(١) روح المعاني ١٢/ ١٠٠ ـ ١٠١.
(٢) انظر روح المعاني ١٢/ ١٠١، الكشاف ٢/ ١٠٧.
(٣) روح المعاني ١٢/ ١٠١.
(٤) انظر تفسير الرازي ٦/ ٣٧٦، روح المعاني ١٢/ ١٠٢.
(٥) روح المعاني ١٢/ ١٠٢ ـ ١٠٣، لسان العرب (أوه).

والأواه: الكثير الحزن ، وقيل: الرحيم الرقيق المتضرع ، والكثير التأوه من الذنوب والتأسف على الناس.

والمنيب: الراجع إلى الله تعالى[(١)].

«وهذه الصفات دالة على رقة القلب والرأفة والرحمة فيه ، فبيّن أن ذلك مما حمله على المجادلة فيهم رجاء أن يرفع عنهم العذاب ويمهلوا لعلهم يحدثون التوبة والإنابة كما حمله على الاستغفار لأبيه» [(٢)].

وجاء في (روح المعاني): «والمقصود من وصفه عليه السلام بهذه الصفات المنبئة عن الشفقة ورقة القلب بيان ما حمله على ما صدر عنه من المجادلة ، وحمل الحلم على عدم العجلة والتأني في الشيء مطلقًا.

وجعل المقصود من الوصف بتلك الصفات بيان ما حمله على المجادلة وإيقاعها بعد أن تحقق ذهاب الروع ومجيء البشرى لا يخفى حاله» [(٣)].

وقدم الحليم لأن المقام مقام غضب وعقوبة وانتقام ، والحلم يقتضي عدم التعجيل بالعقوبة والانتقام.

وهذه صفة تتعلق بالموقف من الآخرين.

ثم جاء بالأواه بعده لمقام التأسف على ما صدر من قوم لوط ، والتأوه من ذنوبهم التي أفضت إلى غضب الله عليهم والانتقام منهم. وقد دعته رحمته بهم وتأوهه عليهم إلى المجادلة في أمرهم.

والأواه صفة تتعلق بالفرد وبالآخرين ، فهو كثير التأوه إذا أذنب ،

---

(١) انظر روح المعاني ١٢/ ١٠٤.
(٢) الكشاف ٢/ ١٠٧.
(٣) روح المعاني ١٢/ ١٠٤.

وكثير التضرع والحزن ، وكثير التأسف على الآخرين إذا أذنبوا ، والرحمة بهم .

وأما المنيب فهو الراجع إلى الله ، وهذا أمر يتعلق بالفرد ذاته . فقدم ما يتعلق بالآخرين لأن المقام يقتضي ذلك وهو الحلم ، ثم ذكر بعده ما يتعلق به وبالآخرين ، ثم ذكر بعده ما يتعلق به هو .

ولم يرد في القرآن الكريم وصف نبي من الأنبياء بهذه الصفات في غير خليل الله إبراهيم عليه السلام .

* * *

﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴾ [هود : ٧٦] .

﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴾ نداء على تقدير القول ، أي قلنا أو قالت الملائكة[١] .

ولم يقل : قلنا أو نحو ذلك ، وإنما حذف ذلك لنكون كأننا نسمع النداء يصدر إلى إبراهيم وأمره بالكف عن الجدال .

وتقدير (قلنا) مناسب لقوله : (يجادلنا) .

وتقدير (قالت الملائكة) مناسب لقولهم : ﴿ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ﴾

وحذف القول ليحتمل الأمرين المناسبين للسياق .

﴿ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ ﴾ بإدخال (إن) المؤكدة على ضمير الشأن لتفخيم الأمر وتعظيمه . فلم يقل : (إن أمر ربك قد جاء) بل جاء بضمير الشأن الدال على التعظيم والتفخيم .

﴿ قَدۡ جَآءَ ﴾ جاء بـ (قد) التي تدل على التحقيق والتوقع والتقريب ، أي

---

(١) روح المعاني ١٢/ ١٠٤ .

إن مجيء الأمر قد تحقق وقرب وقوع العذاب ، وهو متوقع وقوعه على هؤلاء القوم المجرمين.

﴿ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ أي غير مردود «بجدال ولا بدعاء ولا بغيرهما»[1].

وجاء باسم الفاعل (آتيهم) ، وباسم المفعول (غير مردود) للدلالة على ثبوت الأمر واستقراره ، ولم يقل: (يأتيهم) ولا (لا يردّ) الدالين على الحدوث ، بل جاء بما يدل على الثبوت والاستقرار.

فانظر كيف جاءت الآية بكل ما يدل على التأكيد والتفخيم والتعظيم:

١ ـ فقد قال: ﴿ يَٰإِبْرَٰهِيمُ ﴾ فحذف فعل القول للإيجاز وكأن النداء صدر من العلي الأعلى بالكف.

٢ ـ وقال: ﴿ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ﴾ فأمره بالكف عن الكلام في هذا الأمر ، ولم يقل: (كفّ عن هذا) وذلك لأن الإعراض أبعد في الكف ، فإن معنى (أعرضَ عنه) صدّ عنه وولّى عنه وليس مجرد ترك الكلام.

فكأنه أراد أن يصد عن الكلام والانصراف عنه ، وهو أبعد من مجرد السكوت عن الكلام.

٣ ـ وجاء بـ (إن) المؤكدة فقال: (إنه).

٤ ـ وأدخلها على ضمير الشأن الدال على التفخيم والتعظيم.

٥ ـ وجاء بـ (قد) التي تدل على التحقيق والتوقع والتقريب.

٦ ـ وأدخلها على الفعل (جاء) ولم يأت بالفعل (أتى) وذلك للدلالة على شدة الأمر وصعوبته ، فإن (جاء) يستعمل في القرآن لما هو أعسر

---

(١) روح المعاني ١٢/ ١٠٤.

وأصعب من (أتى) الذي هو المجيء بسهولة[١].

٧ ـ وجاء بـ (الأمر) الذي يدل على الشأن ، ويدل على الأمر واحد الأوامر من : أمره بالشيء.

٨ ـ وأضافه إلى (الرب) لتعظيمه ، والرب هو المعلم والمربي والموجّه والمرشد ، فهو الذي يعلم أحاسن الأمور وأحكمها وكيف يعاقب من خالف أوامره وتوجيهه وإرشاده.

٩ ـ وأضافه إلى ضمير الخطاب ، فهو ربك الذي رباك وأحسن إليك وعلمك وأرشدك فلا تجادله فهو أعلم منك.

والإنسان لا يحسن به أن يجادل من علمه ورباه في أمر هو من أمور التعليم والتوجيه وما هو من شؤون الرب.

١٠ ـ وقال: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ فجاء بـ (إن) المؤكدة وأدخلها على ضميرهم وهم قوم لوط.

١١ ـ وقال: ﴿ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ﴾ فجاء باسم الفاعل الدال على الثبوت.

وهذا التعبير أعني ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ يحتمل دلالتين.

الأولى: أن (آتيهم) خبر مقدم ، و(عذاب) مبتدأ مؤخر ، وقد قدم الخبر للاهتمام والقصر ، أي ليس آتيهم إلا العذاب ، كما تقول: (قائم أنا) أي لست إلا قائمًا ، والجملة خبر (إن).

والدلالة الثانية: أن (آتيهم) خبر (إن) ، و(عذاب) فاعل اسم الفاعل ، وجاء باسم الفاعل للدلالة على الثبوت ، والجملة مؤكدة بـ (إن).

وقد تقول: ولِمَ لَمْ يقل: (وإنه آتيهم عذاب غير مردود) بإدخال (إن)

---

(١) انظر مفردات الراغب (جاء) و(أتى) ، وانظر كتابنا (من أسرار البيان القرآني) باب المفردات.

على ضمير الشأن للدلالة على التفخيم والتعظيم ، نظير قوله : ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾؟

فنقول : لو قال ذلك لم يكسب المعنيين اللذين ذكرناهما ، وذلك أنه لو قال : (وإنه آتيهم عذاب غير مردود) لم يكن له إلا دلالة واحدة وهي أن (آتيهم) خبر مقدم ، و(عذاب) مبتدأ مؤخر ، ولا يصح أن يكون (آتيهم) خبر (إن) لأن ضمير الشأن لا يدخل إلا على جملة فيفوت أحد المعنيين المرادين ، والله أعلم.

١٢ ـ وقال : ﴿غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ فوصفه ونفى رده بالاسم الدال على الثبوت وهو (غير) ، ولم يقل : (ليس مردودًا) فينفيه بالجملة الفعلية الدالة على الحدوث ، فنفاه بما هو أقوى وأثبت.

١٣ ـ وقال : ﴿غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ فجاء باسم المفعول الدال على الثبوت ، ولم يقل : (لا يرد) بالفعل.

فكانت كل كلمة نصًا في المعنى المقصود والذي يناسب المقام.

* * *



نظرة بيانيــة في هـذه القصــة

من الملاحظ أن جانب التبسط والإكرام لإبراهيم والملائكة في سورة هود أكثر مما في المواضع الأخرى.

١ ـ فقد عجل بذكر البشرى له قبل ذكر إيجاس الخوف منهم ، في حين كانت البشرى بعد التصريح بالخوف منهم كما في الحجر ، أو بعد الإحساس بالخوف كما في الذاريات ، فقال ههنا : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾ وهذا أدعى إلى الاطمئنان.

٢ ـ التصريح بأنهم رسله سبحانه أدلّ على التكريم من قوله: (ضيف إبراهيم) ، فقد أضاف الرسل إليه فقال: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ .

في حين قال في الحجر : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ ، وفي الذاريات ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ .

ورسل الله أكرم من ضيف مكرم.

٣ ـ قال ههنا : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ أي لم يبطئ في المجيء.

وقال في الذاريات : ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ .

وقوله : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ ﴾ أدل على السرعة من قوله : ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ ﴾ .

فالأولى تدل على التعقيب في عدم الإبطاء في المجيء ، أي أسرع فيه.

والثانية تدل على التعقيب في الروغان إلى أهله.

والأولى أسرع.

٤ ـ قال في هود: ﴿ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ أي سمين مشوي حار يقطر ودكه.

وقال في الذاريات: ﴿ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ فزاد في الوصف في هود على سمين بأنه مشوي وأنه حار. ولا يدل في الذاريات على أنه حار.

٥ ـ إنكاره إياهم في هود بعد أن رأى أيديهم لا تمتد إلى الطعام ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾.

في حين كان إنكاره في الذاريات بعد رد التحية: ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾.

فقد كان بعد رد التحية في هود المجيء بالعجل، وكان بعد رد التحية في الذاريات قوله: ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾.

٦ ـ بعد الإيجاس بالخوف في هود ذكروا له أمرين مطمئنين:

الأول: أنهم أرسلوا إلى قوم لوط وليسوا مرسلين إليه فلا داعي للخوف.

والآخر: التبشير بالولد.

في حين كان بعد التصريح بالوجل في الحجر أو الشعور بالخوف في الذاريات إنما هو التبشير بالغلام، ثم سألهم عن مهمتهم في الموضعين فأجابوه أنهم أرسلوا إلى قوم لوط.

ولا شك أن الموقف الأول أدعى إلى الطمأنينة.

٧ ـ ذكر في هود أن امرأته ضحكت، وهي قد ضحكت سرورًا. ولم يذكر ذلك في موضع آخر.

٨ ـ إنهم بشروها في هود بالولد وولد الولد.

ولم يبشروه بغير الولد في الحجر والذاريات ، والأول أدعى إلى زيادة السرور.

٩ ـ إن فحوى البشارة في هود أن ترى ولدها وولد ولدها ، أي أنها ستعيش حتى ترى يعقوب ، وقد حصل لها ذلك ، وهو ما يدل على طول العمر والزيادة في السرور.

١٠ ـ تبسط امرأة إبراهيم مع الملائكة في هود أكثر ، وهو أدل على الطمأنينة والراحة.

١١ ـ الدعاء أو الإخبار لأهل البيت بقولهم: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ أدل على الإكرام والزيادة في إدخال المسرة.

ولم يرد ذلك في موضع آخر.

١٢ ـ ورود البشرى في هود أكثر من ورودها في المواطن الأخرى ، فقد جاءته الرسل بالبشرى ، ثم بشروا امرأته ، ثم ذكر مجيء البشرى مرة أخرى بقوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾.

ثم إن البشرى في هود وردت عامة ووردت مخصصة ، فقد قال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ ، وقال: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ والبشرى هنا عامة غير مخصصة بأمر.

ووردت مخصصة بقوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾.

في حين كانت البشرى في الحجر والذاريات مخصصة بالغلام. فما في هود أعم وأشمل.

١٣ ـ أسند البشارة إليه في هود فقال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ ، وأسند البشارة إلى الملائكة في الحجر والذاريات: ﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣]، وفي الذاريات ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨].

ولاشك أن إسناد البشارة إلى الله أكرم وأتم.

ولما كانت البشارة مسندة إلى الله في هود ذكر الزيادة في البشرى وهي الولد وولد الولد.

١٤ ـ إن البشرى في هود أتم وأعلى مما في الحجر والذاريات ، فإن البشرى في هود جاءت بها الرسل كما قال: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾.

وجاءت هي كما قال: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾. فالبشرى جيء بها مرة ، وجاءت هي مرة أخرى.

وأما في الحجر والذاريات فقد ذكر أنهم بشروه ، وكذلك قال في هود غير أنه أسند التبشير إليه سبحانه كما ذكرنا.

ولاشك أن ما ورد في هود أتم وأعلى.

١٥ ـ ذكر ذهاب الروع وهو الفزع في هود فقال: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ ﴾ ، ولم يقل مثل ذلك في الحجر ولا في الذاريات.

وهو أدل على الطمأنينة.

١٦ ـ ذكر في هود مجادلة إبراهيم للملائكة في قوم لوط مما يدل على زيادة اطمئنانه. ولم يذكر ذلك في الحجر ولا في الذاريات.

١٧ ـ ذكر من صفات المدح والثناء على إبراهيم في هود ما لم يذكره في المواضع الأخرى ، وذلك قوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾.

فدل ذلك على ما ذكرناه.

* * *

قصة لـوط



وردت هذه القصة في الأعراف وهود والحجر والأنبياء والشعراء والنمل والعنكبوت والصافات والذاريات والقمر.

ونقول ما قلناه في سائر القصص الأخرى إنها ليست متطابقة، بل قد يذكر في موضع ما لا يذكره في موضع آخر بحسب ما يريد أن يركز عليه وبحسب السياق الذي وردت فيه.

والملاحظ في هذه القصة أنه لم يذكر فيها أن لوطاً دعا قومه إلى عبادة الله وتوحيده في جميع ما ورد منها، وإنما ذكر أنه أمرهم بتقوى الله وذلك عندما راودوه عن ضيفه، وذكر ذلك أيضًا في سياق ما ورد نحوه على لسان الرسل الآخرين وذلك في سورة الشعراء، فكان الرسول يقول لقومه: ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾.

ونحو ذلك قال لوط لقومه.

إن التركيز في قصة لوط إنما هو على ذكر الفاحشة التي ما سبقهم بها من أحد من العالمين، وهي إتيان الذكور شهوة من دون النساء. وكانت هي السبب الرئيس لعقوبتهم واستئصالهم. وذلك إشارة ـ والله أعلم ـ أن ربنا قد يهلك عباده بالمعصية إن عمت وعظمت كما قال ربنا في هؤلاء القوم: ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [العنكبوت: ٣٤].

وحذر الظالمين في كل حين أن يفعل بهم ما فعل بقوم لوط فقال في الحجارة التي أمطرها عليهم: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣].

١ ـ ففي سورة الأعراف ذكر أن لوطاً أنكر على قومه سوء فعلهم في أنهم كانوا يأتون الفاحشة ما سبقهم بها من أحد من العالمين (٨٠).

فكان جواب قومه أن طلبوا إخراجه من القرية فإنهم أناس يتطهرون.

فنجاه الله وأهله إلا امرأته، وذكر أنه أمطر عليهم مطرًا، ولم يذكر ما هذا المطر، وما ماهيته.

وهذا ما ورد منها في سورة الأعراف:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠ ـ ٨٤].

٢ ـ وأما في سورة هود فذكر ورود رسل الله على لوط على هيئة ضيوف وضاق بهم نبي الله لوط، وجاءه قومه يهرعون إليه. وحاول لوط منعهم ودفعهم، وجرى بينه وبينهم كلام ومحاورة، وحاول منعهم بعرض بناته عليهم فأبوا، فأعلموه أنهم رسل ربه أرسلوا لعقوبة قومه، وطلبوا منه أن يسري بأهله. ثم ذكر عقوبتهم وذلك أنه جعل عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل.

وهذا الجانب من القصة لم يرد في الأعراف؛ وذلك لأنه كان أول تبليغ لهم فلا يناسب ذكر مجيء الرسل إليهم، وإنما تأتي الرسل بعد

التبليغ ومضي الزمن وإصرار القوم على ما هم عليه ، ثم بعد ذلك تأتي الرسل لعقوبة القوم .

فكان ذكر ذلك فيما بعد الأعراف هو المناسب .

٣ ـ وذكر في الحجر مجيء رسل ربه إليه فأنكرهم ، فأخبروه بالغرض من مجيئهم وطلبوا منه أن يسري بأهله وأن يتبع أدبارهم .

كما ذكر مجيء أهل القرية مستبشرين فحاول منعهم ، وعرض عليهم بناته . ثم ذكر عقوبتهم وهي الصيحة وأنه جعل عاليها سافلها وأمطر عليهم حجارة من سجيل .

وهذا ما ورد منها في هذه السورة :

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾

٤ ـ وأما في الأنبياء فقد ذكر لوطاً بصورة موجزة ، وذكر أنه آتاه حكمًا وعلمًا ونجّاه من القرية التي كانت تعمل الخبائث .

قال تعالى : ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٤ ـ ٧٥] .



٥ ـ وأما في الشعراء فقد بدأت القصة بما تبدأ به عموم قصص رسل الله في السورة: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦٠ ـ ١٦٤].

ثم بكّتهم على معصيتهم وسوء فعلهم وهو إتيان الذكور وترك الأزواج ، فهددوه إن لم ينته بإخراجه.

فدعا ربه أن ينجيه وأهله ، فنجاه وأهله إلا عجوزًا في الغابرين ، ولم يذكر أنها امرأته ، وقد ذكر ذلك في مواضع أخرى.

ولم يذكر ضيفه. قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ١٦٠ ـ ١٧٥].

٦ ـ وفي سورة النمل ذكر أنه بكّتهم على سوء فعلهم من إتيان الفاحشة ، فكان جواب قومه أن طلبوا إخراجه من القرية ، فأنجاه الله وأهله إلا امرأته وأمطر عليهم مطرًا ولم يذكر ما هذا المطر ، قال تعالى:

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ

وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [النمل: ٥٤ ـ ٥٨].

٧ ـ وأما في سورة العنكبوت فقد ذكر من سوء أفعالهم ما لم يذكره في المواضع الأخرى.

فقد ذكر إضافة إلى إتيان الرجال من دون النساء أنهم يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر.

وتحدوه بأن يأتيهم بعذاب الله إن كان من الصادقين.

ثم ذكر مجيء ضيف إبراهيم بالبشرى، فذهابهم إلى قوم لوط وبرمه بهم فأمنوه وذكروا له أنهم منجّوه وأهله إلا امرأته وأنهم منزلون على أهل القرية رجزًا من السماء، ولم يذكر نوع هذا الرجز.

قال تعالى:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

٨ ـ ولم يذكر في الصافات إلا أن لوطاً من المرسلين، وأن الله نجّاه

وأهله أجمعين إلا عجوزًا ، ولم يذكر أنها امرأته ، ثم ذكر أنه دمر الآخرين ، ولم يذكر كيف كان تدميرهم.

ثم ذكر أنهم ـ أي قريشًا ـ يمرون عليهم في أسفارهم في الليل والنهار.

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

٩ ـ وأما في الذاريات فقد ذكر أن إبراهيم سأل ضيفه عن مهمتهم فذكروا أنهم أرسلوا إلى قوم مجرمين ليرسلوا عليهم حجارة من طين معلّمة بعلامة من عند ربه.

ثم ذكر أنهم أخرجوا المؤمنين فلم يجدوا فيها غير بيت واحد. وهذا لم يذكر في موضع آخر.

ثم ذكر أنه ترك فيها آية بينة للذين يخافون العذاب الأليم ، ولم يذكر ماذا فعل بهم غير ما ذكره الملائكة لإبراهيم.

قال تعالى : ﴿ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [الذاريات : ٣١ ـ ٣٧].

١٠ ـ وأما في سورة القمر فقد ذكر تكذيب قوم لوط بالنذر ، وهو ابتداء عموم القصص في هذه السورة.

ثم ذكر أنه أرسل عليهم حاصبًا ولم يذكر ذلك في موضع آخر.

وذكر أيضًا أنهم راودوه عن ضيفه وأنه طمس أعينهم ، ولم يذكر في موضع آخر أنه طمس أعينهم .

ثم ذكر أنهم صبّحهم العذاب ولم يذكر نوع ذلك العذاب .

قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾

موقف قومه منه:

ذكر في الأعراف أنهم طلبوا إخراجه من القرية .

وأما في هود فقد ذكر موقفهم من ضيفه . وذكر أنهم جاؤوا يهرعون إليه ، أي يشتدون في الإسراع إليه ، فحاول دفعهم فلم يقوَ على ذلك .

وفي الحجر ذكر أيضًا موقفهم من ضيفه وذكر أنهم جاؤوا يستبشرون ، وهو وصف لم يذكره في هود . فقد قال في هود إنهم جاؤوا مسرعين ، وذكر في الحجر أنهم جاؤوا مستبشرين وهو وصف آخر غير الإسراع .

وفي الشعراء ذكر أنهم هددوه بإخراجه من القرية إن لم يكف عنهم . وفي النمل طلبوا إخراجه .

وفي العنكبوت تحدوه بأن يأتيهم بعذاب الله إن كان صادقًا .

وأما في القمر فقد ذكر أن قومه كذبوا بالنذر ، وأنه أنذرهم بطشة ربهم فكذبوا بها ، وأنهم راودوه عن ضيفه فطمس الله أعينهم .

ويتضح من هذا أنهم هددوه أو طلبوا إخراجه من القرية في الأعراف والشعراء والنمل .



وذكر أنهم راودوه عن ضيفه في هود والحجر.

وذكر في العنكبوت أنه جاءته رسل ربه وأنه ضاق بهم ذرعًا. ولم يذكر موقف قومه منه. ولم يذكر موقف مواجهة بينه وبين قومه في المواضع الأخرى.

عاقبة القوم:

١ ـ ذكر في الأعراف أنه نجاه وأهله إلا امرأته ، وأنه أمطر عليهم مطرًا ولم يذكر ما هذا المطر.

٢ ـ في هود ذكر أنه جعل عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود ، وهذه الحجارة معلّمة بعلامة خاصة.

٣ ـ وذكر في الحجر أنهم أخذتهم الصيحة مشرقين ، أي بعد شروق الشمس ، ولم يذكر الصيحة ولا هذا التوقيت في موضع آخر.

كما ذكر أنه جعل عاليها سافلها وأمطر عليهم حجارة من سجيل.

فقد ذكر في هود أنه أمطر عليها يعني القرية.

وقال في الحجر أنه أمطر عليهم يعني القوم.

فدل ذلك أنه أمطر على القوم وعلى القرية. وقد ذكرنا في كتابنا (من أسرار البيان القرآني) في باب (الذكر والحذف) سبب المغايرة بين التعبيرين.

٤ ـ ذكر في الشعراء أنه دمر غير المؤمنين وأمطر عليهم مطرًا ، ولم يذكر ما حقيقة هذا المطر ولا فصّل فيه.

٥ ـ وقال في النمل: إنه أمطر عليهم مطرًا ، وهو نحو ما ذكر في الشعراء.

٦ ـ وقال في العنكبوت: إن الرسل وعدوه بإنزال رجز من السماء ،

وهو تعبير لم يذكر في المواضع الأخرى.

٧ ـ وفي الصافات ذكر تدمير قومه، غير أنه لم يذكر كيف كان تدميرهم.

٨ ـ وفي الذاريات ذكر الرسل لإبراهيم أنهم مرسلون إلى قوم لوط لإنزال حجارة من طين عليهم، مسوّمة أي معلّمة بعلامة خاصة.

فذكر أن الحجارة من طين.

٩ ـ وذكر في سورة القمر أنه أرسل عليهم حاصبًا، وأنه صبحهم بكرة عذاب مستقر، أي في أول النهار.

ومن هذا يتضح أنه ذكر المطر على العموم في الأعراف والشعراء والنمل.

وذكر الإمطار بالحجارة في هود والحجر والذاريات.

وذكر إنزال الرجز في العنكبوت.

وذكر إرسال الحاصب في القمر.

ومن الملاحظ أنه ذكر إمطار المطر بعد تبكيت قومه على فعل الفاحشة.

وذكر الإمطار بالحجارة وجعل عاليها سافلها عند مجيء أهل القرية مسرعين عندما علموا بمجيء الضيوف ومحاولة دفعهم ببناته. وهو أشد من الموقف الأول؛ لأن ذلك كان تبكيتًا على فعل قد لا يكون موجودًا في أثناء دعوته لهم.

وأما الموقف الآخر فهو المجيء لتنفيذ هذا الفعل السيء والإصرار عليه ومحاولة دفعهم ببناته، فرفضوا. وهذا قلب للفطرة التي خلق الله الناس عليها، فقلب الله عليهم الأرض كما قلبوا الفطرة. فاشتد عليهم



العذاب لما كان الموقف أشد.

ولما لم يكن في الذاريات مراودة ولا مجيء الضيوف إلى لوط لم يذكر قلب عاليها سافلها.

وذكر إنزال الرجز في العنكبوت لما ذكر من معاصيهم ما هو أكثر مما ذكر فيه إنزال المطر.

والرجز أشد من المطر لأن الرجز هو العذاب. وأما المطر فقد لا يكون عذابًا في أصل التعبير في اللغة.

وأما في القمر فإنه ذكر الحاصب مناسبة لما ذكر من طمس أعينهم؛ لأنه كأنه حصبهم فسقط من ذلك في أعينهم فطمسها، وإن كان المقصود بذكر الحاصب هو ما ذكر من العذاب، غير أن ذكره كان مناسبًا لطمس أعينهم. والله أعلم.

نجاة المؤمنين:

ذكر في الأعراف والنمل والعنكبوت نجاته وأهله إلا امرأته.

وأما في هود فقد طُلب منه الإسراء بأهله إلا امرأته، ولم يصرح بنجاته ومن معه.

وكذلك في الحجر فإنه طُلب منه الإسراء بأهله وأن يتبع أدبارهم ولم يذكروا امرأته، لأنهم ذكروا في القصة نفسها لنبي الله إبراهيم أنهم منجون آل لوط إلا امرأته، فلم يعيدوا ذكرها مرة أخرى.

وفي سورة الأنبياء ذكر أنه نجاه من القرية التي كانت تعمل الخبائث ولم يذكر أهله معه.

وفي الشعراء والصافات ذكر أنه نجاه وأهله إلا عجوزًا في الغابرين، ولم يذكر أنها امرأته، وقد مر بيان هذه العجوز في مواضع أخرى.

وذكر في الذاريات أنه لم يجدوا في القرية غير بيت واحد من المسلمين. ومعنى ذلك أنه لم يؤمن له إلا آل بيته عدا امرأته.

وقد ذكر ذلك أيضًا في سورة القمر بقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤] فقد استثنى آل لوط وهم أهله.

ومن الملاحظ أنه لم يذكر ناجيًا معه غير أهله في جميع المواضع، مما يدل على أنه لم يؤمن له من القرية أحد غير أهل بيته إلا امرأته.

قد تقول لقد قال في أكثر من موضع: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ وذلك في هود والحجر، فذكر القطع من الليل.

وقال في موضع آخر: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ فذكر الصبح وليس الليل.

وقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾.

وقال في القمر: ﴿نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾.

وقال: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي عند الصباح.

فما حقيقة الأمر أهي النجاة في الليل أم في الصبح؟

فنقول: إن النجاة كانت في الليل، فقد طلب منه الإسراء في ذلك الوقت.

وأما نزول العذاب فهو عند الصبح، ذلك أن النجاة لم تكن في وقت نزول العذاب بل قبله.

ومن الملاحظ أنه ذكر دعاءه بالنجاة في الشعراء وذلك قوله: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾، ودعاءه بالنصر في العنكبوت وذلك قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

وكل مناسب لموضعه، ففي الشعراء بعد أن بكتهم على إتيان الذكران

وترك الأزواج هددوه إن لم ينته بإخراجه من القرية فقال لهم: ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ فلما ذكر قلاه وبغضه لعملهم دعا ربه أن ينجيه وأهله من عملهم.

وأما في العنكبوت فقد ذكر إضافة لعملهم الفاحشة أنهم يقطعون السبيل، وهو عدوان على عباد الله، فدعا بالنصر عليهم وليس مجرد نجاته منهم. فإن نجاته منهم لا تمنعهم من ذلك، وإنما النصر عليهم هو الذي يمنعهم فدعا بالنصر عليهم. وكل مناسب لموضعه.

* * *

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧]

﴿ سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي لحقته المساءة بسببهم وضاق ذرعه بهم، أي ضاق صدره بمجيئهم.

والذرع يوضع موضع الطاقة والجهد، «يقال: ضقت بالأمر ذرعًا إذا لم تطقه ولم تقو عليه.

وأصل الذرع بسط اليد، فكأنك تريد مددت يدي إليه فلم تنله... ونصبه على أنه تمييز محول عن الفاعل، أي ضاق بأمرهم وحالهم ذرعه» (١).

والتحويل عن الفاعل إلى التمييز إنما يكون بقصد المبالغة والشمول مثل قولنا (اشتعلت نار البيت) و(اشتعل البيت نارًا) (٢).

* * *

---

(١) روح المعاني ١٢/ ١٠٥ وانظر البحر المحيط ٥/ ٢٤٦، تفسير الرازي ٦/ ٣٧٨.

(٢) انظر كتابنا (معاني النحو) ج٢ - باب التمييز.

﴿ وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾

«أي شديد ، وأصله من العصب بمعنى الشد ، كأنه لشدة شره عصب بعضه ببعض ، وقال أبو عبيدة : سمي بذلك لأنه يعصب الناس بالشر» [(١)] .

والآية أظهرت غاية الضيق بمكانهم ، فإنها ذكرت أنهم أدخلوا المساءة عليه ، وهذه حالة أولى .

ثم ذكر حالة بعدها أشد وهي أنه ضاق بهم ذرعًا ، وهذه أشد من مجرد المساءة ، فإنه قد يسيء مجيء شخص شخصًا ولكن قد لا يضيق به ذرعًا فيكون تحمله فوق طاقته .

ثم إنه لم يكتم ذلك في نفسه بل صرح به وقال : ﴿ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ .

ثم انظر كيف وصف ضيقه بأن حول الفاعل إلى تمييز بقصد المبالغة فقال : ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ والأصل : فضاق ذرعه بهم ، وكيف وصف اليوم بأنه (عصيب) ، ولم يقل : (هذا أمر عصيب) أو (هذا شيء عصيب) بل جعل الشدة لليوم كله ، وذلك لاشتمال الشدة على اليوم وليس على أمر فيه .

ثم إن الوصف بالعصيب له دلالته ، فإنه لم يقل : (هذا يوم شديد) وذلك أن الوصف بعصيب أشد ؛ ذلك لأنه كأنه يعصب الإنسان بالشر ، وأنه معصوب بعضه ببعض ، فالشر متصل فيه .

وقد بحثنا في كتابنا (التعبير القرآني) الفرق بين قوله هنا : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ ﴾ ، وقوله في العنكبوت : ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ ﴾ [العنكبوت : ٣٣] بزيادة (أنْ) في آية العنكبوت . فلا نعيد القول فيه [(٢)] .

* * *

---

(١) روح المعاني ١٢/ ١٠٥ .

(٢) التعبير القرآني - باب الذكر والحذف ١٢٧ - ١٢٩ .

﴿ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴾ [هود: ٧٨]

لقد قال: ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ ﴾ على العموم، ولم يقل: (نفر من قومه) أو جماعة منهم، للدلالة على شيوع هذه الفاحشة فيهم. فالقوم كلهم جاؤوا يهرعون إليه، كما قال في موضع آخر: ﴿ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ فإن أهل المدينة كلهم جاؤوا إليه وليس مجموعة منهم. وقلنا: (كلهم) لأنهم أهلكوا أجمعون لم يستثن أحدًا منهم.

﴿ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ ﴾ أي «يسرعون كأنما يدفعون دفعاً» [١].

﴿ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ أي كانوا مستمرين على عمل السيئات وإن ذلك كان «ديدنهم وعادتهم أصروا على ذلك ومرنوا عليه» [٢].

لقد قال: ﴿ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ ولم يقل: (ومن قبل عملوا السيئات) وذلك للدلالة على أن هذه عادتهم.

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ ﴾ ناداهم بـ (يا قوم) تعطفًا لقلوبهم، وعرض عليهم بناته وقال: ﴿ هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ ﴾ فجاء بالضمير (هن)، ولم يقل: (هؤلاء بناتي أطهر لكم) ليدل على قصر الطهر فيهن وأنه ليس وراء ذلك طهر.

ودعاهم إلى تقوى الله ومراعاة حق الضيف، كل ذلك ليرشدوا ويرعووا، ثم قال متحسرًا منكرًا عليهم بما ملؤه الأسى ومستثيراً لذوي

---

(١) الكشاف ٢/١٠٨.

(٢) البحر المحيط ٥/٢٤٦.

اللب إن كان فيهم من هو كذلك ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ «يهتدي إلى الحق ويرعوي عن القبيح» (١).

فقد ترى أنه حاول دفعهم بكل ما يستطيع :

١ ـ بمناداتهم (يا قوم) تعطفًا لقلوبهم .

٢ ـ وعرض ما هو أفضل وأطهر .

٣ ـ ودعوتهم إلى تقوى الله وأن يخشوا عقابه .

٤ ـ وإلى مراعاة حرمة الضيف .

٥ ـ وأن لا يُخجلوا ويُخزوا واحدًا من قومهم فيفضحوه ويسيئوا إلى سمعة القرية .

٦ ـ ودعا ذوي اللب والرشد إن كان فيهم أحد كذلك ينصح هؤلاء الرعاع .

ومن أين يأتي الرشد إذا كانوا كلهم جاؤوا مسرعين إليه!

* * *

﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود : ٧٩]

فأجابوه أن ليس لهم في بناته أرب ولا غرض ، وإنك تعلم غرضنا وما نريد ، فلا تدعنا إلى ما ليس لنا فيه أرب ولا إرادة .

وجيء بالمؤكدات كلها في هذا التعبير :

١ ـ فقد قالوا : (لقد) فأكدوا ذلك بالقسم ، فإن (لقد) قسم كما هو معلوم .

---

(١) تفسير البيضاوي ٣٠٣ .

٢ ـ وقالوا: (علمت) فجعلوا ذلك من علمه وأنه ليس من باب الظن.

٣ ـ وجاؤوا بالجملة الاسمية المنفية بـ (ما) للدلالة على ثبوت هذا الأمر ووكادته ولم يقولوا: (ليس لنا في بناتك من حق).

٤ ـ وجاؤوا بـ (من) الدالة على الاستغراق والتوكيد ليبينوا على أنه ليس لهم أي غرض في بناته وذلك على سبيل الاستغراق والشمول.

٥ ـ وأكدوا علمه بما يريدون بـ (إن) واللام فقالوا: ﴿وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾.

فقد أكدوا علمه أولاً بأنه ليس لهم في بناته من حق.

وأكدوا علمه بما يريدون بعد ذلك.

٦ ـ ثم إن قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ يحتمل عدة معان:

منها: أن (ما) اسم موصول فيكون المعنى: إنك تعلم الذي نريده، وحذف العائد.

ومنها: أن تكون (ما) مصدرية فيكون المعنى: وإنك لتعلم إرادتنا.

ويحتمل أيضًا أن تكون (ما) استفهامية فيكون المعنى: وإنك لتعلم ما الذي نريده.

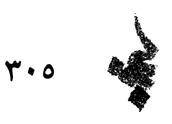
وهذه المعاني كلها محتملة:

فهو يعلم الذي يريدونه، ويعلم إرادتهم. ويعلم أي شيء يريدون.

ولو قال: (لتعلم ما نريده) لانتفى احتمال المصدرية.

ولو قال (لتعلم الذي نريده) لانتفى احتمال الاستفهامية والمصدرية.

ولو قال: (لتعلم ماذا نريد) لتعينت الاستفهامية وانتفى احتمال ما عداها.



وجاء بهذا التعبير ليحتمل كل المعاني ، وهي كلها مرادة ومطلوبة ، فهو يعلم إرادتهم على العموم ، ويعلم الذي يريدونه في مجيئهم هذا ، ويعلم ما الذي يريدونه .

قد تقول : ولكن لا يتبين وجه الاختلاف في المعنى من كل تعبير ، فهو في النتيجة يدل على أمر واحد وهو أنه يعلم غرضهم .

فنقول : نعم إنه يعلم غرضهم ولكن لكل تعبير معنى خاص به .

فقولك : إنك تعلم إرادتنا ، معناه أنك تعلم رغبتنا في أي شيء تكون ، فهو يعلم إرادتهم مطلقًا سواء في هؤلاء أم في غيرهم ، وسواء كان هناك ما يحقق الرغبة أم لا .

وقولك : إنك تعلم الذي أريد ، يدل على أمر معين يطلبه .

فـ (الذي) اسم موصول معرفة ، والمعرفة ما دل على شيء معين .

وأما قولك : إنك تعلم ماذا أريد ، فمعناه أنك تعلم أي شيء أريده على وجه العموم .

فالمصدر يدل على العلم بالحدث ، والاسم الموصول يدل على شيء معين ، والاستفهام يدل على عموم ما يريد ، فهو يدل على علمه بجواب الاستفهام .

ومن الملاحظ أنه قدم هنا عرض بناته على قومه قبل ذكر الضيف فقال : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ﴾ فذكر البنات ثم ذكر الضيف بعد ذلك .

وقدم في الحجر ذكر الضيف قبل عرض البنات قائلاً : ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ [الحجر : ٦٨ ـ ٧١] .

ذلك أنه في هود لم يجر حديث مع الضيف ولا حوار قبل مجيء القوم ، وإنما كان الكلام مع أهل المدينة في غيبة الضيف ، فلم يجر مع الضيف حديث بعد ، فحاول الدفع ببناته.

وأما في الحجر فإنه كان له حديث مع الضيف قبل مجيء قومه ، فقد قال لضيفه: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الحجر: ٦٢ - ٦٤] فكان مع ضيفه حديث ومحاورة ، فلما جاء أهل المدينة أشار إلى ضيفه: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ [الحجر: ٦٨ ـ ٦٩].

فلما كان الحديث مع الضيف ناسب تقديمهم والإشارة إليهم في الحجر.

ولما لم يكن مع ضيفه كلام في هود بل لا يزال الحديث مع قومه والضيف غائبون لم يشر إليهم لأنهم غير حاضرين ، فقدم عرض بناته أولاً.

فناسب كل موضعه.

* * *

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]

أي لو أن لي طاقة فأمنعكم «يقال: ما لي به قوة وما لي به طاقة. ونحوه ﴿لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ وما لي به يدان ؛ لأنه في معنى: لا أضطلع به ولا أستقل به.

والمعنى: لو قويت عليكم بنفسي أو أويت إلى قوي أستند إليه وأتمنع به فيحميني منكم. فشبه القوي العزيز بالركن من الجبل في شدته ومنعته. ولذلك قالت الملائكة وقد وجدت عليه: إن ركنك لشديد.

وقال النبي ﷺ «رحم الله أخي لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد» [١].

قال ذلك سيدنا لوط على سبيل التفجع والتمني.

فهو تمنى أن يكون له قوة في نفسه أو يكون له من يأوي إليه فيستعين به على دفعهم.

جاء في (تفسير الرازي): «واعلم أن قوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ لا بد من حمل كل واحد من هذين الكلامين على فائدة مستقلة، وفيه وجوه:

الأول: المراد بقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ كونه بنفسه قادرًا على الدفع، وكونه متمكنًا إما بنفسه وإما بمعاونة غيره على قهرهم وتأديبهم.

الثاني: والمراد بقوله: ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ هو أن لا يكون له قدرة على الدفع لكنه يقدر على التحصن بحصن ليأمن من شرهم بواسطته.

الثالث: أنه لما شاهد سفاهة القوم وإقدامهم على سوء الأدب تمنى حصول قوة قوية على الدفع، ثم استدرك على نفسه وقال: بل الأولى أن آوي إلى ركن شديد وهو الاعتصام بعناية الله تعالى» [٢].

ويحتمل أن تكون (لو) شرطية وفيها معنى التمني حذف جوابها ليذهب الذهن كل مذهب فيما سيفعله لردعهم، نظير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠] أي لرأيت شيئًا مهولاً لا يُقدر على وصفه.

جاء في (الكشاف): «جواب (لو) محذوف كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ

---

(١) الكشاف ٢/١٠٨.

(٢) تفسير الرازي ٦/ ٣٨٠.

قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ ... ﴿قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾ يعني لو أن لي بكم قوة لفعلت بكم وصنعت»[١].

وجاء في (تفسير الرازي): «وحذف الجواب ههنا لأن الوهم يذهب إلى أنواع كثيرة من المنع والدفع»[٢].

وجاء بـ (لو) ولم يأت بـ (ليت) فيقول: (ليت لي بكم قوة) ليشمل معنيي التمني والشرط إضافة إلى حذف الجواب للعموم.

* * *

﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾ [هود: ٨١]

نادوه باسمه ليعلموه أنهم يعرفونه فيستمع إليهم. ثم أمنوه بقولهم: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ وأضاف الرب على ضمير المخاطب ليدل على أنه ربه القيم على أمره والمتولي أمره هو الذي أرسلهم إليه فيكون أدعى إلى تطمينه.

والرسول إنما يرسل ليبلغ رسالة فطمأنوه بقولهم: ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾.

وجاء بـ (لن) المؤكدة الدالة على الاستقبال ليدل على أنهم لا يستطيعون أن يؤذوه في المستقبل إضافة إلى الحال فليطمئن.

وقال: ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ ولم يقل: (لن يؤذوك) ذلك أنه نفى الوصول فانتفى الأذى من باب أولى.

فإنه لو قال: (لن يؤذوك) لاحتمل الوصول إليه من غير أذى فيناله منهم إزعاج وانقباض نفس.

---

(١) الكشاف ٢/١٠٨.

(٢) تفسير الرازي ٦/ ٣٨٠.

ولكن نفى ما هو أبعد من ذلك ، فنفى الوصول إليه فانتفى الأذى. ثم أبلغوه رسالة ربه بقولهم: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ والقِطْع من الليل: الطائفة منه ، أو بقطعة منه[١] أي لا تتأخر إلى الصبح.

﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾

الهاء ضمير الشأن وهي تفيد تعظيم ما سيصيبهم وتهويله.

و(مصيبها) خبر مقدم وليس مبتدأ ، ذلك لأن الإضافة غير محضة. فإن اسم الفاعل ههنا للاستقبال فهو نكرة.

و(ما أصابهم) معرفة فهو مبتدأ مؤخر. وقدم الخبر المتصل بضمير المرأة لأن الكلام عليها والاهتمام بذكر عاقبتها.

وقال: ﴿مَآ أَصَابَهُمْ﴾ فجاء بالاسم الموصول (ما) الدال على العموم والإبهام للدلالة على عظم ما سيصيبهم.

وقال: ﴿مُصِيبُهَا﴾ ولم يقل: (يصيبها) للدلالة على ثبات ذلك وتحققه.

وقال: ﴿أَصَابَهُمْ﴾ بالفعل الماضي ولم يقل: (يصيبهم) وذلك للدلالة على تحقق الوقوع.

فانظر كيف أكد بإن وجاء بضمير الشأن ، وعدل عن الفعل إلى الاسم في (مصيبها) ، وقدم الخبر ، وجاء بـ (ما) الدالة على الإبهام ، وعدل عن الفعل المضارع إلىٰ الماضي في (أصابهم) للدلالة على عظم ما سيحل بهم وتحققه.

جاء في (روح المعاني): «وضمير (إِنَّه) للشأن ، و(ما أصابهم) مبتدأ، و(مصيبها) خبره، والجملة خبر إن. . . والمراد من (ما) العذاب، ومن (أصابهم) يصيبهم ، والتعبير به دونه للإيذان بتحقيق الوقوع. وفي

---

(١) انظر البحر المحيط ٥/٢٤٨.

الإبهام ، واسمية الجملة ، والتأكيد ، ما لا يخفى» [١] .

* * *

﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾

أي موعد هلاكهم[٢] . وقدم الموعد لأنه هو المقصود والمطلوب لسيدنا لوط .

وقوله : ﴿ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ يشعر باستطالة سيدنا لوط للوقت وكأنه يريد أسرع من ذلك .

وهذا بين مقدار مساءته وضيق ذرعه ومقدار برمه بقومه .

«ويروى أن لوطاً عليه السلام قال : أريد أسرع من ذلك ، فقالت له الملائكة : أليس الصبح بقريب» [٣] .

وفي المجيء بالاستفهام التقريري وزيادة الباء في خبر (ليس) دون القول (إن الصبح لقريب) أو نحو ذاك ما لا يخفى .

وعلى أية حال هو يدل كما ذكرنا على مقدار برمه وضيق ذرعه .

* * *

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود : ٨٢]

جاء بالفاء للدلالة على القرب ذلك أن موعدهم الصبح وهو قريب من وقت إخبارهم له .

و(الأمر) يحتمل واحد الأوامر أي الأمر بالعذاب ، بمعنى أمرناهم

---

(١) روح المعاني ١٢/ ١١٢ .

(٢) البحر المحيط ٥/ ٢٤٩ .

(٣) البحر المحيط ٥/ ٢٤٩ .

بذاك. كما يحتمل واحد الأمور بمعنى الشأن كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، وقوله: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ [التوبة: ٤٨].

جاء في (روح المعاني): «﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي عذابنا، أو الأمر به.

فالأمر على الأول: واحد الأمور، وعلى الثاني: واحد الأوامر»[(١)].

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ قيل في (السجيل) إنها كلمة معربة من سنككل ومعناها حجر وطين مختلط[(٢)]، وقيل: ماء وطين[(٣)].

ولعل لفظ (السِّجِّيل) مأخوذ من (السِّجْل) بكسر السين وسكون الجيم بمعنى الصلب الشديد[(٤)].

و(السَّجيل) بفتح السين: الصلب الشديد، والسِّجِّيل: حجارة كالمدر[(٥)]. وقال أبو عبيدة هو: «الشديد من الحجارة الصلب»[(٦)].

و(منضود)

متتابع أرسل بعضه إثر بعض[(٧)] كقطار الأمطار[(٨)].

وذكر هنا وفي الحجر أن الحجارة من سجيل ولم يقل كما قال في الذاريات: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣] وذلك لأنه ذكر من

---

(١) روح المعاني ١٢/ ١١٢.
(٢) مفردات الراغب (السجيل)، وانظر الكشاف ٢/ ١٠٩.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٢٤٩.
(٤) انظر القاموس المحيط (السجل).
(٥) لسان لعرب (سجل).
(٦) البحر المحيط ٥/ ٢٤٩، وانظر روح المعاني ١٢/ ١١٣.
(٧) انظر الكشاف ٢/ ١٠٩.
(٨) روح المعاني ١٢/ ١١٣.

معاصيهم ومواقفهم في هود والحجر ما لم يذكره في الذاريات ، فجاء بما يدل على شدة هذه الحجارة وصلابتها في السورتين دون الذاريات .

فكان كل تعبير مناسبًا لموضعه .

وذكر في (هود) أنه منضود أي متتابع ، ولم يذكر ذلك في الحجر ، وذلك لأنه قال في هود: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣] ولم يقل مثل ذلك في الحجر .

فلما زاد في وصف الحجارة في هود فقال: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ. . .﴾ زاد في الوصف فقال: (منضود) .

ثم إنه لما قال إن مثلها يمكن أن يكون للظالمين على وجه العموم وليس ذلك مختصًّا بقوم لوط جاء بـ (منضود) للدلالة على الكثرة . والمنضود هو الذي نضد بعضه فوق بعض ، أي تتابع ، فناسب ذكر ذلك في هود .

* * *

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ .

مسوّمة ، أي عليها سيما ، وهي العلامة يعلم من شاهدها أنها ليست من حجارة الأرض[1] .

﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ .

«أي الحجارة الموصوفة بما ذكر .

(من الظالمين) من كل ظالم .

(ببعيد) فإنهم بسبب ظلمهم مستحقون لها . وفيه وعيد لأهل الظلم كافة»[2] .

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٢٥٠ ، وانظر روح المعاني ١٢/ ١١٣ .

(٢) روح المعاني ١٢/ ١١٤ .

وقال: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ ولم يقل: (وليست من الظالمين بعيدًا) أو (ببعيد) فجاء بالجملة الاسمية المنفية بـ (ما) وزاد الباء في الخبر لتوكيد عدم بعدها عنهم.

وقال: (ببعيد) ولم يقل: (ببعيدة) لأنه لا يريد البعد في المكان بل أراد البعد في الوقوع.

وقدم الجار والمجرور (من الظالمين) على متعلقه (بعيد) وذلك لأن الكلام على الظالمين وهم مدار الحديث، والعقوبة إنما كانت لهم.

وقد تقول: أليس من الأولى لو قال: (وليست هي من الظالمين ببعيد) فيؤكد الضمير المستتر في (ليست) فيفيد ذلك زيادة في التوكيد؟

فنقول: لا، وذلك لعدة أوجه:

منها: أن ذلك لا يخرجها عن كونها جملة فعلية، والاسمية أثبت من الفعلية وآكد.

ومنها: أن النفي بـ (ما) أقوى وآكد من النفي بـ (ليس) [1].

والأمر الآخر: أنه لو قال: (وليست هي من الظالمين ببعيد) لاحتمل أنه يفيد اختصاص عدم البعد بهذه العقوبة دون غيرها، أما غيرها من العقوبات فقد يكون بعيدًا منهم.

وهذا المعنى غير مراد ولا يصح.

أما في الآية فإنه ذكر عدم بعد أمثال هذه العقوبة من الظالمين ولم يخصها بالبعد بل قد يعاقبهم بغيرها.

* * *

---

(١) انظر معاني النحو ٤/ ٥٦٨.



قصة مدين وشعيب

قال تعالى :

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي

دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾
[هود: ٨٤ - ٩٥].

* * *

وردت هذه القصة في الأعراف وهود، ووردت لها إشارة قصيرة في العنكبوت مقدارها آيتان. قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴾
[العنكبوت: ٣٦ - ٣٧].

إن ما ورد في هاتين الآيتين إنما هو تلخيص لما مَرَّ من قصة شعيب مع مدين.

فقد ذكر دعوته لهم ملخصة بقوله: ﴿يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٦].

فذكر ما يتعلق بالعقيدة وهو قوله: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾

وذكر سلوكهم في الأرض وهو قوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

ثم ذكر موقفهم وعاقبتهم بأوجز تعبير وذلك قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾.

لقد ذكرنا ما ورد من هذه القصة في سورتي الأعراف وهود والتشابه والاختلاف فيها في كتابنا (من أسرار البيان القرآني) فلا نعيد القول فيها.

غير أننا سنذكر إشارات بيانية قليلة في هذه السورة مما لم نذكره في ذلك الموضع.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَـٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ

بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٤ - ٨٦]

لقد قال أولاً: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ﴾ فنهاهم عن النقص فيهما ، ثم قال بعد ذلك: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ فأمرهم بالإيفاء. قيل: ومن المعلوم أن عدم النقص يعني الإيفاء ، فكان الأمر بالإيفاء كالتكرار لما سبق.

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: النهي عن النقصان أمر بالإيفاء فما فائدة قوله: (أوفوا)؟

قلت: نُهوا أولاً عن القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان ؛ لأن في التصريح بالقبيح نعيًا على المنهي وتعبيرًا له ، ثم ورد الأمر بالإيفاء الذي هو حسن في العقول مصرحًا بلفظه لزيادة ترغيب فيه وبعث عليه» (١).

ويمكن أن يقال: إنه بدأ بالنهي عن النقص في المكيال والميزان لأن ذلك أسبق من الإيفاء ، فإنه لا بد أن يكون حجم المكيال وما يتعلق بالميزان سالمًا من النقص حتى يكون الإيفاء بالقسط ، فإن لم يكونا سليمين فلا يكون إيفاء بالقسط ، فنهى عن نقص المكيال والميزان أولاً ثم أمر بالإيفاء بالقسط بعدهما فلا يكون تكرارًا ، وإنما قدم السبب على المسبب.

وقد يكون ذلك لتعظيم هذا الأمر فيكون ذلك كالتوكيد وذلك نحو قوله: (أقول له ارحل لا تقيمن عندنا) فقوله: (لا تقيمن عندنا) بمعنى ارحل.

---

(١) الكشاف ٢/ ١٠٩ ، وانظر البحر المحيط ٥/ ٢٥٢.

ونحو قولك: (امش لا تقف) و(استيقظ لا تنم) وذلك غير عزيز في اللغة. وهو من الحسن بمكان إذا اقتضاه الحال.

وأما تقييده بالقسط وهو العدل فلإعطاء كل ذي نصيب نصيبه من دون بخس، واختيار (القسط) ههنا أنسب من العدل؛ وذلك لأن من معاني القسط: الحصة والنصيب.

والغرض من الكيل والوزن أن يأخذ الشخص نصيبه، فناسب ذلك ذكر القسط.

هذا إضافة إلى أنه لم يذكر مع الوزن في القرآن غير القسط، وهو أنسب.

﴿إِنِّيَ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾.

أي إنكم في سعة من العيش ورخص في الأسعار فلماذا تلجأون إلى نقص المكيال والميزان، فاستديموا هذا الخير بإعطاء كل ذي حق حقه حتى لا يزول عنكم ما أنتم فيه من الخير.

جاء في (الكشاف) في قوله تعالى: ﴿إِنِّيَ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾: «يريد بثروة واسعة تغنيكم عن التطفيف أو أراكم بنعمة من الله حقها أن تقابل بغير ما تفعلون أو أراكم بخير فلا تزيلوه عنكم بما أنتم عليه» [(١)].

وقال: ﴿إِنِّيَ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ ولم يقل: (وإنكم بخير) فجعل خيرهم ظاهرًا للعيان يبدو للرائي وليس أمرًا مستورًا كمن يخفي ما عنده من الخير.

﴿وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾.

---

(١) الكشاف ٢/ ١٠٩، وانظر البحر المحيط ٥/ ٢٥٦، روح المعاني ١٢/ ١١٤.

وصف اليوم بالإحاطة ولم يقل (إني أخاف عليكم عذابًا محيطًا) فجعل اليوم محيطًا بهم لا ينفك عنهم ساعة ، وذلك أبلغ وأعم. ولو قال: (إني أخاف عليكم عذابًا محيطًا) لجعل العذاب محيطًا بهم وقد يكون ذلك في ساعة من ساعات اليوم أو وقت من أوقاته ، فجعل العذاب شاملاً طوال اليوم.

جاء في (الكشاف): «وأصله من إحاطة العدو.

فإن قلت: وصف العذاب بالإحاطة أبلغ أم وصف اليوم بها؟

قلت: بل وصف اليوم بها ؛ لأن اليوم زمان يشتمل على الحوادث ، فإذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للمعذب ما اشتمل عليه منه كما إذا أحاط بنعيمه» (١).

﴿ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾

جاء ذلك بعد قوله: ﴿ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ﴾. وهو أعم من إيفاء المكيال والميزان ، فإن البخس قد يكون في غير ما يكال وما يوزن من نحو الاستئجار والتأجير وبيع أو شراء ما لا يكال أو يوزن كالبساتين والدور وعموم الأملاك وعموم ما يشترى أو يباع ، وتقويم البضائع وغيرها من الأمور. قال تعالى في يوسف عليه السلام: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ [يوسف: ٢٠].

وقال في كتابة الدَّين: ﴿ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقال في توفية الأعمال: ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ [هود: ١٥].

---

(١) الكشاف ٢/ ١٠٩ ، وانظر البحر المحيط ٥/ ٢٥٢.

جاء في (روح المعاني): «﴿ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ ﴾ يحتمل أن يكون تعميمًا بعد تخصيص، فإنه يشتمل الجودة والرداءة، وغير المكيل والموزون أيضًا. فهو تذييل وتتميم لما تقدم»[١].

* * *

﴿ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾

وهو أعم من البخس في الحقوق، فإنه يعم جميع مصالح العباد وعموم العدوان على خلق الله والإفساد في الأرض.

جاء في (الكشاف): «والعثي في الأرض نحو السرقة والغارة وقطع السبيل»[٢].

وجاء في (روح المعاني) أن «العثي يعم تنقيص الحقوق وغيره؛ لأنه عبارة عن مطلق الفساد»[٣].

وجاء في (تفسير الرازي): «﴿ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾ معناه ولا تسعوا في إفساد مصالح الغير، فإن ذلك في الحقيقة سعي منكم في إفساد مصالح أنفسكم.

والثاني: أن يكون المراد من قوله: ﴿ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾ مصالح دنياكم وآخرتكم.

والثالث: ولا تعثوا في الأرض مفسدين مصالح الأديان»[٤].

---

(١) روح المعاني ١٢/ ١١٦.

(٢) الكشاف ٢/ ١١٠.

(٣) روح المعاني ١٢/ ١١٦.

(٤) تفسير الرازي ٦/ ٣٨٦.

فتدرج من الخصوص إلى العموم ، ومن السيء إلى الأسوأ ، ومن الكبيرة إلى ما هو أكبر .

فبدأ بالنقص في المكيال والميزان ، ثم تدرج إلى البخس وهو أعم لأنه يكون في المكيال والميزان وغيرهما ، ثم تدرج إلى ما هو أعم وأعظم وهو العثي في الأرض إفسادًا .

فبدأ بنقص الحقوق وانتهى بالعدوان والإفساد .

﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

أي ما يبقيه الله لكم من الرزق الحلال خير لكم إن كنتم مؤمنين .

وإضافة البقية إلى الله من حيث إنها رزقه[1] .

* * *

﴿ قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود: ٨٧]

أنكروا عليه أمرين بمقابل دعوته لهم إلى أمرين .

فقد قال لهم : ﴿ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾

فقالوا له : ﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾ ؟

وقال لهم : ﴿ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۖ ﴾ ، ﴿ وَيَـٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾

فقالوا له : ﴿ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ ۖ ﴾

أي أصلاتك تأمرك أن نترك فعل ما نشاء في أموالنا ؟ !

وذكروا له صفتين فيه : الحليم الرشيد .

---

(١) انظر الكشاف ٢/ ١١٠ ، البحر المحيط ٥/ ٢٥٢ ، تفسير الرازي ٦/ ٣٨٦ .



فدعاهم إلى أمرين ، وردوا عليه بأمرين ، ووصفوه بصفتين .

وقولهم : ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾

الظاهر أنه من باب الاستهزاء والتهكم .

أي إنك معروف بالحلم والرشد فكيف تقول ذاك؟!

وتعريف الوصفين للدلالة على أنه معروف بهاتين الخلتين ، أي إنك المعروف بهاتين الخصلتين ، ذكروا ذلك تهكمًا أو حقيقة .

وجاء بضمير الفصل والتوكيد بإن واللام وتعريف الوصفين ليدل على قصر الحلم والرشد عليه دون غيره استهزاء ، فإنه لم يقل بمقالته أحد من قومه غيره .

* * *

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨]

قوله : ﴿ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ مَرَّ بيان ذلك في قصة نوح .

﴿ وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ ﴾ .

أي رزقًا واسعًا حلالاً ولا أبخس حقًّا .

ولست فقيرًا حتى تقولوا إنه يبتغي المال والسعة في المكيال والميزان .

وقيل : هو ما رزقه من النبوة والحكمة[١] .

ولا مانع أن يكون ذلك جميعًا في النبوة واليسر في المال .

* * *

---

(١) انظر الكشاف ٢/ ١١١ .

﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾

«يقال: (خالفني فلان إلى كذا) إذا قصده وأنت مولٍّ عنه، (وخالفني عنه) إذا ولى عنه وأنت قاصده. ويلقاك الرجل صادرًا عن الماء فتسأله عن صاحبه فيقول: (خالفني إلى الماء) يريد أنه قد ذهب إليه واردًا وأنا ذاهب عنه صادرًا. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾ يعني أن أسبقكم إلى شهواتكم التي نهيتكم عنها لأستبدّ بها دونكم»[١].

* * *

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ﴾

أي مدة استطاعتي ذلك فلا أقصر في ذلك ما دمت متمكنًا.

ونفى وأثبت بـ (إنْ) و(إلا) للدلالة على قصر إرادته على ذلك، فإنه لم يقل: (وأنا أريد الإصلاح) فلا ينفي ذلك إرادة شيء معه، وإنما قال: ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ﴾ فقصر إرادته على ذلك وليس ثمة شيء آخر.

ونفى بـ (إنْ) ولم ينف بـ (ما)؛ لأن (إنْ) أقوى من (ما) في النفي وآكد[٢].

﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

قدم الجار والمجرور في الموضعين للدلالة على الحصر، فإنه لا يتوكل إلا عليه حصرًا، ولا ينيب إلا إليه حصرًا. فلا يتوكل على غيره ولا ينيب إلى أحد سواه.

* * *

---

(١) الكشاف ٢/ ١١١، وانظر البحر المحيط ٥/ ٢٥٤.

(٢) انظر معاني النحو ٤/ ٥٧٦.

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٩]

أي لا يحملكم خلافي وعداوتي على أن يصيبكم مثل ما أصاب الأقوام الآخرين من الدمار والهلاك.

﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ «يعني أنهم أهلكوا في عهد قريب من عهدكم، فهم أقرب الهالكين منكم. أولا يبعدون منكم في الكفر والمساوئ وما يستحق به الهلاك»[١].

وقال: ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ ولم يقل: (ببعيدين) لأنه أراد «ما إهلاكهم ببعيد أو ما هم بشيء بعيد أو بزمان أو مكان بعيد»[٢].

* * *

﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود: ٩٠]

مَرَّ بيان نحو هذا في أول السورة.

وقال أولاً: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ﴾ بإضافة الرب إلى ضميرهم، وقال فيما بعد: ﴿ إِنَّ رَبِّي ﴾ بإضافته إلى ضميره ليبين أن ربه وربهم واحد، وأن عليهم أن لا يعبدوا إلا ربه وربهم ويتوبون إليه فليس لهم رب غيره.

* * *

﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود: ٩١]

﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ قدم الجار والمجرور ليبين انتفاء عزته عليهم

(١) الكشاف ٢/ ١١٢.
(٢) الكشاف ٢/ ١١٢، وانظر البحر المحيط ٥/ ٢٥٥.



بصورة خاصة ، وقد يكون عزيزًا على غيرهم ممن آمن به وعزيزًا عند رهطه .

فدل ذلك على نفي العزة عليهم وإثباتها على غيرهم وهم رهطه ومن آمن به . وأوضح ذلك قولهم : ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ ومعنى ذلك أنه عزيز عند رهطه .

ولو قال : (وما أنت بعزيز علينا) لنفى عزته عندهم ولم يثبتها عند غيرهم .

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل : (أعز عليكم مني) لأن الله هو الذي أرسله فعزته من عزة مرسله . فإن الرسول عزته إنما هي من عزة من أرسله ، فكلما كان المرسِل عزيزًا كان رسوله كذلك .

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ .

قال : (إن ربي) بإضافة الرب إليه لأنه سيده والقيم عليه . ولم يقل : (ربكم) وإنما أضاف الرب إليه ليدل على عزته .

وقدم الجار والمجرور (بما تعملون) على خبر إن (محيط) ؛ وذلك لأن الكلام على عملهم وقد مَرَّ ذكر الكثير من أعمالهم .

فإنه سبق هذه الآية ذكر العمل ، وجاء بعدها ذكر العمل فقال : ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ ﴿إِنِّي عَٰمِلٌ﴾ .

فناسب تقديم قوله : (بما تعملون) .

* * *

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود : ٩٣]

معنى قوله : ﴿ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي داوموا على ما أنتم عليه من

الكفر فسوف تعلمون عاقبتكم وترون جزاء إصراركم.

وهو تهديد لهم.

ومعنى قوله: ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ أي أنا مداوم على عملي مستمر على ذلك من الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته.

* * *

﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾

قال هنا: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾.

وقال في قصة نوح في هذه السورة: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ بإدخال الفاء على (سوف).

والذي يظهر أن إدخال الفاء هنا آكد من عدم ذكرها، فقد يفيد إدخال الفاء التوكيد في مواضع(١).

والذي يؤيد ذلك ما جاء في الآيتين:

١ ـ فقد قال في قصة نوح: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٩].

وقال في قصة شعيب هذه: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾.

فزاد في قصة نوح ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ ولم يقل مثل ذلك في قصة شعيب.

---

(١) انظر معاني النحو ٤/٤٨٧ وما بعدها (باب الشرط)، وانظر حاشية الدسوقي ١/١٧٧.

٢ ـ إن ربنا قال لسيدنا نوح : ﴿ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ .

ولم يقل مثل ذلك في قصة شعيب .

٣ ـ إن ربنا أخبر نوحًا بتعجيل عقوبة قومه وطلب منه أن يصنع الفلك . ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [هود : ٣٧] .

ولم يخبر شعيبًا بنهاية قومه .

٤ ـ إن هذا القول قاله سيدنا نوح وهو يصنع الفلك ، وذلك يدل على قرب نهاية القوم وعقوبتهم .

كل ذلك يدل على توكيد نهاية القوم في قصة نوح ودنو ساعة النجاة .

ولست أدري فلعل إدخال الفاء على (سوف) يدل على أن مجيء العذاب لقوم نوح أقرب من مجيئه لقوم شعيب وإن كانا جميعًا في المستقبل ، فإن الفاء قد تفيد التعقيب .

إن (سوف) في كلا الموضعين تفيد الاستقبال ، غير أن دنو العذاب من قوم نوح أقرب . ولعل إدخال الفاء إشارة إلى ذلك ، علاوة على ما ذكرنا من التوكيد والله أعلم .

* * *

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [هود : ٩٤]

قال ههنا : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا ﴾ بإدخال الواو على (لما) .

وقال في قصة صالح : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ بالفاء .

وذلك أن مجيء العذاب في قصة صالح أقرب ، ذلك أنه توعدهم أن العذاب سيأتيهم بعد ثلاثة أيام ، فقد قال لهم :

﴿ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]

فكان العذاب لقوم صالح أقرب من قوم شعيب ، فجاء بالفاء الدالة على التعقيب .

وأما بقية الآية وما بعدها وهو قوله: ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ ﴾ [هود: ٩٤ ـ ٩٥] فقد مَرَّ بيان ذلك في قصة صالح .

وقوله: ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ شبه فيه هلاكهم بهلاك ثمود «وإنما شبه هلاكهم بهلاكهم لأن عذاب كل كان بالصيحة» [1] .

* * *

(١) روح المعاني ١٢/ ١٢٩ .



قصة موسى

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ [هود: ٩٦ ـ ٩٩]

ذكر في سورة هود من قصة موسى وفرعون العاقبة التي تلي العاقبة الأولى وهي غرق فرعون وجنوده. وهو ما ورد في سورة البقرة والأعراف ويونس.

فقد ورد في البقرة والأعراف ويونس غرق فرعون وجنوده في اليم.

وأما في سورة هود فقد ذكر أمرهم في الآخرة.

قال في البقرة: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [البقرة: ٥٠].

وقال في الأعراف: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

وقال في يونس: ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٩٠].

لقد ذكر ربنا أنه أرسل موسى بآياته وسلطان مبين.

والآيات هي الآيات الدالة على نبوته من قلب العصا حية ونحوها من المعجزات، ومما قيل في السلطان المبين أنه الحجج التي حاجّ بها فرعون وملأه[1]، وهي سلطان قاهر.

وكل من الآيات والسلطان ملزم لمن أراد الحق والحقيقة.

وقد وصف السلطان بأنه مبين، أي ظاهر الدلالة ليس فيه غموض ولا شك. غير أن الملأ اتبعوا أمر فرعون ولم ينصاعوا للحق مع أن أمر فرعون كله غي وضلال.

وكما اتبعوا أمر فرعون في الدنيا فأغرقهم قادهم في الآخرة إلى النار فأحرقهم.

١ ـ لقد قال: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ﴾ ولم يقل: (فتبعوا أمر فرعون) وذلك للمبالغة في اتباعهم لأمر فرعون.

ومن المعلوم أن (اتبع) يفيد المبالغة في الاتباع، بخلاف (تبع)، ذلك أن (افتعل) يفيد المبالغة والاجتهاد والتكثير.

٢ ـ وقال: ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ فنفى بـ (ما)، وأدخلها على الجملة الإسمية، وأكد الخبر بالباء، وكل ذلك يفيد المبالغة والتأكيد في نفي الرشد عن فرعون وأمره.

فهو لم يقل: (وليس أمر فرعون رشيدًا أو برشيد) فتكون الجملة فعلية دالة على الحدوث.

ولم يقل: (وما أمر فرعون رشيدًا) من غير توكيد للخبر.

---

(١) انظر روح المعاني ١٢/ ١٣٥.

وإنما قال: ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ فنفى الرشد عن أمر فرعون على وجه الثبوت والدوام، وأكد ذلك بالباء الزائدة.

٣ ـ معنى قوله: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ﴾ أي يتقدمهم إلى النار وهم يتبعونه[١]. فكما اتبعوا أمره في الدنيا اتبعوه في الآخرة فقادهم إلى النار، «وكما كان قدوة في الضلال متبعًا كذلك يتقدمهم إلى النار وهم يتبعونه»[٢].

٤ ـ قال: ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ﴾ بالماضي، ولم يقل: (فيوردهم) مع أن الحدث مستقبل، وذلك للدلالة على أن الأمر كائن لا محالة، وهو بمنزلة الماضي الذي حصل.

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: هَلاَّ قيل: يقدم قومه فيوردهم، ولم جيء بلفظ الماضي؟

قلت: لأن الماضي يدل على أمر موجود مقطوع به، فكأنه قيل: يقدمهم فيوردهم النار لا محالة»[٣].

٥ ـ قال: ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ﴾ ولم يقل: (فوردوا النار) أي أن فرعون هو الذي أوردهم إياها.

كما لم يقل: (فأوردناهم النار) بإسناد الفعل إلى نفسه سبحانه، بل إن فرعون هو الذي تقدمهم حتى أوردهم النار.

ولم يقل أيضًا: (أوصلهم إلى النار) إذ ربما دل ذلك على الوصول دون الدخول، وإنما قال: ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ﴾ أي أدخلهم إياها.

٦ ـ قال: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾ والمورود هي النار، و(الورد):

---

(١) انظر الكشاف ٢/ ١١٤.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٢٥٩.
(٣) الكشاف ٢/ ١١٤.

المورد، أي بئس ما وردوه وهو النار.

واختار الورد «لأن الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد»[(١)] فكانت النار موردهم.

واختار لفظ (الورد) على (المكان) أو نحوه ليدل على أنهم عطاش، وإنما يذهب إلى الورد العطشان.

فأوصلهم فارطهم ومتقدمهم إلى النار ليسكنوا عطشهم ويبعدوا عنهم الظمأ فيا بئس ما وردوا.

٧ ـ قال هنا: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾.

وقال في السورة نفسها في قصة عاد: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ [هود: ٦٠] فذكر (الدنيا) بعد (هذه).

وقد ذكرنا سبب ذلك في قصة عاد.

٨ ـ قال هنا: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ ببناء الفعل (أُتبعوا) للمجهول.

وقال في سورة القصص: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ [القصص: ٤٢] بالبناء للفاعل، بإسناد الفعل إلى نفسه سبحانه، وذلك لأكثر من سبب منها:

أ ـ أن القصة في سورة القصص أطول مما في هود، فإنها في هود أربع آيات من (٩٦ إلى ٩٩).

وأما في القصص فإنها إحدى وأربعون آية (من ٣ إلى ٤٣).

وأن (أتبعناهم) أطول من (أتبعوا) فناسب طول البناء طول القصة.

---

(١) الكشاف ٢/ ١١٤.

ب ـ ذكر من تكذيب فرعون وأتباعه ومعاندتهم في القصص ما لم يذكره في هود ، وذكر استكباره واستكبار جنوده في الأرض بغير الحق ، فناسب أن يتولى ربنا إهلاك هؤلاء الظلمة المستكبرين.

ج ـ ذكر في القصص أن فرعون ادّعى أنه هو الإله الوحيد وليس من يذكره موسى فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ [القصص: ٣٨].

فناسب أن يعاقب الإله الحق هذا الإله المدعي ، فأظهر نفسه ليذله ويتبين من منهما الإله الحق؟

د ـ جرى إسناد العقوبات في سورة القصص إلى الله ليبين أنها من الإله الحق فقال: ﴿ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ ﴾ [القصص: ٤٠] ﴿ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ ﴾ [القصص: ٤١].

فناسب أن يقول: ﴿ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ ﴾ بالإسناد إليه سبحانه.

وليس السياق كذلك في هود.

فناسب كل تعبير موضعه.

٩ ـ قال: ﴿ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ﴾

والرِّفد هو العطاء والعون.

والمرفود: المعطى.

أي بئس العطاء الذي أُعطوه ، وبئس العون الذي أعينوا به.

وقد اختار الرفد على العطاء لأن الرفد له معنيان: العطاء والعون. وملأ فرعون إنما اتبعوه ليعطيهم ويعينهم فكان لهم الإغراق في الدنيا ،

والنار في الآخرة ، واللعنة في الدنيا والآخرة .

جاء في (الكشاف) : «﴿بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾ رفدهم ، أي بئس العون المعان ، وذلك أن اللعنة في الدنيا رفد للعذاب ومدد له ، وقد رفدت باللعنة في الآخرة . وقيل : بئس العطاء المعطى» [(١)] .

* * *

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾ [هود : ١٠٠ ـ ١٠١]

شبه ما بقي من القرى «بالزرع القائم على ساقه ، وما عفا وبطل بالحصيد» [(٢)] .

و(الحصيد) فعيل بمعنى (مفعول) أي محصود ، وهو أبلغ من (مفعول) ، فالجريح أبلغ من مجروح وأعم . فصيغة (فعيل) بمعنى (مفعول) لا تقال إلا لمن اتصف بالوصف ووقع عليه الفعل ، ولا يقال لمن لم يقع عليه الفعل [(٣)] ، فلا يقال لمن لم يقتل : (قتيل) ولا لمن لم يجرح : (جريح) ، بخلاف (مفعول) فإنها تقال لمن وقع عليه الفعل ولمن لم يقع عليه الفعل ، وإنما هو متوقع وقوعه ، فقد تقول لشخص : (أراك مقتولاً في هذه الرحلة) أي ستقتل . قال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ [هود : ١٠٣] وهو يوم القيامة ولم يقع بعد ، فاستعمل (مجموع) و(مشهود) بمعنى أنه سيجمع فيه الناس ويشهدونه .

---

(١) الكشاف ٢/ ١١٤ .

(٢) روح المعاني ١٢/ ١٣٨ .

(٣) انظر (معاني الأبنية في العربية) ص ٦٠ وما بعدها .



وقال: ﴿مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ﴾ ولم يقل: (ومنها هالك أو عافٍ) أو نحو ذلك، وإنما قال: (حصيد) أي حصده حاصد، بمعنى أن هناك ذاتًا حصدت هذه القرى كما يحصد الزرع، وهو ربنا سبحانه الذي أهلكها لأنها عصت أمر ربها وكذبت رسله.

وقال: ﴿مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ﴾ والمعنى (منها قائم ومنها حصيد) أي بعضها قائم وبعضها حصيد. وحذف (منها) الثانية لأنها معلومة ظاهرة المعنى.

* * *

﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾ [هود: ١٠١]

في هذه الآية أمور بيانية دقيقة نذكر منها:

١ ـ أنه قال: ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ﴾ ولم يقل: (فلم تغن) ذلك أن النفي بـ (ما) آكد؛ لأنه جواب لـ (لقد) [1].

و(لقد) جواب قسم مقدر، ويدل على ذلك الاستعمال القرآني في نحو هذا الاستعمال، فقد قال أصحاب الأعراف في الآخرة لأهل النار: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٨] فنفى بـ (ما) وذلك لشدة الأمر وفظاعته.

وقال في هلاك أصحاب الحجر: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ۝٨٣ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [الحجر: ٨٣ ـ ٨٤].

وقال الذي أوتي كتابه بشماله: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٨] فنفى كل ذلك بـ (ما).

---

(١) انظر (معاني النحو) ٤/ ٥٧٠ وما بعدها.



في حين قال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥].

فنفى عدم الإغناء بـ (لم) ؛ ذلك لأنه عدم إغناء موقوت بالمعركة ، ثم إن هؤلاء مسلمون وقد انتصروا فيما بعد.

فنفى عدم الإغناء الشديد البالغ بـ (ما)، والذي هو دونه نفاه بـ (لم).

٢ ـ قال: ﴿ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ﴾ ولم يقل: (اللاتي) وذلك للدلالة على الكثرة ، فإن الوصف لغير العاقل بالمفرد يدل على الكثرة ، فقولك: (أنهار جارية) يدل على كثرة الأنهار ، وهي أكثر من (أنهار جاريات). ونحوه (أشجار مثمرات) و(أشجار مثمرة).

جاء في (روح المعاني): «قيل... إن (التي) في جمع غير عالم أكثرمن (اللاتي)» [(١)].

فهذه الآلهة على كثرتها لم تغن عنهم شيئًا. ثم إن هذه قيلت في أمم متعددة ولكل منها آلهة ، فاختار (التي) لتدل على الكثرة في نحو هذا.

٣ ـ وقال: (يدعون) بالفعل المضارع وذلك «لحكاية الحال الماضية أو للدلالة على استمرار عبادتهم لها» [(٢)].

٤ ـ وقال: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ فجاء بـ (من) المؤكدة الدالة على الاستغراق، أي لم تغن أي شيء ، على سبيل الاستغراق.

وقوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ يحتمل أن يكون المعنى نفي أي شيء من الإغناء أو أي شيء من الأشياء[(٣)].

---

(١) روح المعاني ١٢/ ١٣٨ .

(٢) روح المعاني ١٢/ ١٣٩ .

(٣) انظر روح المعاني ١٢/ ١٣٩ .

٥ ـ قال: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ أي تخسير ، فنفى بـ (ما) ولم ينف بـ (لم) ، فلم يقل: (ولم يزيدوهم) وذلك للتأكيد كما ذكرنا في نقطة سابقة.

ألا ترى أنه قال في آية أخرى على لسان سيدنا نوح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٥ ـ ٦].

فنفى بـ (لم) فقال: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ﴾ دون (ما)؛ وذلك لأن هذه الزيادة دون ما ذكره في سورة هود.

فقد قال في سورة نوح إن دعاءه زادهم فرارًا.

وما ذكره في سورة هود أن آلهتهم زادتهم هلاكًا وتخسيرًا.

ولا شك أن الزيادة في هود كانت أشد وأفظع فنفى بـ (ما).

٦ ـ قال تعالى: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾

والتتبيب هو التخسير ، غير أنه لم يقل: (وما زادوهم غير تخسير) كما قال في قصة سيدنا صالح ، فقد قال على لسان سيدنا صالح: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٣].

وقال ههنا: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ ذلك أن التتبيب أشد من التخسير ، فإنه تخسير وزيادة ، ذلك أن معنى التتبيب: الهلاك والقطع والتخسير.

فقد قيل: «إن مادة التباب تدور على التقطع وهو مؤد إلى الهلاك»[1]. وذلك لأن المعصية التي ذكرت ههنا أكبر مما ورد على

---

(١) روح المعاني ٣٠/ ٢٦٠ ، وانظر القاموس المحيط (تبَّ).

لسان نبي الله صالح ، فإنها هنا في الكلام على الأمم التي كانت تعبد الآلهة من دون الله ، وأما في قصة صالح فقد قال: ﴿ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ ، فذكر عموم المعصية، وهي ولا شك دون ما ذكره في الأمم الهالكة من عبادة غير الله ، فإن المعصية قد تكون صغيرة وقد تكون كبيرة.

فما ذكره في الأمم السابقة هي من أكبر المعاصي وأعظمها. ولا شك أن العقوبة على قدر المعصية.

فناسب ذكر التتبيب معها دون ذكر التخسير ، فكان كل تعبير في موضعه أنسب.

* * *

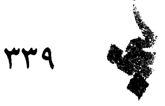
﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ [هود: ١٠٢ ـ ١٠٤]

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ ﴾

جاء بالواو فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ ﴾ ليدل على أنه يفعل مثل ذلك أيضًا مع القرى إذا اتصفت بالظلم. ولم يقل: (كذلك أخذ ربك) من دون واو لئلا ينصرف الذهن إلى ما مضى من الأحداث دون ما يقع فيما بعد.

وأضاف الأخذ إلى ربه ليدل على أن ربه هو الذي أخذ القرى الهالكة الظالمة ، وهو الذي يفعل مثل ذلك إذا ظلم أهل القرى. وفي ذلك تهديد ووعيد عظيمان للظالمين ، وأنه يستأصلهم مع قراهم التي يسكنونها ، ولا تنفع الظالمين كثرتهم ومؤازرة بعضهم بعضًا ، فإن ربك يأخذهم كلهم ولا يبقي منهم أحدًا.

لقد قال: ﴿ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ ﴾ ولم يقل: (إنْ أخذ القرى) ليدل على أن



ذلك واقع إذا وجد الظلم ، فحيث وجد الظلم وعم القرى أخذهم ربنا . فإن (إذا) يؤتى بها في الأمور الكثيرة الوقوع أو المقطوع بحصولها ، بخلاف (إنْ) فإنه قد يؤتى بها في المشكوك بوقوعه أو النادر أو المستحيل[1] .

وقال : ﴿ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ ﴾ ليدل على أن ذلك واقع إذا كانت صفة الظلم ثابتة فيها .

﴿ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴾

ذكر لأخذه صفتين : الألم والشدة . واجتماع هاتين الصفتين يبين هول أخذه سبحانه وعظمته ، فإن كل صفة من هاتين الصفتين لها عظمها ورهبتها فكيف إذا اجتمعتا؟!

وربنا قد يفرد كل صفة من هاتين بأمر فيقول : (عذاب أليم) ، ويقول : ﴿ إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ ، واجتماعهما يدل على عظم أخذه .

* * *

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴾ [هود : ١٠٣]

قال : ﴿ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ ﴾ ولم يقل : (مجموع فيه الناس) للدلالة على عظم ذلك اليوم ، فإن الناس يجمعون له ولأجله ، فالجمع إنما يكون لأجل ذلك اليوم ، فهو علة الجمع ، ولو قال : (فيه) لكان المعنى أنهم مجموعون فيه لأمر آخر .

وإنما قال : (له) ليدل على أنه هو الغرض من جمعهم كما قال تعالى : ﴿ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ ﴾ [التغابن : ٩] ، وقال : ﴿ فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ ﴾ [آل عمران : ٢٥] .

---

(١) معاني النحو ٤/٤٤٨ وما بعدها .

وقال: ﴿مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ فجاء باسم المفعول، والمعنى (سيجمعون له) للدلالة على أنه كائن لا محالة.

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: لأي فائدة أوثر اسم المفعول على فعله؟

قلت: لما في اسم المفعول من دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم، وأنه يوم لا بد من أن يكون ميعادًا مضروبًا لجمع الناس له، وأنه الموصوف بذلك صفة لازمة، وهو أثبت أيضًا لإسناد الجمع إلى الناس وأنهم لا ينفكون منه» (١).

* * *

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾

«الأجل يطلق على مدة التأجيل كلها وعلى منتهاها، فيقولون: انتهى الأجل، وبلغ الأجل آخره» (٢).

وقيل: (لأجل معدود) «أي لانتهاء مدة قليلة، فالعدّ كناية عن القلة، وقد يجعل كناية عن التناهي» (٣).

* * *

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]

حذف الياء من (يأت) والأصل: (يأتي).

وحذف التاء من (تَكلم) والأصل: (تتكلم)، في حين ذكر الياء في مواطن أخرى، قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن

---

(١) الكشاف ٢/ ١١٥.

(٢) الكشاف ٢/ ١١٥.

(٣) روح المعاني ١٢/ ١٣٨.

قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢ ـ ٥٣].

«فحذف الياء من (يأت) واجتزأ بالكسرة في آية هود دون الآيتين الأخريين ولهذا الحذف سببه.

فقد ذكر الله في عدة مواطن من هود تعجل الذين كفروا للعذاب، كما تردد الوعد بقرب نزوله، فقد قال: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓۗ﴾ [هود: ٨].

وقال قوم نوح: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢].

وقال صالح لقومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ۝٦٤ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٤ ـ ٦٥].

وقال في قوم لوط: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

وقال في موطن آخر: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣].

فأنت ترى أنه تردد ذكر استعجال العذاب من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه تردد الوعد بقرب حلوله، فكان من المناسب الحذف من فعل الإتيان إشعارًا بقرب حلوله.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه ذكر في سورة (هود) عقاب الأمم السابقة وهلاكهم، ثم ذكر أن يوم القيامة آت وأنه سيحل فيه عقاب

الكافرين كما حل عقاب الأمم السابقة ، وإنْ هو إلا أجل معدود فيحل ، فحذف الياء من فعل الإتيان للدلالة على سرعة الإتيان.

وليس الأمر كذلك في الآيات الأخرى.

هذا ومن ناحية أخرى أنه تردد ذكر الإتيان باشتقاقاته المختلفة في كل من (الأنعام) و(الأعراف) أربعًا وعشرين مرة ، وفي (هود) ثلاث عشرة مرة ، فلما كثر الفعل في سورتي الأنعام والأعراف كثّر البناء ، ولما قل تردده في هود قلل من البناء. . .

ويمكن أن يضاف شيء آخر: وهو أنه لما منع الكلام في آية هود إلا بإذنه حذف من الكلام ، فحذف الياء من (يأتي) وحذف التاء من فعل التكلم فقال: (تكلّمُ) ولم يقل: (تتكلم) إشعارًا بقلة الكلام في ذلك الوقت» [(١)].

وقدم (الشقي) على (السعيد) لأنه سبق الكلام على الأشقياء من الأمم المعذبة. ألا ترى أنه قدم السعداء على الأشقياء في آل عمران في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٦] فقدم الذين ابيضت وجوههم لأنه سبق الكلام على المسلمين ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٠٠] ويستمر الكلام في مخاطبة المؤمنين إلى أن قال: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ فناسب كل تعبير سياقه الذي ورد فيه.

* * *

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود: ١٠٦ ـ ١٠٧]

---

(١) التعبير القرآني ١٠٩ ـ ١١٠.

قدم الجار والمجرور (لهم) على (فيها) فقال: (لهم فيها) ولم يقل: (فيها لهم) لأن الكلام على الذين شقوا لا على النار فقدم ضميرهم على ضمير النار.

وذكر هنا أن لهم فيها زفيرًا وشهيقًا، في حين ذكر في موضع آخر أن لهم فيها زفيرًا وهم فيها لا يسمعون، ولم يذكر الشهيق. قال تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٧ ـ ١٠٠].

ذلك أن العذاب في آيات الأنبياء أشد من أكثر من جهة:

١ ـ فقد ذكر الكفرة ومعبوديهم من دون الله فقال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهذا إما أن يكون شركًا أو أكبر من الشرك وهو أكبر الذنوب.

في حين ذكر الأشقياء على العموم في آية هود وهم أعم مما ذكره في الأنبياء. فإن من بين الأشقياء من لا يكون عبد الصنم، وقد يكون من أهل الكتاب. فذكر في آيات الأنبياء أشقى الأشقياء وهم الذين يعبدون من دون الله.

٢ ـ إنه ذكرهم وآلهتهم وجمعهم معًا في العذاب، وهو أشد تبكيتًا وإهانة لهم ولآلهتهم التي يعبدونها، فاقتضى ذلك زيادة تعذيبهم.

٣ ـ إنه قال عنهم إنهم حصب جهنم، وهو أسفل النار، فإن الحصب إنما هو في القاع والنار تسعّر عليه وبه.

٤ ـ قال: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ ولم يذكر الشهيق. فإن الإنسان يحتاج

الشهيق ليزفر ، وإن لم يستطع أن يأخذ الشهيق ضاق صدره. وهو ظاهر فيما نرى في المصابين بأمراض التنفس ممن لا يستطيع أن يأخذ الشهيق ، فإن الدنيا تضيق به على سعتها، وهو مستعد أن يدفع كل ما يملك ليشهق .

فدل ذلك على ضيق صدورهم ، فهم يطلبون الشهيق ولكن لا يمكّنون منه ، وذلك من أشد العذاب. فإنه إذا كان الشخص في جنة ولم يستطع أن يأخذ الشهيق كان في عذاب، فكيف إذا كان مع ذلك في النار؟!

٥ ـ وأضاف إلى ذلك أنهم لا يسمعون فكان عذابًا آخر .

٦ ـ قال في آية هود: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ فذكر استثناءً وهي مشيئته سبحانه. والله أعلم بهذه المشيئة ، حتى قال بعضهم إنه قد تتسع رحمته فيدرك شيء منها هؤلاء المعذبين .

ولم يقل مثل ذلك في آيات الأنبياء ولم يستثن ، وإنما قال: ﴿ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

فكان كل تعبير في مكانه هو المناسب .

* * *

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود: ١٠٧]

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ أي أرض الآخرة وسماؤها. وأما هذه الأرض والسماوات فستبدّل كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وذلك يدل على الدوام غير المنقطع .

وقيل في قوله: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ ﴾ أقوال منها: أن هذا الاستثناء يعني حالهم في البرزخ وفي يوم الحساب قبل أن يقضي الله بين الخلائق .



وقيل: هو استثناء من أنواع العذاب المذكورة فيصيرون إلى عذاب آخر.

وقيل غير ذلك والله أعلم.

قد تقول: لقد قال في سورة الأنعام: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

فقال: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ فأسند المشيئة إلى لفظ الجلالة (الله).

وقال ههنا في آية هود: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ فأسند المشيئة إلى الرب مضافًا إلى ضمير مخاطب. فما السبب؟

فنقول: إن الكلام في الأنعام إنما هو خطاب من الله للكافرين من معشر الجن والإنس، فقد قال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾.

فهو سبحانه يخاطب الإنس والجن وليس يخاطب الرسول، فلا يصح أن يقول: (إلا ما شاء ربك).

ولما انتهى من خطابهم التفت إلى الرسول فقال له: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

كما اختلفت خاتمة كل من الآيتين، فقد ختمها في آية هود بما يدل على القدرة وهو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ وهو المناسب لما فعله ربنا في الأمم التي أهلكها مما ذكره في السورة، ومناسب لما ذكره من مشيئته سبحانه.

وختمها في آية الأنعام بما يدل على الحكمة فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ

عَلِيمٌ﴾ لما تردد من ذكر حكمته في السورة ، فقد ختم عدة آيات بذلك ، فقد قال: ﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ في آيتين وهما الآية الثامنة عشرة والآية الثالثة والسبعون.

وقال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ و﴿ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ في ثلاث آيات وهن: الآية الثالثة والثمانون، والآية الثامنة والعشرون بعد المائة، والآية التاسعة والثلاثون بعد المائة.

فهذه خمس آيات ختمت بالحكمة.

في حين لم يرد في هود إلا آية واحدة وهي قوله: ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ .

هذا إضافة إلى أنه قد ترددت الألفاظ المشتقة من الحكمة والحكم في الأنعام أكثر مما في هود.

فقد قال: ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

وقال: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وقال: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

وقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾ [الأنعام: ٨٩].

وقال: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام: ١١٤].

في حين قال في هود:

﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١].

وقال: ﴿ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥].

فقد ترددت الألفاظ المشتقة من الحكمة والحكم عشر مرات في الأنعام.

وترددت أربع مرات في هود.

فناسب كل تعبير موضعه من أكثر من جهة .

* * *

﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨] .

قال في الأشقياء: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ فأسند الشقاء إليهم ، ولم يقل: (فأما الذين أُشقوا) ليدل على أن ذلك بما قدمت أيديهم ، فهم الذين أشقوا أنفسهم

وقال في السعداء: ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ﴾ بالبناء للمجهول ، ليدل على أن الله هو الذي أسعدهم برحمته وفضله .

جاء في (روح المعاني): «وما ألطف الإشارة في شقوا وسُعدوا على قراءة البناء للفاعل في الأول والبناء للمفعول في الثاني. فمن وجد ذلك فليحمد الله تعالى ، ومن لم يجد فلا يلومن إلا نفسه» [١] .

﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾

«أي غير مقطوع عنهم ولا مخترم» [٢] .

ولم يقيد العطاء بشيء وإنما أطلقه ليشمل كل ما تقتضيه السعادة ، وهذا العطاء مستمر غير مقطوع .

قد تقول: لقد قال في سورة الواقعة: ﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٢ ـ ٣٣] .

وقال ههنا: ﴿ غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي غير مقطوع ، ولم يقل: (ولا ممنوع) كما قال في الواقعة .

---

(١) روح المعاني ١٢/١٤٦ .

(٢) روح المعاني ١٢/١٤٦ .

فنقول: لقد قال ههنا: (عطاء) أي يُعطَون ، فدل ذلك على أنه غير ممنوع وإلا فكيف يُعطَون والعطاء ممنوع؟!

ولم يقل مثل ذلك في الواقعة ، فناسب أن يقول: (ولا ممنوعة).

وقال: ﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ ولم يقل: (غير مقطوع) كما قال في الواقعة: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ وذلك أنه أفاد فائدتين:

الأولى: أن العطاء غير مقطوع.

والأخرى: أنه سالم غير مكسور ولا محطم وليس فيه عيب ، فإن من معنى الجذ: الكسر. فالمجذوذ أعم من المقطوع لأنه يشمل المقطوع وغيره.

وقوله: ﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أفاد معنيين: أنه غير مقطوع وأنه سالم.

والعطاء أعم من الفاكهة ، فهو يشمل الفاكهة وغيرها.

فناسب العموم العموم.

* * *

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ [هود: ١٠٩]

نهاه في آية سابقة عن أن يكون في مرية مما أنزل إليه فإنه الحق من ربه فقال له: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

ونهاه ههنا عن أن يكون في مرية مما يعبد قومه فإنهم متبعون لآبائهم.

وقوله: ﴿مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ﴾ يحتمل معنيين:

الأول: أن تكون (ما) اسمًا موصولاً ، أي مما يعبده هؤلاء من الآلهة ، فـ(ما) ههنا تعني آلهتهم.

والآخر: أن تكون (ما) مصدرية، فيكون المعنى: فلا تك في شك من عبادة هؤلاء[١].

فمعبوداتهم وعبادتهم باطلتان. فقد يكون المعبود حقًّا والعبادة باطلة كما هو شأن كثير مما نرى، فإن المعبود هو الله وهو الحق وقد تكون العبادة باطلة كما هو شأن أهل الكتاب والمبتدعين ونحو ذلك.

وأما هؤلاء فمعبوداتهم وعبادتهم كلتاهما باطلتان فجاء بما يجمع هذين المعنيين.

وقال: ﴿إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ والأصل أن يقول: (كما عبد آباؤهم) إلا أنه عدل إلى صيغة المضارع للدلالة على أن ذلك كان عادة لهم وهو ما يسمى بالماضي المستمر أو المضارع المعتاد، ويكون بالفعل المضارع مسبوقًا بـ (كان)، فكان الأصل في هذا المعنى أن يقال: (إلا كما كان يعبد آباؤهم)، وقد دل قوله تعالى: (من قبل) على المضي.

جاء في (روح المعاني): «ومعنى (كما يعبد) كما كان عبد، فحذف لدلالة (قبل) عليه. وكأن اختيار هذا للإشارة إلى أن ذلك كان عادة مستمرة لهم»[٢].

ومعنى ذلك أن هؤلاء سيصيبهم مثل ما أصاب الأولين ممن قصصنا عليك من سوء عاقبتهم.

وقد تقول: ولِمَ لَمْ يقل: (كما كان يعبد آباؤهم) كما قال في آيات أخرى، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠].

---

(١) انظر الكشاف ٢/١١٧، روح المعاني ١٢/١٤٧.

(٢) روح المعاني ١٢/١٤٧ ـ ١٤٨.

وقوله: ﴿ تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ [إبراهيم: ١٠]؟

فنقول: إن قوله: ﴿ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ﴾ يفيد الاتصال مع آبائهم في العبادة. ولو قال: (ما يعبدون إلا كما كان يعبد آباؤهم من قبل) لاحتمل الاتصال والانقطاع، وليس ذلك نصًّا في اتصال الأبناء بالآباء في العبادة.

فإن قولنا: (أعبد ما كان يعبد أبي) يحتمل الانقطاع والاتصال، فقد يحتمل أن أباه كان يعبد شيئًا ثم انقطع عن عبادة ذلك الشيء وأصبح يعبد شيئًا آخر، وذلك نحو كثير من الصحابة كابن عباس وابن عمر، فقد كان آباؤهم يعبدون الأصنام في الجاهلية ثم أسلموا وعبدوا الله سبحانه، فلو قال ابن عمر مثلاً (أعبد ما كان يعبد أبي) لم يصح ذلك، بخلاف ما لو قال (أعبد ما يعبد أبي).

ويحتمل الاتصال أيضًا.

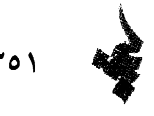
وأما قولنا: (أعبد ما يعبد أبي) فهو يفيد الاتصال وأنه مستمر على نحو عبادة أبيه.

فقوله تعالى: ﴿ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ﴾ يفيد الاتصال ومماثلة عبادة هؤلاء لعبادة آبائهم. وقوله: ﴿ مِّن قَبْلُ ﴾ يفيد الزمن الماضي في عبادة آبائهم وأنه متصلة متماثلة منذ الزمن الماضي.

فلو قال: (ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم) ولم يقل (من قبل) لربما أفاد ذلك عبادة آبائهم الأقربين إليهم دون القدامى.

ولو قال: (ما يعبدون إلا كما كان يعبد آباؤهم) لربما أفاد الانقطاع واحتمل الاتصال.

ولكنه قال: ﴿ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ﴾ فأفاد الاتصال والمضي.



وقد تقول: ولم قال إذن في آيات أخرى: ﴿وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ ونحو ذلك بذكر (كان)؟

فنقول: إنه حيث قال ذلك جاء بما يفيد الاتصال بعبادة آبائهم ، فقد قال مثلاً: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠] فإنه واضح من التعبير أنهم يعبدون ما كان يعبد آباؤهم ، وأنكروا على رسولهم دعوته إلى التوحيد.

ونحو ذلك قوله: ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقوله: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ [سبأ: ٤٣].

فاتضح الفرق.

﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾.

أي حظهم من الخير والشر ، فإنّا موفوهم ما كتب لهم من الخير والشر كاملاً غير منقوص.

وأسند الإيفاء إليه سبحانه بضمير التعظيم ، ولم يقل: (وهم سيُوفَّون نصيبهم غير منقوص) ليدل على أنه سبحانه وحده بيده مقاليد الأمور من الخير والسوء. ولو قال: (سيوفَّون) لم يدل على أن الذي يفعل ذلك هو الله ولم تُعلم الجهة التي ستوفيهم ذلك.

وقال: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ﴾ بالاسم ولم يقل: (وإنا سنوفيهم) بالفعل للدلالة على ثبات هذا الأمر وأنه مقطوع بحصوله ، وقد أكد ذلك بإن واللام إضافة إلى اسمية الحدث.

* * *

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: ١١٠]

ذكر ربنا لرسوله ﷺ أنه لم يكن بدعًا من الرسل ولا أن قومه بدع من الأقوام ، فقد آتى موسى الكتاب كما آتاك ربك فاختلفوا فيه ، فمنهم من آمن به ومنهم من كفر . ولولا أن الله سبحانه جعل لكل شيء أجلاً لقضي بينهم في هذا الاختلاف .

ثم قال : ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ ولم يقل : (إنهم كانوا في شك مريب) ليدل على أن الاختلاف والشك لا يزالان قائمين في عهده ﷺ ، وإن كلاًّ سيوفيه ربنا أعمالهم كما قال في قومه ﷺ : ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ .

قد تقول : لقد قال ههنا : ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ .

وقال في آية أخرى : ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى : ١٤] فقال : ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ولم يقل مثل ذلك في آية هود فما السبب؟

فنقول : لقد ذكر في آية هود ملة واحدة وهي ملة موسى .

وأما في آية الشورى فذكر مللاً متعددة ، قال تعالى : ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الشورى : ١٣ ـ ١٥] .

فقد قال : ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ وذلك في يوم القيامة .

فقوله: ﴿ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ يعني يوم القيامة.

وقوله: ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ يعني ذلك أيضًا.

فناسب أن يقول: ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ههنا دون آية هود التي ليس فيها ذاك.

* * *

﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [هود: ١١١]

أي إن كلاًّ من قومك وغيرهم سيوفيهم ربك أعمالهم.

وقال: (ليوفينّهم) بالفعل المضارع المؤكد الدال على الاستقبال ليدل على أن ذلك سيكون حتمًا.

وقد أكد الفعل بلام القسم والنون لما أكد شكهم بإن واللام فقال: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ فلما كان شكهم مؤكدًا أكد توفية أعمالهم.

ألا ترى أنه لما خاطب عيسى عليه السلام لم يؤكد العذاب ولا توفية الأجور لأنه ليس في مقام شك، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٥ ـ ٥٧].

فقال: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ ﴾ من دون توكيد.

وقال: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ من دون توكيد.

فناسب كل تعبير موضعه.

وقد تقول: لقد قال في آية سابقة: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ بالاسم (موفوهم).

وقال ههنا: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ بالفعل، فما السبب؟

فنقول: إن كل تعبير مناسب لموضعه.

فقد قال في الآية الأولى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ فذكر النصيب ولم يذكر أن النصيب لم يكتمل.

وأما في هذه الآية فقد قال: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

فقال: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾، و(يعملون) فعل مضارع يحتمل الحال والاستقبال، فهم لم ينتهوا من أعمالهم بعد. والتوفية إنما تكون بعد انتهاء العمل. فلما لم ينته العمل لم يأت بالاسم الدال على الثبوت، وإنما جاء بالفعل المضارع الدال على عدم الانتهاء.

وقدم ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ على (خبير) لأن الكلام على الأعمال، فقد قال: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ فناسب تقديم العمل.

وقال: (خبير) لأنه ذكر أنهم في شك، والشك أمر قلبي فاحتاج إلى الخبرة، والخبرة: المعرفة ببواطن الأمر[1].

والخبير: هو الذي يعلم بواطن الأمور، و(خبرت الأمر أخبره) إذا عرفته على حقيقته[2].

فناسب ذلك ما ورد في سياقه.

* * *

---

(١) المفردات في غريب القرآن (خبر).

(٢) لسان العرب (خبر).

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود: ١١٢]

الاستقامة هي «لزوم المنهج المستقيم، وهو التوسط بين الإفراط والتفريط. وهي كلمة جامعة لكل ما يتعلق بالعلم والعمل وسائر الأخلاق» (١).

﴿ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾.

معطوف على الضمير المستتر في (استقم) وهو الفاعل، وصح العطف للفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بقوله: ﴿ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾، ولو لم يكن بينهما فاصل لكان ضعيفًا.

ولا يصح عطفه على التاء في (أُمرت) وهو نائب الفاعل لا من حيث اللفظ ولا من حيث المعنى.

أما من حيث اللفظ فلعدم الفاصل،

وأما من حيث المعنى فلأنه سيكون المعنى أنه أُمر هو ومن تاب معه، وأنه طلب منه وحده الاستقامة على ما أُمروا به، ولم تُطلب الاستقامة ممن تاب معه، أي استقم كما أُمرتم.

وهذا لا يصح.

قد تقول: لقد قال ههنا: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾.

وقال في الشورى: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ [الشورى: ١٥] ولم يقل: (ومن تاب معك).

كما لم يقل في آية هود: (فلذلك فادع).

---

(١) روح المعاني ١٢/ ١٥٢.

فما السبب؟

فنقول: أما قوله في الشورى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ﴾ دون آية هود فلأنه ذكر التفرق في أهل الأديان وقد كان نهاهم عنه، فقد قال: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ﴾ [الشورى: ١٣].

ثم قال: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ﴾.

فقال مخاطبًا رسوله: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ﴾ أي ادع إلى الائتلاف وعدم التفرق.

جاء في (روح المعاني): «(فلذلك) أي إذا كان الأمر كما ذكر فلأجل ذلك التفرق... (فادع) إلى الائتلاف والاتفاق على الملة الحنيفية القديمة»[1].

وقال أيضًا: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ﴾ فقال له: لا تأبه بالمشركين وادع لما أمرت به وإن كان كبر عليهم ذلك.

ولم يتقدم مثل ذلك في هود، فلم يقل مثل ما قال في الشورى، وإلا لو قال ذلك لقيل: (لأي شيء أدعو؟)

وأما قوله في آية هود: ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ فلأن الخطاب موجه إليه ﷺ وإلى من معه ثم يستمر في خطابهم قائلاً ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ﴾، ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾، ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

وأما في آية الشورى فالخطاب خاص برسول الله وهو موجه له على سبيل الخصوص. فقد قال ﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾،

---

(١) روح المعاني ٢٥/ ٢٣.

﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ ، ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ .

فلما كان الخطاب خاصًّا برسول الله مأمورًا على وجه الخصوص لم يذكر من معه ، ولا يناسب أن يذكروا.

وقد تقول: ولم قال: (ومن تاب) دون (من آمن) مثلاً أو نحو ذلك؟

فنقول: إن الذي يتوب إنما يتوب من معصية ، وفاعل المعصية عليه بعد التوبة أن يستقيم فناسب ذكره في السياق.

﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ .

أي لا تتجاوزوا الحد الذي أمرتم به ، فطلب منهم الاستقامة على ما أمروا به وألا يتجاوزوا ذلك. فناسب أن يذكر (ولا تطغوا) بعد قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ لأن عليهم أن يعلموا أولاً ما أمروا به فلا يتجاوزوه.

* * *

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣]

الركون هو الميل اليسير[١] ، أي لا تميلوا إلى الذين ظلموا أدنى ميل[٢] . وقال: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ ولم يقل: (إلى الظالمين) أي لا تميلوا إلى من وقع منهم ظلم وإن لم يكن الظلم وصفًا ثابتًا فيهم.

وهذا نهي عظيم عن مداهنة الظالمين ، فقد نهى عن الميل اليسير إلى من وجد منهم ظلم فكيف بمن اتصف به على جهة الثبوت ، فكيف بتعظيمهم واتخاذهم أصحابًا وخلطاء ، وكيف باتخاذهم أولياء؟!

جاء في (روح المعاني): «(الذين ظلموا) بمن وجد منه ما يسمى

---

(١) الكشاف ٢/ ١١٨.

(٢) روح المعاني ١٢/ ١٥٤.



ظلمًا مطلقًا. قيل: ولإرادة ذلك لم يقل: إلى الظالمين»[(١)].

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾

فلا تظنوا أن الظالمين سيكونون أولياء لكم، فإنهم ليسوا كذلك وما لكم من ولي من دون الله.

وأنتم لا تنصرون ما دمتم تركنون إلى الذين ظلموا.

وقال: ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ ولم يقل: (من ولي) لأنه ذكر الذين ظلموا وهم جمع فناسب أن يذكر الأولياء.

وجاء بـ (من) الاستغراقية ليدل على أنهم ليس لهم ولي من دون الله على سبيل الاستغراق.

* * *

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]

إقامة الصلاة: أداؤها على تمامها والمداومة عليها.

والمراد بطرفي النهار على ما قيل: الصبح والعصر، وقيل: الصبح والمغرب[(٢)].

والزلَف: صلاة المغرب والعشاء[(٣)]، وقيل: هي صلاة العشاء، ذلك أن معنى الزلَف: الساعات القريبة من آخر النهار، من أزلفه إذا قربه[(٤)].

---

(١) روح المعاني ١٢/ ١٥٤، وانظر البحر المحيط ٥/ ٢٦٩.
(٢) روح المعاني ١٢/ ١٥٦.
(٣) الكشاف ٢/ ١١٨.
(٤) انظر الكشاف ٢/ ١١٨ وانظر روح المعاني ١٢/ ١٥٦.

وقيل: معنى (زلفًا) قُربًا، والمعنى «وأقم زلفاً من الليل على معنى وأقم صلاة تتقرب بها إلى الله عز وجل في بعض الليل»[١]. وهي صلاة التهجد. وقيل المراد بها صلاة العشاء والتهجد، وقد كان التهجد واجبًا عليه ﷺ[٢].

وهذا المعنى يناسب الأمر بصورة الإفراد في قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ. . .﴾ لأن التهجد كان واجبًا عليه وليس واجبًا على المسلمين. ولو قال: (وأقيموا) لكان التهجد واجبًا عليهم.

وقيل: إن هذا «من البلاغة القرآنية أن الأوامر بأفعال الخير أفردت للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وإن كانت عامة في المعنى.

والمناهي جمعت للأمة، وما أعظم شأن الرسول عليه الصلاة والسلام عند ربه جل وعلا»[٣].

يعني بالأوامر قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ. . .﴾ ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾.

والمناهي قوله: ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ﴾ ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾.

* * *

﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾

قال: (يذهبن) ولم يقل: (تُذهِب) ليبين أن الحسنات وإن كانت قليلة يذهبن السيئات. ولو قال: (تُذهب) لدل على أن الحسنات إذا كانت كثيرة تذهب السيئات.

فإن النون في نحو هذا تفيد القلة، والإفراد يفيد الكثرة كما هو معلوم.

---

(١) الكشاف ٢/ ١١٨، وانظر روح المعاني ١٢/ ١٥٦.
(٢) انظر روح المعاني ١٢/ ١٥٦.
(٣) روح المعانى ١٢/ ١٦٠.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ يدل أن ذلك يشمل عموم من اتعظ وعمل بهذا وليس مخصوصاً بالرسول ﷺ.

فكل من تقرب إلى الله وعمل بهذا شمله قوله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

* * *

﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٥]

﴿وَٱصْبِرْ﴾ «أي على مشاق امتثال ما كلفت به» [١] من الاستقامة على ما أمر به وإقامة الصلاة وغيرها من الطاعات، وعلى ما نهاه عنه.

وأطلق الأمر بالصبر ولم يقيده بشيء ليشمل كل ما يقتضي الصبر.

وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وفيه إيماء إلى أن الصبر من الإحسان[٢].

وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ولم يقل: (إن الله لا يضيع أجركم) أو أجر من فعل ذلك ونحوه للإطلاق وليشمل كل من فعل ذلك وكل محسن.

فدخل في ذلك كل من فعل هذا الفعل وكل من أحسن، سواء فعل هذا الفعل أم غيره من وجوه الإحسان.

جاء في (روح المعاني): «وعدل عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود مع إفادة فائدة عامة لكل من يتصف بذلك. وهو تعليل للأمر بالصبر» [٣].

---

(١) روح المعاني ١٢/ ١٦٠.
(٢) انظر روح المعاني ١٢/ ١٦٠.
(٣) روح المعاني ١٢/ ١٦٠.

قد تقول: لقد قال في آية سابقة من السورة: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

وقال ههنا: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

فاختلف ختام كل من الآيتين، فقال في الآية الأولى: ﴿فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

وقال في هذه الآية: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

فما السبب؟

فنقول: إن سبب الاختلاف بين الخاتمتين أن الآية الأولى ليس فيها أمر بعمل ولا طلب بتكليف، فذكر أن العاقبة للمتقين، أي للذين يتقون الله. ولو اتقى قوم نوح ربهم ما حل بهم ما حل.

ثم إنه أيضًا لم يذكر الأجر كما ذكر في الآية الثانية، لأن الأجر إنما يكون على العمل وهو لم يذكر عملاً في الآية.

هذا ومن ناحية أخرى أنه حيث ذكر عاقبة أهل الفلاح ذكر المتقين والتقوى وذلك نحو قوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وقوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ ولم يذكر غيرهم من أهل الفلاح.

وأما في هذه الآية فإنه أمرهم بأوامر ونهاهم عن نواه فناسب ذكر الإحسان، فإن من الإحسان ما يكون في العمل كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

وقد تقول: ولِمَ لَمْ يقل هنا: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ كما قال في آية الكهف؟

فنقول: إن كل تعبير في مكانه أنسب، فقد قال في الكهف: ﴿إِنَّ

ﵟٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًاﵞ فقد ذكر الذين عملوا الصالحات ، فناسب ذكر أجر من أحسن عملاً .

وأما في سياق آية هود فقد ذكر أعمالاً وذكر أمورًا أخرى ليست أعمالاً ، فقد ذكر إقامة الصلاة والأمر بالصبر ، والصبر ليس عملاً .

وذكر من تاب فقال : ﵟفَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَﵞ والتوبة ليست عملاً ، وغير ذلك مما ذكر مما يناسب ذكر الإحسان .

وقال في الكهف : ﵟأَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًاﵞ فقال : (أحسن) بالفعل الماضي .

وقال في آية هود : ﵟلَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَﵞ فذكر المحسنين بالاسم ، والاسم يدل على الثبوت كما هو معلوم .

ذلك أنه قال في الكهف : ﵟإِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِﵞ فقال : ﵟوَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِﵞ بالماضي ، فناسب أن يقول : ﵟأَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَﵞ بالماضي .

وأما في هود فقد ذكر أمورًا تدل على الدوام ، فقد قال : ﵟفَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَﵞ والاستقامة إنما تكون على الدوام .

وقال : ﵟوَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚﵞ وإقامة الصلاة إنما تكون على الدوام والاستمرار .

وقال : (واصبر) وهو أمر بالصبر على وجه الدوام وعلى الإطلاق ، فناسب أن يذكر ما يدل على الثبات والدوام وهم المحسنون . والله أعلم .

* * *

ﵟفَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ١١٦ﵞ

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٦ ـ ١١٧]

* * *

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾

أي فهلا كان من الأمم التي قبلكم أولو فضل وخير ينهون عن الفساد في الأرض.

و(هلا) تفيد التحضيض والتنديم والتأسف والتحسر، أي هلا فعلوا ذلك فلم يصبهم ما أصابهم.

والمعنى: ليتحسرْ عليهم العباد وليتفجعوا عليهم لما أصابهم، وهو نظير قوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠].

جاء في (تفسير الثعالبي): «﴿لَوْلَآ﴾ هي التي للتحضيض، لكن يقترن بها هنا معنى التفجع والتأسف الذي ينبغي أن يقع من البشر على هذه الأمم التي لم تهتد. وهذا نحو قوله سبحانه: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِۚ﴾.

والقرون من قبلنا قوم نوح وعاد وثمود ومن تقدم ذكره»[1].

و(أولو بقية) «أُولو فضل وخير، وسمي الفضل والجود بقية؛ لأن الرجل يستبقي مما يخرجه أجوده وأفضله فصار مثلاً في الجودة والفضل»[2].

وفي قوله: ﴿بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تحضيض لهذه الأمة وتنبيه لها لتفعل ذلك، وتحذير لمن لم يفعل أن يصيبهم مثل ما أصاب الأولين.

---

(١) تفسير الثعالبي ٣/ ٣٠٧، وانظر روح المعاني ١٢/ ١٦٠.
(٢) الكشاف ٢/ ١١٩، وانظر البحر المحيط ٥/ ٢٧١.

وقوله: ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مناسب لما جاء بعده وهو قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾، فإن المصلح يصلح ما فسد.

* * *

﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ﴾

أي اتبعوا الشهوات وما أنعموا فيه.

وقال ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ ولم يقل: (تبع) للدلالة على المبالغة في ذلك.

وقال: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ ولم يقل: (واتبع الناس) أو (أولئك) ليدل على أنهم فعلوا ذلك إضافة إلى ظلمهم.

وكل من الوصفين مدعاة إلى العقوبة.

﴿وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ أي إضافة إلى ما مضى من الظلم واتباع الشهوات كانوا مجرمين «أي مرتكبي جرائم غير ذلك» (١).

فذكر فيهم عدة مساوئ كل منها مدعاة إلى العقوبة.

١ ـ فقد قال: ﴿وَٱتَّبَعَ﴾ أي بالغوا في الاتباع.

٢ ـ وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ فاتصفوا بالظلم.

٣ ـ وقال: ﴿مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ﴾ أي من التنعم واتباع الشهوات.

ولم يرد الإتراف في القرآن إلا وصفًا سيئًا مدعاة إلى العقوبة في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى

---

(١) روح المعاني ١٢/ ١٦٢.

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا . . . [المؤمنون: ٣٣] وقال فيما قال في أصحاب الشمال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة: ٤٥].

وقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٤].

٤ - وقال: ﴿وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ أي مرتكبي جرائم غير ذلك.

٥ - ووصفهم بالإجرام على جهة الثبوت فقال: ﴿وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ فجاء بالاسم ليدل على ثبات هذا الوصف فيهم.

* * *

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]

جعل ربنا الإصلاح عاصمًا من الهلاك، أي ما صح وما استقام أن يهلك ربنا القرى التي أهلكها أو غيرها من القرى (بظلم) أي ظالمًا لها وأهلها مصلحون .

فإذا كان أهل القرى يتعاطون الإنصاف فيما بينهم فإن ربنا لا يهلكهم.

فإذا تظالموا أهلكهم كما قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ .

قد تقول: لقد قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١].

فقال في آية الأنعام هذه: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾.

وقال في هود: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾.

وقال في الأنعام: ﴿وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾.

وقال في هود: ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾.

انظر روح المعاني ١٢/ ١٦٣.



فلم ذاك؟

فنقول: إن آية الأنعام إنما هي في الآخرة والكلام على ما كان في الدنيا، قال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٠ ـ ١٣١]

فالكلام على ما مضى فقال: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي إن ذلك الأمر قد وقع لأنه لم يكن ربك قد أهلك القرى بظلم وأهلها غافلون، من دون إقامة حجة عليهم وإرسال الرسل إليهم. فذكر أنه بلغهم وأرسل الرسل إليهم وأقام الحجة عليهم، وهم أقروا بذلك وشهدوا على أنفسهم فاستحقوا العقوبة.

وأما آية هود فالكلام فيها على الدنيا.

وما ورد فيها عام يشمل الماضي والحال والاستقبال. فإن ربنا لا يهلك القرى إذا كان أهلها مصلحين.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

وهذا في الأمم السابقة.

وقال: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقال: ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٦٨] فالحكم عام كما ترى. وهو كذلك في آية هود يشمل جميع الأزمنة.

وأما خاتمة كل من الآيتين فهي مناسبة لسياق كل منهما.

فقد ختم آية الأنعام بقوله: ﴿ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ «لأن سياق الكلام في ذكر الرسل والإنذار والتبليغ. قال تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٠ ـ ١٣١]

فأنت ترى أن سياق الكلام في ذكر الرسل والإنذار والتبليغ وتبيان أنَّ الله لم يهلك أقوامًا غافلين لم يُنذروا ولم يكلَّفوا، فإن من لم ينذر فهو غافل. قال تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [يس: ٦] وما كان الله ليهلك مثل هذه الأقوام، ولذا ختمها بقوله: ﴿ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾

وأما آية هود فهي في الكلام على الإصلاح والنهي عن الفساد في الأرض، ولذا ختمها بالإصلاح قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٦ ـ ١١٧].

فناسب ختام كل آية السياق الذي هي فيه»[1].

* * *

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ

(١) التعبير القرآني ٢٧٦ ـ ٢٧٧، وانظر درة التنزيل ١٣١ ـ ١٣٢.

وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود: ١١٨ ـ ١١٩]

أي لو شاء ربك لجعل الناس ملة واحدة: ملة هدى أو ضلال ، ولكنه لم يشأ ذلك فكانوا مختلفين: بعضهم على هدى وبعضهم على ضلالة.

وجاء باللام في جواب (لو) فقال: (لجعل) للتوكيد ؛ لأن ذلك مما يستحيل جمعهم عليه ، لكن الله لو شاء لفعل.

وقال: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ ولم يقل: (وجعلناهم مختلفين) فأسند الاختلاف إليهم لا إليه سبحانه ، أي هم اختاروا ذلك فاختلفوا كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ﴾ [يونس: ١٩].

والمعنى: أنه لو شاء ربنا لجعل الناس ملة واحدة ولكنه لم يشأ ، فهم لا يزالون مختلفين إلا من رحمه الله فهداه إلى صراطه المستقيم.

وقوله: ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ قيل فيه: إنه خلقهم للاختلاف.

وقيل: خلقهم لرحمته[١].

وقيل: خلقهم للاختلاف والرحمة.

جاء في (روح المعاني) أنه قيل: إن «الإشارة للرحمة والاختلاف ، أي لاختلاف الجميع ورحمة بعضهم خلقهم.

وجاءت الإشارة لاثنين كما في قوله تعالى: ﴿ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾»[٢].

والظاهر فيما يبدو لي ـ والله أعلم ـ أن قوله: ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ يعني أنه خلقهم ليرحمهم، ذلك أنه سبحانه ذكر أنه خلق الجن والإنس ليعبدوه، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

---

(١) تفسير القرطبي ٩/ ١١٤.
(٢) روح المعاني ١٢/ ١٦٤.

أي خلقهم ليعبدوه فيرحمهم ، فإن في عبادته رحمتهم .

* * *

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾

«أي نفذ قضاؤه وحق أمره» [١] .

وقوله : ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ مناسب لما تردد في السورة من ذكر الأمم المعذبة وقلة المؤمنين الناجين ، وهو وصف لعموم الناس كما قال تعالى : ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧] .

وقال : ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: ١١٦] .

فناسب ذلك ذكر ملء جهنم .

وتقديم الجنة على الناس لأنهم سبب في كثير من معاصي الناس بما يوسوسون لهم ابتداء من إبليس مع آدم إضافة إلى معاصيهم هم .

قد تقول : لقد قال الله في موضع آخر : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [النحل: ٩٣] .

وقال ههنا : ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ .

فأسند المشيئة في آية النحل إلى الله فقال : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ، وأسندها في آية هود إلى الرب مضافاً إلى ضمير المخاطب فقال : ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ .

وقال في النحل : ﴿لَجَعَلَكُمْ﴾

وقال في هود : ﴿لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ﴾

---

(١) تفسير القرطبي ٩/ ١١٤ .



فما سبب ذلك؟

فنقول: إن الخطاب في سياق آية هود موجه إلى الرسول ﷺ. قال تعالى:

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ﴾ [١٠٩]، ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [١١٢]، ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ [١١٤]، ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [١١٥]، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ [١١٧]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ [١١٨]، ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [١١٩]، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ [١١٩]، ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [١٢٠]، ﴿وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ﴾ [١٢٠]، ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ [١٢١]، ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [١٢٣]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ﴾ [١٢٣].

فناسب أن يقول: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ﴾ بإضافة الرب إلى ضمير المخاطب، وأن يقول: ﴿لَجَعَلَ النَّاسَ﴾.

وأما الخطاب في سياق النحل فللمخاطبين عمومًا. قال تعالى:

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ [٩١]، ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [٩١]، ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [٩١]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ [٩٢]، ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ [٩٢]، ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [٩٢]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [٩٣] ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [٩٣]، ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [٩٤]... إلخ.



فناسب أن يقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ﴾ وليس ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ لأن الخطاب ليس موجهًا إلى الرسول، وأن يقول: (لجعلكم) لأن الخطاب موجه إليهم.

هذا إضافة إلى أن كلمة (ربك) ترددت في هود أكثر مما ترددت في سورة النحل.

فقد وردت في سورة هود (١٧) سبع عشرة مرة.

ووردت في النحل (١١) إحدى عشرة مرة.

وأن كلمة (الله) ترددت في النحل أكثر مما وردت في سورة هود.

فقد وردت في هود (٣٨) ثمانيًا وثلاثين مرة.

ووردت في النحل (٨٤) أربعًا وثمانين مرة.

فناسب كل تعبير موضعه من جهة أخرى.

* * *

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]

أي نقص عليك كل نبأ من أنباء الرسل ما فيه تثبيت لفؤادك وطمأنينة لقلبك، فإنك ستعلم بذلك أنك لست الوحيد في عدم استجابة قومك لك، بل ذلك شأن الأمم مع رسلهم فإنهم لاقوا الكثير منهم.

وقوله: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ﴾ بدل من (كلاً) ويحتمل أوجهًا إعرابية أخرى[1].

والإشارة بـ (هذه) يحتمل أن تكون إلى القصص وما جاء فيها من

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٩/١١٦، روح المعاني ١٢/١٦٧.

الأنباء ، ويحتمل أن تكون إلى السورة أو الإشارة إليها مع نظائرها(١) .

وعرّف (الحق) لأنه الحق المعلوم الذي لا حقّ سواه .

ونكّر الموعظة والذكرى لأنهما قد يكونان في غير ما ذكر مما يتعظ به الناس ويكون لهم به ذكرى .

فالموعظة والذكرى قد تتعدد ، أما الحق فواحد .

جاء في (روح المعاني) أنه قيل : «الظاهر أن يقال إنما عرّف الأول لأن المراد منه ما يختص بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأما الموعظة والتذكير فأمر عام لم ينظر فيه لخصوصية» (٢) .

* * *

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ [هود: ١٢١ ـ ١٢٢]

أي اعملوا على حالتكم التي أنتم عليها فإنا عاملون على ما نحن عليه . فكل منا ومنكم يعمل على حالته .

وانتظروا ما سيحصل لنا ونحن ننتظر ما يحيق بكم ، وسترون ونرى عاقبة كل منا ومنكم .

وقدم العمل على الانتظار لأن العمل يسبق العاقبة .

وقال هنا : ﴿ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴾ ، وقال في فصلت : ﴿ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ ﴾ بالفصل بين (إن) و(نا) ، ذلك أنه فصل في ذكر إعراضهم وزاد فيه فقال : ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ ﴾ [فصلت: ٥] .

---

(١) انظر روح المعاني ١٢/ ١٦٧ .

(٢) روح المعاني ١٢/ ١٦٧ .

فلما ذكر زيادة إعراضهم وفصل فيه بقوله: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾، ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾، ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ زاد في التعبير والتوكيد، فناسب كل تعبير موضعه والله أعلم.

قد تقول: لقد قال في أكثر من موضع: ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞ﴾ [الأنعام: ١٣٥]، الزمر: ٣٩]

وقال على لسان سيدنا شعيب: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞ﴾ [.. ٩٣]

فقال: ﴿إِنِّي عَٰمِلٞ﴾ بالإفراد.

وقال ههنا: ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ بالجمع.

فلم ذاك؟

فنقول: كل ما ورد فيه: (إني عامل) فالسياق في مقام المتكلم المفرد وليس في مقام الجمع، وأما المخاطبون فهم جمع.

فلم يذكر في سياق آية الأنعام من آمن معه، فقد قال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ١٣٣ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ١٣٤ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٣ - ١٣٥]

وكذلك ما جاء في سورة الزمر فقد قال: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٣٨ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣٩ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ [الزمر: ٣٨ - ٤٠].

وكذلك ما ورد على لسان سيدنا شعيب فالخطاب إنما هو خطاب شعيب لقومه ولم يذكر من معه فقد قال: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ ﴾ [هود: ٩٣].

أما آية هود التي ذكر فيها (إنا عاملون) فالسياق في ذكر المؤمنين مع الرسول ﷺ. فقد قال: ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٢ - ١١٣]

وقال: ﴿ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠] فناسب أن يقول: (إنّا عاملون) بالجمع.

فناسب كل تعبير موضعه.

* * *

﴿ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ [هود: ١٢٣]

بعدما طلب منهم الانتظار قال: ﴿ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ وذلك لأن عاقبة الانتظار من الغيب.

وقدم الجار والمجرور (لله) للدلالة على الحصر، فإنه لا يعلم الغيب إلا هو.

ثم قال: ﴿ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ ﴾ فهو عالم الغيب وهو الحاكم والقادر فلا يقطع أمرًا أحد دونه.

فعملنا وعملكم مرجعه إليه، وهو وحده الذي يقطع بالأمر ويقضي فيه.

وقدم الجار والمجرور (إليه) ليدل على أن ذلك إليه حصرًا لا إلى غيره.

وقال: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ على سبيل الاستغراق لا يقطع أحد غيره في شيء من ذلك مهما كان حقيرًا أو عظيمًا.

فجمع في قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ العلم المطلق والقدرة المطلقة والحكم المطلق كل ذلك له حصرًا.

﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فالذي له الغيب والقادر على كل شيء والذي يرجع إليه الأمر كله هو من يستحق العبادة وحده فاعبده وتوكل عليه.

وقدم العبادة على التوكل؛ لأن التوكل لا ينفع من دونها فهي المطلب الأول. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ثم قال:

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

أي إنا ربنا ليس غافلاً عما نعمل، فهو يراقبنا ويعلم ما نعمل غير غافلٍ عنه ولا ينتظر أن يرفع إليه الأمر ليعلم ماذا حصل.

فقد يظن ظان أن ربك يقطع بالأمر بعد أن يرفع إليه ويعلم به فقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ليدفع هذا الظن، فهو يعلم ما نعمل الآن وفي المستقبل.

لقد قال أولاً: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فجاء باسمه العلم، ثم قال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ﴾ بإضافة الرب إلى ضمير المخاطب ليدل على أن ربه هو الله الذي له غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله. فهو الذي أرشدك وهداك وأمرك بعبادته والتوكل عليه.

وفي ذلك إلماح إلى نصره في الدنيا والآخرة والله أعلم.

جاء في (البحر المحيط): «﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . . . ﴾

والجملة الأولى: دلت على أن علمه محيط بجميع الكائنات كليها وجزئيها، حاضرها وغائبها، لأنه إذا أحاط علمه بما غاب فهو بما حضر محيط، إذ علمه تعالى لا يتفاوت.

والجملة الثانية: دلت على القدرة النافذة والمشيئة.

والجملة الثالثة: دلت على الأمر بإفراد مَن هذه صفاته بالعبادة الجسدية والقلبية، والعبادة أولى الرتب التي يتحلى بها العبد.

والجملة الرابعة: دلت على الأمر بالتوكل، وهي آخرة الرتب لأنه بنور العبادة أبصر.

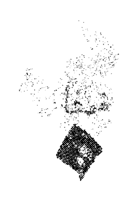
إن جميع الكائنات معذوقة بالله تعالى، وأنه هو المتصرف وحده في جميعها لا يشركه في شيء منها أحد من خلقه فوكل نفسه إليه تعالى . . .

والجملة الخامسة: تضمنت التنبيه على المجازاة فلا يضيع طاعة مطيع ولا يهمل حال متمرد» (١).

* * *

(١) البحر المحيط ٥/ ٢٧٥.

مراجع الكتاب



- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ط٣/ ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر

- أسئلة بيانية في القران الكريم - فاضل صالح السامرائي - دار ابن كثير - سوريا ، الطبعة الثانية ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

- أنوار التنزيل للقاضي البيضاوي - المطبعة العثمانية ١٣٠٥هـ

- البحر المحيط لأبي حيان ط١ سنة ١٣٢٨هـ - مطبعة السعادة بمصر

- البرهان في متشابه القرآن لمحمد بن حمزة الكرماني

- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني - فاضل صالح السامرائي - دار ابن كثير - سوريا ، الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

- التعبير القرآني - فاضل صالح السامرائي - دار ابن كثير - سوريا ، الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

- تفسير القرآن العظيم لابن كثير - دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه

- تفسير الثعالبي - عبد الرحمن بن محمد الثعالبي - دار إحياء التراث العربي - بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.



- تفسير فتح القدير للشوكاني ط١/ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٣٤٩

- تفسير القرطبي.

- التفسير الكبير لفخر الدين الرازي - المطبعة البهية - مصر

- الجملة العربية تأليفها وأقسامها - فاضل صالح السامرائي - دار الفكر - عمان - الأردن

- حاشية ابن المنير على الكشاف - بهامش الكشاف للزمخشري - مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م

- حاشية الدسوقي على مغني اللبيب - مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني بمصر

- حاشية الصبان على شرح الأشموني - دار إحياء الكتب العربية

- درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت ط١/ ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م

- روح المعاني في تفسير القرآن الكريم لشهاب الدين السيد محمود الآلوسي - إدارة الطباعة المنيرية - دار إحياء التراث العربي

- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك - دار إحياء الكتب العربية

- شرح رضي الدين الاسترابادي على الكافية - مطبعة (الشركة الصحافية العثمانية) سنة ١٣١٠هـ

- على طريق التفسير البياني - فاضل صالح السامرائي - نشر جامعة الشارقة - الشارقة - الإمارات العربية المتحدة.

- القاموس المحيط لمجد الدين الفيروزابادي ط٥ - شركة فن الطباعة - مصر

ـ الكشاف للزمخشري ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م

ـ لسان العرب لابن منظور ـ مصور على طبعة بولاق

ـ لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ـ فاضل صالح السامرائي ـ دار ابن كثير ـ سوريا ـ الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م .

ـ المصباح المنير للفيومي ـ المكتبة العلمية ـ بيروت .

ـ معاني الأبنية في العربية ـ فاضل صالح السامرائي ـ دار ابن كثير ـ الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م .

ـ معاني القرآن للفراء ـ مطبعة دار الكتب المصرية للتأليف والترجمة ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م

ـ معاني النحو ـ فاضل صالح السامرائي ـ مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر ـ الموصل ـ العراق

ـ المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ـ طهران

ـ ملاك التأويل لأبي جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي ـ تحقيق الدكتور محمود كامل أحمد ـ دار النهضة العربية للطباعة والنشر ـ بيروت سنة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م .

ـ من أسرار البيان القرآن ـ فاضل صالح السامرائي ـ دار الفكر ـ عمان ـ الأردن ـ الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م

ـ نبوة محمد من الشك إلىاليقين ـ فاضل صالح السامرائي ـ دار ابن كثير ، الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م .

* * *

فهرست سورة هـود

٨	﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾	٣٣
٩	﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴾	٣٦
١٠	﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۚ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾	٣٩
١١	﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾	٣٩
١٢	﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾	٤٤
١٣	﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾	٤٨
١٤	﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾	٤٨
١٥	﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾	٥١
١٦	﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾	٥١



* * *